شيبتني بغـداد

شيبتني بغـــداد

روايـــة

حُســـام الخطـيب

شيبتني بغداد

روايــة

اسم الكاتب: حسام الخطيب
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: فريق المكتبة العربية
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٤٩٩٧ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهداء عام

إلي الشعب العراقي العظيم بكل أطيافه وفئاته

وأخص بالإهداء العر اقيات الماجدات

إهداء خاص

إلي السيد / مقتدي الصدر

وإلي روح الشيخ / أحمد الو ائلي

وإلي روح الدكتور / علي الوردي

مقدمة

هذه الرو اية تأريخ لسيرة شخصية لعدة أشخاص حقيقيين، بعضهم علي قيد الحياة وبعضهم قد غادر عالمنا وإن تعجبت من بعض الأمور والقصص الواردة فيه فأحب أن أؤكد لك أن الحقيقة أشد بشاعة بكثير مما في الرو اية.

مَن ذا أصابكِ يابغدادُ بالعينِ *** ألمْ تكوني زماناً قُرَّةُ العيْنِ؟

ألمْ يكُنْ فيكِ أقوامٌ لهُمْ شرَفٌ *** بالصّالحاتِ وبالمعْروف يلقوني

ألم يكُن فيكِ قَومٌ كان مسكنُهُم *** وكانَ قُربُهُم زيناًمن الزَّينِ

صاحَ الزمانُ بِهم بالبَينِ فأنقَرضُوا *** ماذا الّذي فجعتني لوعة البين

أستودعُ اللهَ قوْماً ما ذكرتُهُم *** إلاّ تحدَّرماءُالعيْنِ مِنْ عيني

كانوا ففَرّقهُم دهرٌ وصدَّعَهُم *** والدّهر يصدِّعُ مابينَ الفريقين

كم كانَ لي مُسعَدٌ منهم على زمني *** كم كان منهم على المعروف مِنْ عون

لله درُّ زمانٍ كانَ يجمعنا *** أين الزمان الذي ولَّى ومِنْ أينِ

يامن يخرِّبُ بغدادَ ليعمّرُها *** أهلكتَ نفسكَ مابين الطريقين

عبد الملك الرواق

الفصل الأول (الإقلاع)

إبتسامتي لم تستطع أن تخفي توتري، حتي أن ضابط الأمن علي البوابة أعاد تفتيشي ذاتيا مرتين وهو يقلب في صفحات جواز سفري قبل أن يتطلع إلي في حذر قائلا:

- إلي أين تسافر؟

أجبت في هدوء مصطنع :

- (بغداد) . ..(العراق)

ناولني جواز سفري وتذكرتي وهو يرمقني بنظرة شك، قبل أن التقط أمتعتي الكثيرة و أنا أهرع لإنهاء إجراءات السفر الروتينية المتعبة، وفي نفسي يدور هذا السؤال " هل أتخذت القرار الصحيح ؟"

كل زملائي و أقاربي قالوا عني "مجنون" ومن لا يعرفني جيداً قالوا عني "مغامر" ولكني لست أيا من الإثنين، كنت أبعد ما يكون عن الأولى وأدنى ما يكون من الثانية، ما أنا إلا جبان يبحث عن فرصة لإثبات جرأته، عن رحلة لأكتساب شجاعته، عن جائزة وهمية أو كنز خفي أو وسام يبرهن به علي قدرته علي تحدي الحياة، ما أنا الا جبان يبحث عن نفسه ، يحاول أن يتخلص من خوفه ، أبحث عن الخوف لأتخلص منه، أتوق للخلاص من الخوف من المجهول والخوف من القلق بشأن المستقبل والخوف من القلق علي فوات الرزق والأهم التخلص من الخوف من الموت.

كنت أعتبر الموضوع برمته تجربة لإيجاد ماهية جديدة لنفسي، لأكون (أنا) جديد، لكن يبقي السؤال الأصعب:

- من أنا ؟

أنا (أنور الرفاعي) الأردني ذو الأصول الفلسطينية، أحمل غربتي علي ظهري أينما ذهبت، لا أشعر بالإنتماء إلي أي مكان سوي فلسطين التي لم أراها سوي في خيالي جنات وارفة بينما هي علي شاشات التلفاز حروب زاحفة، لم أسمع عن فلسطين سوي من أبي (عدنان) الذي حدثني كيف هرب هو وأسرته المكونة من امي وأختي الكبري (علياء) بنت الشهرين أنذاك من مدينة (يافا) في أعقاب حرب (١٩٦٧) وكيف نزح الي الأردن مع غيره من الفلسطينين، ليلتقطه مخيم الزرقاء قبل أن يشق طريقه خارج المخيم ليسكن في إربد بعد أن صارع صخور الأرض وطيور السماء من أجل البقاء.

يذكر لي أنه أسماني (أنور) علي إسم الزعيم المصري الراحل (أنور السادات) لأن وقت ولادتي أتت بعد حرب أكتوبر، وككل العرب لهجت الألسنة بحب الزعيم المصري حينما كان زعيم الحرب قبل أن تضج القلوب بالكراهية حينما قرر أن يصبح بطلا للسلام، فكر أبي يومها أن يغير أسمي من (أنور) إلي (ياسر) وذلك حبا في الزعيم الفلسطيني (ياسر عرفات) ولكن أمي أثنته عن ذلك فقد أحبت الإسم وأحست به وكأنما يليق علي وهي تهمس لأبي:

- دع (أنور السادات) يغير أسمه، اما إبني فسيظل (أنور).

ظل أبي كل مساء بعد عودته من عمله في مصنع العصائر يجمعنا ليحدثنا عن فلسطين الجميلة، حدثنا عن جمال الطبيعة علي ضفاف بحيرة طبريا، عن جبل الكرمل المشرف علي سهول حيفا، عن بهاء المنظر في القدس الشريف، عن مزارع الزيتون في الخليل، عن الزهور البرية في وادي سخمين، عن شاطيء غزة، وعن غروب الشمس من فوق تلال صفد، وحدثنا أكثر عن مدينته الأثيرة الي قلبه (يافا) التي حملها في ذاكرته أينما ذهب وهي كما قال أسم علي مسمي حيث تعني كلمة (يافا) المنظر الجميل، يذكر بساتين الحمضيات المنتشرة وعلى الأخص البرتقال، وأسواقها العامرة ومصانعها

الصغيرة، أخذنا بعين الخيال لمسجد (حسن بك) ولكنيسة القديس (بطرس)، طاف بنا في ساحة الساعة التي أصبحت فيما بعد ساحة الشهداء

أصبح أبي أردنيا بالأسم فقط ولكن بقي فلسطينياً في القلب، وكذلك صرنا نحن، أعتز بجواز سفري الأردني والذي فتح لي أبواب العالم ولكن أحن الي جواز سفر فلسطيني بختم شجرة الزيتون، وأظن كل الفلسطينين المشتتين في بقاع الأرض كذلك.

كبرت عن سماع الحكايات وتركت (إربد) بعد زواج أختي ورحيل أبي إلي عالم أفضل من عالمنا لكي أدرس الهندسة المدنية في الجامعة الأردنية ب (عمان)

أذكر دموع أمي وكيف إستماتت حتي تجعلني ألتحق بالجامعة في (أربد) وعجبت لقسوة قلبي و أنا أهدر هذا اللؤلؤ المنثور في دموع الحزن وليس دموع الفرح، أقنعتها أنها مجرد بضع سنوات وأعود لها مرة أخرى و أنني سوف آتي لها في أجازات شهرية منتظمة و أنني ... و أنني ....

والحقيقة أني كنت أكذب.

كنت أريد أن أري العالم من حولي بعيدا عن حكايا المسافرين وقراءات الكتب، وبالنسبة لإبن (أربد) كان العالم بالنسبة لي هو (عمان) فلما صرت في (عمان) أصبح العالم بالنسبة لي هو البلاد العربية ثم البلاد الغربية والشرقية كلها، وتحولت البضع سنين الي عشر سنوات كاملة قضيتها مهندسا مدنيا بعد الجامعة في ليبيا والكويت والبحرين والأمارات وأخيرا في قطر.

العجيب أنني كلما إرتحلت من بلد إلي أخر أصبحت في غربة أكبر، شعرت بأن (فلسطين) هي بيتي الأول رغم أني لم أراها، وأن (أربد) غربة، ثم صرت في (عمان) فصارت غربة أضافية عن بيتي الأول والثاني ثم صرت إلى

(طبرق) بالجماهيرية الليبية فصارت لدي ثلاث غربات وكانها ظلمات فوق ظلمات، وربما كان ذلك لمحاولتي جعل كل مكان وطني ومد جذور الصداقة والمودة مع من أعرف وأصادق هناك، وتعددت الأوطان وتعددت الغربات، وكأنما أسير من ليل إلي ليل ومن قاع الي قاع حتي لم أعد أدري من أنا.

ثم جاء عرض (بغداد).

حادثني بها رئيسي في العمل مازحاً.

- هل تذهب للعراق، هناك مشروع لبناء مجمع سكني فاخر هناك بالعاصمة (بغداد) مرتب خيالي ضعف راتبك هنا ب (قطر) وكذلك ترقية ستصير كبير مهندسي المشروع والمسؤول الاداري عنه و....

لم انتبه لبقية كلامه، فهو لم يكن يحتاج إلي كل هذا الترغيب في الذهاب، كنت قد وصلت الي سن الخامسة والثلاثون دون أن أجد ذاتي، ما حصيلة ما مضي ، بيت متواضع أنشأته لنفسي في ضواحي(عمان) ورفضت أمي حتي أن تقيم فيه وظلت تتلمس روح أبي في بيت (أربد) ورصيد عادي في البنك جعلني في مرتبة وسطى بين تياري المجتمع فأنا أغنى الفقراء و أفقر الأغنياء. عدا عن ذلك لم يكن لدي شيء، فالغربات المتوالية لم تترك لي صديقا عزيزاً ولا حبيبة أثيرة عرفت الكثيرين وغادروني وعرفت الكثيرات وغادرتهن، ولعل (بغداد) تكون هي الوطن الذي ينهي كل الغربات.

وهأنذا بعد مرور شهرين فقط من حديثي مع رئيسي بالعمل، أحمل حقائبي الكثيرة قاصداً أرضا غريبة عني سوى من اللسان والدين، بلداً خرجت من أتون حرب ضروس تلى حصار خانق، وتتواتر الأنباء عن حرب أهلية مستعرة منذ عامين مركزها (بغداد) وتتمدد ككرة الثلج في كل ربوع العراق، وخلف هذا الثلج المحرق ألافاً من القتلى.

حاولت أن أطرد كل هذه الخيالات السوداء من رأسي، كنت قد سلمت أمتعتي لتشحن علي ظهر الطائرة، وبقي لدي فقط حقيبة محمولة بها حاسوبي النقال، رأيت سيدة عجوز في الخمسين تنوء بحمل من الهدايا، تحمل واحدا فيسقط عشرة، ساعدتها علي حمل هداياها وأنا أجلسها إلي جواري قبل أن أفتح كتاباً هندسياً في طرز الابنية الحديثة من حقيبتي لأقرأه ، فوجئت بها تميل علي هامسة :

- شكراً

أجبتها بإبتسامة هادئة

- عفواً ،هذا لا شيء.

عدت إلي كتابي لأقرأه في هدوء لأشعر بيد تمتد بشطيرة طعام نحوي وهو تقول :

- تفضل معي.

أعتذرت لها بأدب وأخبرتها أني غير جائع، فأعادت الشطيرة إلي حقيبتها دون أن أراها تتناول منها أي شئ، أختلست نظرة مطولة لها، كانت قد تخطت الخمسين بقليل، وان لاح علي وجهها مسحة من جمال قديم قد أنهكه الزمن، عيناها واسعتان تفيضان بالحزن، قصيرة القامة علي وجه ملحوظ، وقد أرتدت حجابا أبت شعيرات رأسها إلا أن تخرج منه، لم أشعر أنها عجوز متصابية تود أن تفتح حديثا مع شاب لأجل غرض ما، لا شك في أنها تشعر فقط بالوحدة والملل.

عدت إلي كتابي لأقراه لأجدها تعاود سؤالي في غير كلل:

- هل أنت طبيب؟

إبتسمت وقد أستسلمت لهذا الطرق الملح علي أبواب لساني قائلاً:

- لا لست طبيب، أنا مهندس.

- ميكانيكي.

- لا مهندس مدني، أعمل في الإنشاءات.

تعلمت القاعدة الأولي في عالم النساء، أنهن لا يصبن بالملل من محاولة فتح حديث أبداً ولا تعجزهن الوسيلة، فهأنذا قد طويت كتابي، وأستغرقت في حديث مطول مع المرأة التي لا أعرف إسمها حتى، و عقبت هي على ردي قائلة:

- زوج إبنتي مهندس كمبيوتر، قطري الجنسية، يعمل هنا في بنك ب (الدوحة)، تزوجا مذ ثلاث سنوات وجاءت هي للعيش معه هنا، أذهب لزيارتهم كل عام ولكن لا أظل هنا سوي عشرة أيام فقط وأعود بعدها علي الفور.

قلت لها:

- الا يأتي زوجك معك؟

أجابت وهي تنظر الي سقف صالة الإنتظار غير مكترثة وكأنما تستدعي ذكرى شاردة:

- زوجي كان طيارا عراقيا يعمل بالقوات المسلحة، قتل في أواخر الحرب العراقية الإيرانية، وترك لي ثلاث بنات ،كنا من أهل (البصرة) ونزحت إلى (بغداد) لأن جيراننا وأهلنا تضايقوا منا، كيف يقاتل شخص شيعي بني عقيدته الشيعة الإيرانيين ولا ينصرهم علي بني قوميته العراقيين.

أحسست أني قد فتحت بابا من الحزن العميق لديها فعدت لأغلقه بسرعة قائلاً:

- ربنا يبارك لك في بناتك.

تنهدت في حسرة قائلة:

- لم تعد لدي سوي واحدة، الوسطي التي تعيش في (قطر)، الأولي وهي الكبري كانت أستاذة بالجامعة في تخصص الفيزياء، أغتيلت بالكواتم وهي خارجة من بيتها لتترك لي صبيا يتيما أتعهده بالرعاية، والثانية ربة منزل خريجة معهد سكرتارية إنفجرت سيارتها وهي تقل طفليها من المدرسة فماتوا جميعاً.

شعرت هنا أن لديها مدينة كاملة من الحزن بلا أبواب فلا جدوى مما أفعله لإيقافها، فقلت مواسياً:

- الله يرحمهم جميعا، ولكن ما معني كواتم؟

أجابت في هدوء:

- كاتم الصوت، المسدس.

قلت لها متعجبا :

- ولماذا يقتل أحدهم أستاذة جامعية بكاتم صوت؟

قالت وكأنها تعودت علي السؤال:

- لا نعلم، صدقني لا نعلم، منذ سقوط نظام البعث، والموت يجول في أنحاء العراق وكأنه يحمل قوائم أسماء، في شهر رأينا عشرات الطيارين والعسكريين يغتالون، وفي الشهر الذي يليه علماء الفيزياء، وفي شهر أخر تلاهم سياسيين معروفين، وهكذا. يتراوح الأمر بين السيارات المفخخة أو الإغتيال بالمسدسات، وكأنما يأبي الموت الا أن ياخذ خيرة الرجال والنساء من هذا البلد المسكين.

هممت بأن امسك بيدها مواسيا غير أنني شعرت أن هذا غير لائق فقلت لها مواسياً:

- ربنا يصبر قلبك ويحفظك.

- شكرا يا بني ، هل أنت ذاهب ل(بغداد) زيارة أم عمل؟

أجبت و أنا أعدل وضع منظاري الطبي:

- بل عمل، هناك مشروع سكني أعمل عليه سيستغرق عامان.

- و أين ستقيم؟

- لا اعرف بعد، ربما في فندق، ربما يستأجرون شقة سكنية أو سكن العمال.

قالت وهي تربت علي كتفي برفق:

- حاول الا تسكن منفرداً، (بغداد) خطرة و أنت غريب.

تباً لها، هذا المرأة ماهرة في بذر الخوف في النفوس ورعايته وسقيه حتى يطرح شجراً من الفزع وثماراً من الرعب، وهي الوحيدة التي أتمنى ألا تكون جدتي لو كنت طفلا فهي تروي قصص الموت وكانها قصصا للأطفال قبل النوم، حاولت أن أقتل بذرة الخوف في نفسي قائلاً:

- و أنت أين تسكنين في (بغداد) ؟

أجابت في سرعة:

- في مدينة (الصدر)، هي آمنة نوعا ما عن غيرها ولكن الحذر لا يمنع القدر، قبل سفري كانت ابنة جيرانا ذات الست سنوات مختفية ، المسكينة (نور) خرجت خارج البيت لتلعب مع الصبية واختفت، ذقنا الأمرين ونحن نبحث عنها طوال ثلاثة أيام، في صباح اليوم الرابع طرق الباب شاب يحمل صينية طعام مغطاة، ملقيا السلام وهو يقول لأهل الطفلة " لا ريب أنكم التهيتم بالمفقودة فلم تطبخوا لانفسكم طعاما، هذه هدية مني والجيران لبعضها" تركهم وأنصرف، فرح الصغار بالطعام، رفعوا الغطاء عن الصينية، ليجدوا المسكينة (نور) الصغيرة ذات الحظ التعس مقطعة الي اجزاء ومشوية، شوي الله قلوب من فعل بها هذا؟

أقشعر الدم في داخل جسدي وشعرب برجفة وكأنها الكهرباء تسري من اخمص قدمي إلي فروة رأسي و أنا أردد ورائها مبهوتاً:

- ردها لهم مشوية؟

- نعم الكافر، عديم الدين والقلب، حرق الله قلبه.

- تقولين القصة بشكل عادي، هل يحدث هذا كثيراً؟

- لا ليس كثيراً، مدينة الصدر أمنة كما قلت لك، من حين لأخر انفجار هنا او هناك، إختطاف، إغتيال، عدا عن ذلك كل شيء بخير الآن.

أزدردت لعابي و أنا اقول لها:

- و أنا كأردني مغترب، هل هناك أماكن تنصحيني بالابتعاد عنها؟

- نعم بالطبع، إبتعد عن مدينة الصدر

- حيرتي عقلي ، ألم تقولي أنها آمنة

- نعم علينا نحن معشر الشيعة، أما أنت سني، أعز صديقاتي سنية، تسكن في حي الأعظمية لديها ابن يدعي (عمر) أحبه كثيراً هذا الشاب، طيب و إبن أصل، كلما طلبت منه أن يأتي لزيارتي يقول لي "لا يا خالة يقتلوني".

قلت لها في حيرة:

- ولماذا يقتلوه، أليس عراقي؟

- نعم ولكن أسمه (عمر) يعني سني، سيقتلونه هنا حتي لو أقسم لهم أنه شيعي، لقد قتلوا الكثيرين ممن أسمائهم (عمر) أو (طلحة) أو (عثمان) أو حتي (صدام) حتي أن الكثير اضطروا إلي اعادة تسمية أبنائهم وبناتهن خوفاً عليهم من القتل.

كنت قد سمعت انه في (لبنان) كانوا يقتلون الإنسان حسب الهوية ولم أعرف أنه بالعراق يمكن ان تقتل حسب الإسم.

وأستمرت السيدة طوال ثلاثين دقيقة كاملة من حديثها معي تقود جيوش الخوف بقصصها تغزو بها رقعاً جديدة من عقلي ومن قلبي، كانت لا تتوقف عن الحكي، وشعرت أنني سأضيف خوفاً جديداً لمواجهته ألا وهو الخوف من العجائز العراقيات، ولكن في قرارة نفسي شعرت بالرثاء لها، كيف تحتمل أن تعايش وتسمع وتري كل هذا الاهوال والفظائع.

يبدو أن (بغداد) أخطر مما توقعت وغمرني شعور أني أود العودة والتراجع عن قرار السفر، فلأبقي جباناً حياً خيراً من أن أصير شجاعاً ميتاً، بل ورأيت الخوف متمثلاً أمامي كإنسان ضاحك وهو يتكيء بظهره علي باب العودة ويغمز لي بعنيه وكأنما يقول لي "ستبقي معي الي الأبد".

حينها إلتقطت نفسا عميقا وأنا أقول لنفسي: "الله معي ولا أخشي شيئا" ولم ينقذني من طيف الخوف والمرأة العجوز سوي وصول الحافلة المقلة لنا إلي الطائرة ومن نافذة الطائرة ألقيت نظرة مودع علي مدينة (الدوحة) العامرة التي أخذت تتصاغر أمام عيني حتي توارت تحت السحاب.

الفصل الثاني (الوصول)

هبطت الطائرة علي أرض مدرج الطيران، وتسابق ركابها في حمل الحقائب والأمتعة، لم اكترث كثيرا لمساعدة السيدة العراقية العجوز لكيلا أسمع منها أحدي قصصها المرعبة، وبدأت بالتحرك ببطء حتي أكون أخر المغادرين بينما يجول في خاطري فكرة تتلمس طريقها ببطء لمحو الخوف الذي بثه في نفسي حديث المرأة العجوز الا وهي كيف أننا كنا علي متن الحديد نشق عنان السماء ووصلنا بسلام، كان يمكن للطائرة أن تنفجر أو تسقط ولكن القدر قدر لنا ساعات أضافية في الحياة، وربما أياماً وشهوراً أو سنيناً وعقوداً، اذن ما المانع أن أعيش عمري كله علي أرض خطرة، فطالما ان القدر لم يقل في كلمته الاخيرة فتتساوي هنا (بغداد) مع أي مدينة مسالمة أخري في العالم، لربما يقتلني لص في (مكسيكو سيتي) أو تدهسني سيارة مسرعة في (هلسنكي) ، ولربما صعقني التيار الكهربائي في أحد فنادق (جوهانسبرج)، الموت لا يعرف عنواناً، وإن كان مقره الرئيسي حسبما يبدو (بغداد) فهي وجهته الأثيرة.

كان مطار (بغداد) صغيرا متواضعا، غاية في الإهمال وبالتأكيد لم تمسه يد التطوير منذ سنين، أذكر ان سقوط (بغداد) كان قد بدأ بإشاعة سقوط المطار ولاحظت قلة عدد الأجانب الوافدين إلي (بغداد)، معظم من كانوا بالطائرة عراقيين، لمحت بعيني مجموعة من الآسيويين علي الاغلب هنود أو بنجلاديشيين قد تجمعوا في احد أركان المطار انتظارا لتأشيرة الدخول وبدا عليهم أنهم عمال لشركة ما، كان هناك عدد من النساء المتشحات بالسواد لابد انهن ايرانيات، لكني لم المح سوي وجها أو وجهين لأوربيين ولم المح أي لباس خليجي علي الإطلاق.

قدرت أن البلد تعاني عزلة خارجية عميقة، وبعض الجنسيات قد تعرض نفسها للخطر في حالة السفر، أنهيت إجراءات الوصول بسرعة قياسية نظرا للهدوء الذي يشهده المطار وأسرعت بالخروج إلي مكان إستلام الأمتعة لالتقطها وأمضي.

كانت شركتي قد أعلمتني بأنه هناك شخص يدعي (ابو حيدر) سيستقبلني بالمطار ولكن أولاً علي أن اركب الحافلة من المطار الي منطقة تدعي (عباس ابن فرناس) لم أعلم مطاراً واحداً في العالم يجب عليك أن تاخذ وسيلتي مواصلات للوصول إليه أو مغادرته سوي مطار (بغداد)، فيما بعد أخبروني أن هذا لأسباب أمنية فالمطار مستهدف بشكل شديد وتعرض للقصف أكثر من مرة، سارعت بركوب الحافلة المجانية التي وفرتها إدارة المطار والتي قادتني إلي ساحة (ابن فرناس) قبل أن أهبط منها لأجد رجلاً في الاربعينيات من عمره، سميناً، مكتنزاً، له شوارب قوية مخيفة لم تخف حدتهما إبتسامته الواسعة، كان يحمل لافتة تحمل إسمي بين يديه، أقتربت منه مبتسما فحياني قائلا:

- حمدا لله علي السلامة، شاكو ماكو.

كنت اعرف عبارة (شاكو ماكو) من عملي السابق بالكويت والتي تعني (كيف الحال) او (ما الأخبار) فأجبت قائلا:

- الحمد لله يا (أبو حيدر).

بادر إلى حمل أمتعتي ووضعها بالسيارة، و اتخذت مكاني إلي جواره وهو يقود السيارة مبتعداً عن الساحة، تسليت بمشاهدة تمثال لرجل مجنح يمثل (عباس بن فرناس) واعجبت بلفتة العراق الكريمة في تقدير ذلك الرجل العربي المسلم الذي لا يحمل الجنسية العر اقية، ولكن زال العجب

فيما بعد حينما علمت ان الروح العروبية القومية واضحة بشكل ظاهر في كل (بغداد).

لاح في عقلي خاطر طريف ومؤلم ان (ابن فرناس) هو تجسيد للعراق ذاته كان يحلم بالطيران والتحليق فسقط سقوطاً مدوياً وهذا ما حدث مع (العراق) بالضبط، لاحظت وجود نقاط تفتيش عسكرية شديدة في الطريق، تحتوي كل نقطة تفتيش علي رجال وأليات وكأنهم بصدد شن حرب أو التصدي لها، علقت علي ذلك فضحك (أبو حيدر) قائلا:

- السيطرات، هذا أمر عادي هنا، (بغداد) مدينة مستهدفة والسيطرة ضرورية لحفظ الأمن.

علمت انهم يطلقون علي نقطة التفتيش (سيطرة) وهي الكلمة التي سأسمعها كثيراً فيما بعد حيث يطلقونها علي كل ما هو متحكم به، فيطلقون السيطرة المخزنية علي ادارة المخازن والسيطرة الادارية علي التحكم في الإدارة وهكذا.

قلت له:

- وهل تمنع السيطرات الحوادث حقيقة؟

تنهد (أبو حيدر) قائلا في حسرة:

- لا .

أدهشتني إجابته اليقينية ثم صمته الطويل فلم أساله لماذا، ولكن لابد أنه قد ادرك السؤال الذي بداخلي فقال مردفاً:

- الموضوع غير خفي، أحيانا المسؤول عن السيطرات يرى المتفجرات أو العبوات الناسفة داخل السيارة وبدلاً من إيقافها والقبض علي قائدها يتركها تمر، يقول أفضل من أن تنفجر في وفي رجالي، تخيل شيء غريب عجيب، يحفظ حياته مع بضعة أفراد ليترك السيارة تتجه نحو سوق أو

مدرسة أو حسينية لتقتل عشرات الأشخاص، خسيس، ولكن مثله كثيرين والعجيب انهم هم من بيدهم السلطة.

أطبقت شفاهي على لساني ولم أعلق بكلمة، فغير هو مجرى الموضوع قائلا:

- كيف حال الأردن؟

- بخير، الأمور طيبة، هل زرتها من قبل؟

- لا، لم يحدث بعد، ولكن أخي الاصغر عاش بها سنة تقريباً، هل زوجتك وأطفالك هناك أم تركتهم في (قطر)؟

- أنا لست متزوجاً.

- إن شاء الله نزوجك في (العراق).

إبتسمت ولم أرد و أنا اتابع المدينة بشوارعها الضيقة والتي بدأت تطبق علينا بعد رحابة ضواحيها، كانت المدينة لا تزال تخفي اثر جمال قديم، الأبنية غير مرتفعة ومبينة بشكل جيد نوعاً ما، القمامة غير منتشرة بالشارع، وحتى إشغال الطريق ليست بالقدر الملفت، هذه بقايا حضارة لا تريد أن تندثر بل تتوارى في خجل، الحضارة ليست قطعاً من الحجارة والتماثيل فحسب، بل هي سلوكيات وعادات وهذا الشعب متحضر رغم ما يقال عنه ويظن.

مررنا علي ميدان في أوسطه تمثال لفتاة تحمل جرة ماء ينزل منها الماء علي قدور فخارية متعددة، لابد انها نافورة ولكن غير تقليدية الطابع، أعجبني شكلها فالتقطت كاميرتي لأسجل منظرها بعدستي، لاحظ (أبوحيدر) ذلك فأبطا من حركة السيارة كي يساعدني علي التركيز وهو يقول:

- هذه ساحة (كهرمانة).

رددت خلفه متعجباً:

- (كهرمانة) هل هي ملكة عر اقية؟

- لا بل (كهرمانة) زوجة (علي بابا)

هنا نظرت للفتاة وللقدور بشكل مختلف من وجهة نظري، إذن هذه هي (كهرمانة) زوجة (علي بابا) وهذا الماء هو الزيت المغلي الذي تسكبه علي القدور المملؤة بالاربعين لص كما حدث في القصة الاسطورية المشهورة، تساءلت في خاطري هل لا زال الأربعين لصاً داخل القدور أم هربوا منها ليسرقوا من (بغداد) مالها وجمالها وسلامها وأمنها وعزها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، هل ظلوا كما هم أربعين فرداً أم أصبحوا أربعين ألفاً، ورثيت في نفسي لحال لص (بغداد) المسكين في ذلك الفيلم الكلاسيكي الشهير الذي طارده الناس لسرقة طعام يكاد يكفي لسد جوعه فقط.

وصلت السيارة إلي فندق عليه حراسات أمنية مشددة وهبطت منها لأساعد (أبو حيدر) في الحقائب، فلم يهرع أحد من حاملي الحقائب بالفندق لنا، كان الفندق شاهق الارتفاع يتجاوز العشرين طابقا بمساحات خارجية ضخمة، ولكني لم اجد فيه أحد يمد يد العون لنا فقلت ل (أبو حيدر)

- هل هذا فندق من فئة الثلاث نجوم؟

- لا طبعاً، هذا أفضل فنادق بغداد (عشتار شيراتون).

- هذا هو شيراتون (بغداد) مستحيل.

- لا إنه هو، ثواني أستدعي لك أحد حاملي الحقائب.

أختفى (أبو حيدر) بالداخل لدقائق ليعود ومعه شاب حليق حمل معنا الحقائب علي عربة وهو يرحب بنا بشدة لندلف إلي داخل الفندق و(أبوحيدر) يقول :

- إقامتك ستكون هنا يا سيد (أنور) وكل صباح الساعة السابعة والنصف ستجدني أمام الفندق بإنتظارك.

أومأت له برأسي دلالة المو افقة على ما خطط له وهو ينصرف عني مودعاً، تطلعت إلي بهو الفندق الواسع وإلى تمثال آخر أبيض اللون لفتاة تميل في إغراء، لاحظت أحد الرجال من موظفي الفندق يقترب مني متطوعاً بالشرح وهو يقول متبسما:

- هذه هي الإلهة (عشتار) ربة العشق والخصوبة.

- آه، إسم الفندق من أسمها.

- لها قصة أسطورية طويلة.

- حقاً، ما هي ؟

- لا أعرفها ، ولا اظن ان هناك أحد هنا يعرفها ولكن سأسال لك على أي حال.

تركني و انصرف وذهبت أنا لأكمل إجراءت تسجيلي بالفندق، و أتسلم مفتاح غرفتي، كانت غرفة واسعة وإن كانت سيئة التنظيف، ولكن أجمل ما فيها رؤية نهر دجلة أمام عينيك، لو شاء لي أن اقول لقلت أن مياهه تكونت من دموع الأرامل والأيتام في العراق وما أكثرهن و أكثرهم.

أنهيت فض أغراضي بسرعة قبل أن أدخل لدورة المياه لأنعم بحمام ساخن غسل عن بدني عناء السفر وتراب الطريق، ثم ألقيت بجسدي المتهالك علي الفراش لأغرق في نوم عميق.

إستيقظت بعد مدة لأرى الظلام يلف الغرفة بردائة الأسود، أدركت أنني قد أستغرقت في النوم حتي بعد غروب الشمس، نهضت من الفراش على عجل فقد كنت أشعر بجوع شديد ووجبة الطائرة قد إحترقت مع طول الطريق.

أخذت أرتدي ملابسي ببطء قبل أن أتوقف فجأة أمام المرآة في وجوم حينما لاحظت شيئا ما، حاولت التيقن، أقتربت بعنياي منها لكي أتامل

صورتي قبل أن أمد أصابعي لألمس شعرة بيضاء في مفرق رأسي، شعرة خجولة منزوية بين شعب شعري الأسود، متي نبتت هذه الشعرة، لم الاحظها هذا الصباح، وتذكرت المرأة العجوز وحكاياتها المرعبة قبل أن أهمس لنفسي " تباً، شعرة بيضاء من مجرد قصص".

هنا رثيت لحال أهل العراق، كم بالعراق من شباب بشعيرات شائبة من هول ما رأوه وسمعوه وعاشوه، بأصبعين أحطت بالشعرة ثم جذبتها بعنف لأتخلص منها ساخطا علي مجيئها في غيروقتها، لازلت شابا علي الشعر الأبيض

هبطت إلى المطعم الرئيسي بالفندق، كان المصعد بانورامي بزجاج شفاف، ولا أدري لماذا شعرت به يرتج بشدة قبل الوصول للطابق الأرضي، خرجت منه مسرعا لأشير لأحد الموظفين إليه ان يتفقده، اومأ الموظف برأسه دون أن يفعل شيئاً فتركته ومضيت.

كان المطعم أسمه (دنانير) وادركت أن (بغداد) تنضح بالعروبة في كل أركانها ولم لا وهي عاصمة العباسيين وقلب الخلافة النابض لأكثر من أربعمائة عام، حتي أنك لن تتفاجأ إن رأيت موكباً لهارون الرشيد يسير في الشارع، او رأيت المتنبي ينشد شعرا في الميادين، كانت أصناف الاطعمة في معظمها غريب، قرأت لافتات الطعام فلم افقه منها أي شيء، لاحظ مدير المطعم العراقي ارتباكي فاقترب مني مبستما وهو يقول:

- الا يعجبك الطعام؟

- لا ولكني لا اعرفه، هل هذه أكلات عراقية صميمة أم هي أكلات عالمية متعارف عليها؟

- لا بل هي أكلات عالمية، اطمئن كله هنا حلال وجيد.

- إذن ما هذا الشجر؟ هل تطبخون أشجار؟

- لا الشجر هو خضار، أنت تعرفه يشبه الخيار ويقطع الي شرائح ويقدم في المرق، يسمي خارج العراق كوسي.

- آه الكوسة أعرفها، أسميتموها أسم مريب هنا، شجر!!

- هذه هي الأسماء المتداولة في بلادنا لهذا الخضار، وهناك أشياء أخري كثيرة لن تجدها بمسمياتها الأصلية هنا، هنا نسمي الأرز (تمن) والملفوف (لهانة) والكمثري (عرموط) وغيرها كثير، إن شاء الله نعلمك اللهجة العراقية.

- إن شاء الله ، الا أتعرف بأسمك؟

- اسمي (نعيم ضياء جبار).

- تشرفنا، معك المهندس (أنور)

- الشرف لي أخي، تفضل، تناول طعامك بالهناء والشفاء، هل أحضر لك شيئا لتشربه؟

- ماء وعصير برتقال، هل البرتقال لازال اسمه برتقال؟

قال لي في إبتسامة ما أعذبها:

- أما هذا فنعم.

تركني و أنصرف ليحضر المشروبات ، وجلست إلي إحدى الموائد المنزوية أتناول طعامي، كان المطعم هادئاً إلا من بعض الكوريين يصطفون حول مائدة يتناولون طعامهم، هناك زوجان عراقيان علي ما يبدو يجلسان الى مائدة قريبة يتحدثان إلي بعضهما في همس وبين حين وأخر تمسح المرأة علي شعر رفيقها في حنان، لاحظت أنهما قد أحضرا كل أصناف الطعام من البوفيه المفتوح، لابد أن شهيتهما قوية للغاية.

بدأت في تناول طعامي، كان لذيذ ولكن دسم للغاية، يذكرني بطعام أمي الدسم والذي كانت تحرص علي تغذيتي به كلما ذهبت لديها في الأجازة حتى

تعوضني كما تقول عن جوع الغربة، أمي التي كانت تقيس محيط خصري بذراعيها وهي تحتضنني لكي تعرف كم من الوزن خسرت، والتي تفتح حافظتي أثناء نومي لتري ان كنت احتاج نقودا أم لا، يا تري ماذا تفعل أمي الأن؟

شعرت بأحدهم يتنحنح من جانبي، التفت لأجد الموظف الذي حدثني باليهو أمام تمثال عشتار، إبتسمت له فردها بمثلها وهو يقول:

- لقد عرفت لك ما هي قصة الألهة (عشتار)

- حقا ، كلي أذان صاغية لأعرفها.

أستند بمرفقه علي المقعد المقابل لي وهو يقول:

- (عشتار) كانت الهة الجمال والجنس والحب، وكان لها أسم أخر وهو (عينانا) وذات يوم نقلت شجرة تنبت علي ضفاف الفرات وزرعتها في بستانها المقدس علي أمل ان تصنع من خشبها عرشاً وسريراً ولكن عندما كبرت الشجرة أكتشفوا انها قد سكنتها أفعي في أسفلها وطائر في أعلاها وعفريتة داخلها، فطلبت (عشتار) النجدة من أخيها (اوتو) إله الشمس الذي أسند هذا الأمر للبطل الشهير (جلجامش) والذي أتي بسلاحه فقتل الأفعى وعندها هرب الطائر والعفريتة وقطع (جلجامش) خشب الشجرة ليقدمه ل (عشتار) لكي تصنع منه عرشاً وسريراً.

إبتسمت عند انهائه للقصة و أنا اقول:

- من المفترض أن تتزوج (جلجامش) مكافأة له علي هذه الشجاعة المفرطة.

قال الرجل في لهفة :

- هناك قصة لها مع (جلجامش) نتيجة لذلك؟

إبتسمت و أنا أقول:

- و أنا متشوق لها يا سيد (.....)

أجابني في سعادة

- (لويس) اسمي (لويس) اتركك بعافية تنهي طعامك، عندي ملاحظة أخيرة هل يمكنني أن أقولها؟

- طبعا ، تفضل.

- انت الأردني الوحيد الذي رأيته يبتسم.

ترددت في إبتسامتي هذه المرة و أنا أقول:

- هذه مغالطة شائعة بأننا الشعب الوحيد الذي لا يبتسم، ربما بسبب الضرائب، وربما لأنني لست أردنيا أصيلاً، أنا فلسطيني الأصل.

إرتفع حاجباه في دهشة غير مبررة قبل أن يخفضهما قائلا:

- أهلا بك أيا كنت، هنا وطنكم الثاني.

استئذن مني و أنصرف، أحضر لي (نعيم) الماء والعصير قبل أن يصب لي بعضا من الماء في الكوب، لاحظت أن عبوة المياه من صنع الكويت فقلت له مندهشاً:

- هل الماء مستورد من الكويت؟

- نعم بالتأكيد، هل هناك خطأ ما به؟

- الخطأ كله به، لديكم نهرين دجلة والفرات، وتستوردون الماء من الكويت التي ليس لديها سوي الأبار؟

رفع أمام وجهي زجاجة العصير وهو يقول :

- وهذا العصير صناعة سورية.

- الماء من الكويت والعصير من سورية، إذن ما هو الشيء الذي يتم صناعته في العراق؟

نظر لي واجما وقد برقت عيناه بأسى دفين قبل ان يقول:

- الكثير يصنع هنا، الحزن والظلم والألم صناعة عراقية بحتة.

أدركت أنني قد حركت بداخله وجعاً فبادرته قائلاً:

- ونسيت الرجولة، صناعة عر اقية أيضاً.

إنتفخت اوداجه وقد نسي ألم نفسه مع مجاملتي الصادقة وهو يعقب قائلاً:

- (بغداد) كانت وستظل قلعة الأسود والعراق العظيم مصنع الرجال.

قلت له و أنا اتناول شربة ماء:

- اخبرني، سمعت أنه هناك جالية فلسطينة كبيرة هنا في العراق.

- نعم ولكن كانت كبيرة، اليوم هم قلة.

- بالتأكيد لم يستطيعو التعايش مع ظروف البلاد القاسية.

- لا تعايشوا، ولكن هربوا في السنوات الاخيرة لسوء المعاملة.

- من الأمريكيين؟

- لا بل منا نحن العر اقيين.

- لم أفهم، كنت أسمع ان الفلسطيين يعاملون معاملة حسنة مميزة هنا.

- كان هذا أيام المرحوم (صدام حسين) كان يعاملهم معاملة حسنة كغيرهم من العرب، وكان يصرح لهم بالأقامة والخدمات الحكومية والعمل والتعليم والرعاية الصحية، ولكن بعد الاحتلال الأمريكي أصبحوا يعاملون معاملة تعسفية من النظام الجديد علي أساس أنهم موالون لحزب البعث ثم تم إستهدافهم بالقتل والأختطاف من المليشيات المسلحة حتي هاجر معظمهم، ولكن الشهادة لله، ليلة سقوط (بغداد) لم تنطلق رصاصة واحدة صوب الامريكيين سوى في الحي الذي يقطنه الفلسطينين.

ترددت لحظة قبل أن أساله:

- أراك تترحم على (صدام حسين) هل أنت سني؟

- لا، شيعي ولله الحمد، ولكن الرجل رغم دمويته كانت له حسنات لا أنكرها، وعهده مقارنة بما نحن فيه الأن يعد عصر ذهبي، ذهب (صدام) وذهب معه (العراق) كنت أذهب لزيارة قبره لقراءة الفاتحة حتي منعوا عنه الزيارة.

إنتهيت من طعامي قبل أن أساله:

- أذن بماذا تنصحني أذا سألني الناس عن هويتي هل أخبرهم أني أردني ام فلسطيني؟

- يمكنك أن تخبرهم أنك فلسطيني فهم لا يحبونه، أما الأردني فمكروه هنا.

- لماذا؟

إبتسم (نعيم) وهو يقول:

- أفضل الا أجيب، ستعرف بنفسك.

زادتني إبتسامته فزعاً، هذا البلد مخيف بشكل كبير، يسير بلا قواعد، أنت معرض للقتل او الإيذاء النفسي او البدني أيا كنت مسلم أو مسيحي، مؤمن أو كافر، سني أو شيعي، عربي أو أجنبي، هذ البلد يشبه وحشا له ألف رأس من الأفاعي كلها يلدغ بعضه.

طلبت منه دفتر الحساب ووقعت له في عجالة، و أنا أنصرف نحو غرفتي، ما أن دخلتها حتى أخذت أدق لأمي على هاتفها الجوال لعلها تجيب، أشعر ببعض الخوف يتسرب إلي نفسي، وصوت أمي هو الوحيد الذي سيبعث في نفسي الطمأنينة، كنت لحسن الحظ أحتفظ برقمي القطري وجعلته علي خدمة التجوال حتي لا تلاحظ أني أتكلم من العراق فلم اكن أنتوي إخبارها أني هناك حتى لا أضيف لها قلقا على قلق، الأم التي تقلق عليك أن تتعرى

في فراشك الدافيء في (قطر) يستحيل عليك أن تخبرها انك تعيش في مدينة يأوي اليها الموت كل يوم ليستمتع بحصد الأرواح.

مرت اللحظات ثقيلة وأمي لا تجيب، أتصلت بأختي (علياء) التي أجابت في لحظتها وكانها كانت تنتظر إتصالي، هي الوحيدة التي أخبرتها إلي أين أنا ذاهب، و أنا اعرف أنها ستخفي الأمر عن الجميع، (علياء) هي المرأة الوحيدة التي أعرفها التي لا تفشي سرا .

طمأنتها علي نفسي وسألتها عن أمي فأخبرتني أنها نائمة، ثم سألتني أن كنت أحب ان اوقظها، أخبرتها ألا تفعل و أنا اتمنى لها ليلة طيبة وأحلاما سعيدة.

أنهيت بعض الأمور العالقة هنا وهناك داخل الغرفة ورتبت أفكاري وإستعداداتي لأول يوم عمل لي غداً قبل أن أدخل المرحاض لكي أغسل أسناني قبل النوم، وهنا أنتبهت إلي أن الشعرة الخجول عادت مرة اخري ولكن بجرأة هذا المرة، فقد عادت ومعها رفيقة لها، لم ألمسها هذا المرة فقد خشيت أن يتزايد العدد كلما فعلت، وأنهيت غسل أسناني قبل أن البي نداء الفراش في شوق.

الفصل الثالث (الرو افض والنواصب)

إستيقظت ذلك الصباح مبكرا كعادتي في أول يوم عمل لي دائماً، وإن كنت لم أنعم بنوم هانئ فقد راودني حلم مزعج طوال الليل، اذ رأيتني أعدو في طريق طويل والإنفجارات تلاحقني قبل أن أسقط أرضاً وأنكفيء علي وجهي، حينها وجدت يدا تمتد لتساعدني لأنهض، مددت يدي لأمسكها بقوة، لكي أري وجه الخوف المألوف أمامي وهو يبتسم لي في خبث قبل أن أنهض فزعاً، عدت للنوم مرة أخري لينسال علي فيض من أضغاث احلام عن أمي وأصدقائي وحتي توم وجيري شخصيتا افلام الكرتون الشهيرة قد أتيا بدون دعوة إلى أحلامي وكأنما هو سيرك مفتوح.

أستيقظت منهكاً فكرياً ولكن حماماً بارداً أعاد إلي نشاطي، هبطت للمطعم بسرعة ثم تناولت إفطاري في بطء منتظراً وصول (أبو حيدر) لأراه يدق علي هاتفي يخبرني أنه بالخارج ينتظرني، هرعت إليه لألقي بنفسي في السيارة ونمضي علي عجل.

كان الطريق مزدحما علي غير العادة، وأخذنا وقتا طويلا في الأنتظار، لاحظت قطاراً صغيراً من المتسولين يدق زجاج السيارات وينصرفون من واحدة إلي أخرى، منهم من يغادر خاوي الوفاض ومنهم من ينتفح بألف دينار أو أقل منها، وكان هذا ما أثارني أن الدينار العراقي يحتوي علي الكثير من الأصفار والألف دينار لا تكاد تشتري شيئا وهي أقل في القيمة من الدولار الواحد، عرفت أن السبب يكمن في التضخم الذي حدث أبان فترة الحصار، كما لاحظت أن الدولار يتداولون التعامل به بشكل عادي حتي في الأعمال الصغيرة والمعاملات الهامشية بل أن بعض السلع مسعرة أساسا بالدولار، هذا البلد قد احتل اقتصادياً وفكرياً قبل ان يحتل عسكرياً.

وصلت إلي موقع العمل، لاحظت أن البنايات علي وشك الإنتهاء وإن كانت متأخرة سنتان عن الجدول الزمني المفترض لها، كان دوري كمدير للمشروع التأكد من إنجازوتسليم هذه البنايات بأسرع وقت وأي وسيلة.

كان مكتبي مكيفا وهذا شيء اعتيادي في جو (بغداد) القائظ شديد الحرارة، مؤثث بطريقة عصرية، المكتب واسع وبه مائدة للإجتماعات ويعطيك صورة بانورامية عن موقع العمل، في الطريق لاحظت أعين العمال والمهندسين تنظرني، الكل كان يرمقني في صمت والعيون تحوي ما فيها، إن الأوان مبكراً في هذه المرحلة لتصور أنهم يبادلونني أي مشاعر أيجابية أو سلبية، أستقبلني مدير الموارد البشرية للشركة على الباب وهو يمد يده مصافحا في حرارة:

- (رافد الطائي) مدير ال اتش ار.

كان شاباً عراقياً قد تجاوز الثلاثين بقليل وان بدا عليه أنه قد تلقي تعليماً جيداً، حيث أسرع يقودني بين المكاتب وقطاعات العمل معرفا لي بالناس والأماكن، شعرت بأنني سأبدأ اليوم بداية خاطئة علي عكس ما خططت فقلت له في هدوء:

- دعنا من الجولة التعريفية الأن، أريد إجتماعا مع رؤساء القطاعات ومشرفي العمال بعد نصف ساعة في مكتبي.

أجابني في سرعة:

- طبعاً، كلنا متشوقون لهذا الأجتماع.

دلفت الي مكتبي، تلمست الحاسوب الحديث على المكتب، تأكدت من أنه يعمل بشكل جيد، تفقدت مراسلات سلفي في المنصب بشكل عاجل، وقمت بتنصيب بعض البرامج التي أحتاجها، ما هي الا لحظات حتي شعرت

بدخول (رافد) ملقياً التحية ومعه لفيف من الناس المرافقين له، صافحت الجميع في حرارة وهم يقدمون أنفسهم لي:

- (أحمد فهمي) المهندس الأول بالمشروع

- من (مصر)؟

- نعم، صعيدي من (سوهاج).

عرفني الثاني بنفسه قائلا:

- (رامي عبد علي) رئيس قسم التصميمات

أحتضنني الثالث بلا سبب الا سذاجة فطرية وهو يقول

- (حسين الربيعي) مدير المشتريات

أكمل الجميع تعريفهم بأنفسهم، كان منهم (سمير) مهندس تقنية المعلومات و (جافيد) رئيس العمال الهنود، حتي أنتهيت الي أخر الموجودين الذي كان يتفحصني وكأن عينيه أشعة رونتجن جالية للروح والعقل، بادرته بالسؤال قائلاً:

- و أنت؟

- أنا (هشام عبد الحسين) مشرف العمال العراقيين.

كنت أعلم أن بالمشروع خليطا من هنود وعراقيين، قدرت أن السبب علي الأغلب هو تدني رواتب الهنود بشكل يعد أفضل ماديا لموازنة المشروع، كنت أتمني لو تسلمت زمام الأمور مباشرة من سلفي حتي يعطيني كل الملفات والمعلومات بشكل مباشر، بدلا من التخبط والحيرة اللذان سيرافقاني في أول أيامي هنا ولكن هكذا شاءت الظروف.

طلبت منهم الجلوس الي طاولة الاجتماعات وأنا أهيىء نفسي لما سأقول، كانت هذه تجربتي الاولي كمدير مشروع وأعددت نفسي نظريا بقراءة كتاب (مدير لأول مرة) ولكن التجربة العملية كانت تنتظرني الأن..

التقطت نفسا عميقا قبل أن أقول:

- مبدئيا أحب أن أشكركم لتواجدكم هنا وأعرب عن سروري لوجودي هنا في هذا المشروع العظيم، ولاحظوا أنني ارجو منكم التواصل الكامل والشفاف وخصوصا في الأيام الاولى، لأنني سأبني على المعلومات التي لدي قرارات والمعلومات الخاطئة تقود الي قرارات خاطئة، وكلنا هنا فريق واحد ونجاح المشروع نجاح لنا جميعاً.

تواترت عبارات الاستحسان من بين الحاضرين قبل أن ابدأ في ادارة اجتماع مثمر مع كل واحد منهم طالبا منه تزويدي بتقرير عن أخر المستجدات لديه والعوائق التي تواجهه وما هي الحلول المفترضة من وجهة نظره لهذه العوائق.

إنصرف الجميع لتلبية هذه التقارير وطوال اليوم كانوا يتوافدون علي لمناقشة مستجدات المشروع أو بيان الرأي في التقارير التي رفعوها، وبعد الظهيرة قمت بجولة وسط مواقع العمل، لاحظت أن الجزء الذي يتولاه العمال الهنود هو الأكثر انضباطاً، بينما الجزء الذي يتولاه العمال العراقيين متعثر كثيراً، ووجدت (هشام) جالسا يتشاجر مع أحد عماله صارخا في وجهه:

- كفاك تكاسلاً يا (أبو صدام) ثلاثة أيام وأنت لا تتحرك عن دهان هذا الحائط.

صاح فيه الرجل قائلا:

- إسمي (أبو أحمد)

رد عليه هشام بغضب

- (أبو أحمد) (أبو صدام) حتى (أبو طبر) لا يهمني، هذا الجدار أريده منتهيا في ظرف ساعة من الأن على الأكثر.

هتفت ب (هشام) أن يأتيني فأتي في تباطؤ علي غير رغبة منه و أنا أقل له:

- جميل أنك تتابع عمالك هذه المتابعة الحثيثة، ولكن هل لديك تفسير لماذا المشروع متعثر في الجزء الذي تتولاه؟

- ظروف يا أستاذ (أنور) هنا الأمور كلها تخضع لحضور العمال، احيانا نواجه مشاكل في عدد العمال، مثلا انا مسجل لدي مائة عامل ولكن دائما لا يوجد أكثر من سبعين عاملا بالموقع وفي أفضل الأحوال ثمانون، الباقي ينقطع عن الحضور لأسباب خاصة أو عامة.

- من لا يأتي بدون عذر مقبول او منطقي، الأفضل لك أن تطرده

نظر لي نظرة غير المو افق علي كلامي قبل أن يقول :

- قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق يا أستاذ.

لم أرتاح لإجابته ولا لتعامله بندية لي في هذا الصدد، ولكني لم أرد أن أبدا صداماً مبكراً وخصوصاً في أول يوم عمل لي فقلت له وقد لانت لهجتي قليلاً:

- أحضر لي كشفاً بالغائبين اليوم مع أسباب غياب كل واحد، وعدد مرات الغياب السابقة.

قال لي وهو يشيح ببصره بعيداً.

- سأنهي نوبة الغداء مع العمال وأعطيك الكشف.

إنشغلت بأعمال أخرى خلال اليوم حتى أنني لم انتبه إلا على صوت (ر افد) يفاجئني بقوله:

- هل ستمضي اليوم بلا طعام؟

إعتدلت في مقعدي و أنا انظر له قائلا:

- انشغلت كثيراً، الساعة الآن الثالثة عصراً، ما المتبع هنا بالنسبة للوجبات؟

أجابني في سرعة:

- أنت وما يناسبك، المدير السابق كان يرسل (أبو حيدر) الي الفندق لإحضار وجبات طعام جاهزة له، باقي المسؤولين التنفيذيين بالمشروع يذهبون الي مطعم عراقي مجاور للمشروع لنطلب طعاما ونتناوله هناك، اما العمال الهنود فهم يقيمون في الموقع ويخصصون واحدا منهم للطهو كل يوم

قلت له:

- وماذا عن العمال العر اقيين؟

- يقومون بأرسال أحدهم لشراء شطائر فلافل جاهزة من أقرب مطعم أو يطبخون أيضا خبز ومرق ولحم في بعض الأيام.

صمت للحظة قبل أن أقول

- حسنا، أنا نظامي سيكون كالتالي، أربعة أيام معكم في المطعم المجاور للفندق ويوم الأثنين مع العمال الهنود سأتناول طعامي ويوم الخميس ساتناوله مع العمال العر اقيين.

نظر لي في إنبهار في غير محله وكأنه فوجيء بطريقة جدولتي للامور قبل أن يقول:

- هذا رائع، سأخبرهم بذلك.

رأيت (هشام) يدلف للمكتب بغد ان غادر (رافد) وهو يناولني ورقة بما طلبته، قرأت أسماء العمال في عجالة وقرأت أسباب الغياب الحالية والسابقة والتي تراوحت ما بين (تعذر الوصول إلى الموقع) و(حضور عزاء)

و(أسباب مرضية) في معظمها مع بعض الأسباب الغريبة من نوعها مثل (تعرض للأختطاف) او (زيارة الكاظم).

قلت له و أنا اطوي الورقة لادسها في جيب سترتي :

- شكرا يا (هشام) سأراجعها و اناقشها معك فيما بعد.

همهم ببضع كلمات لم أنتبه لها وهو يغادر مكتبي وجائني (رافد) ليصطحبني الي الغداء، كان مطعما عراقيا جيدا، ليس بالنظافة المطلوبة ولكن الطعام كان لذيذاً.

دار الحديث فيما بيني وبينهم وديا، سألوني عن عملي السابق وعن المشروعات التي عملت بها وعن حالتي الأجتماعية وغير ذلك من الأمور التقليدية وبادلتهم نفس الاسئلة، أنتهوا من الطعام ثم طلبوا الشاي العراقي الشهير الذي يطلقون عليه شاي التخدير.

كان أكثرهم شرباً له المهندس المصري الذي أمسك بكوب الشاي في شغف وكانما يمسك بذراعي معشوقته هو يقول:

- الشاي العراقي يعجبني لأنه يشبه الشاي الصعيدي، ثقيل ويضبط إيقاع العقل، هذه الاستكانة من الشاي هي أجمل من وجبة الغداء بالنسبة لي.

بادرته بالسؤال:

- أين تقيم يا (أحمد) ؟

أجابني وهو يرتشف رشفة أخرى ببطء:

- أنا استأجرت شقة قريبة من الموقع، هي أفضل لي من الفندق، أقوم بالطهو لنفسي كما أنني أخرج للمدينة في أي وقت.

- آه، أنت من رواد الخروج إذن، الا تخاف من أجواء (بغداد)؟

ضحك (أحمد) ملء وجهه وهو يقول:

- أجواء (بغداد) هو أسم مطعم هنا أحبه وأخاف فقط من أسعاره، أما (بغداد) نفسها فقد تعودت عليها كما أنني من قرية بالصعيد نحل خلافاتنا اليومية بالسلاح، اذن لا فرق كبير لدي، الناس هنا يرحبون بالمصريين عموماً، في فترة من الفترات كانوا عرضة للقتل، لكن في أغلب الأحيان نحن مقبولون بشدة، في زمن (صدام) كان هناك أكثر من مليوني مصري بالعراق في مختلف المهن، نحن من أدخلنا الفلافل الي العراق بالمناسبة، لم يكونوا يعرفونها من قبل، للأسف غادرنا قبل أن ندخل (الكشري).

ضحكت لطريقته العفوية في الكلام قبل أن أقول:

- طالما أنت منسجم مع (بغداد) الي هذا الحد، ربما يجب أن تتزوج عراقية.

ابتسم وهو يقول:

- أتعرف أن معظم المصريين الذين كانو هنا أو بقوا بعد الحصار وحرب الخليج الثانية كانوا متزوجين من عراقيات وانجبوا منهن، كان للمصريين هنا زهوة وهيبة حتي أن (صدام حسين) قد أصدر قانونا في الثمانينات أن من يعتدي علي مصري كأنما اعتدي على (صدام حسين) شخصياً، تصور، آآآآآآه، أيام.

صمت قليلاً قبل أن أسال المهندس (رامي) بفضول:

- قل لي يا (رامي) لاحظت أن العمال العراقيين كثيري الغياب، والأسباب متشابهة ولكنها باستثناء الاجازات المرضية كلها غير منطقية، ماذا يعني (عدم التمكن من الوصول) مثلاً؟

أجابني (رامي) قائلاً:

- هناك بعض المناطق في (بغداد) مثل حي الشعب او السيدية تعد مناطق بها مشاكل مثلا لو حدثت امطار غزيرة او ساءت الاوضاع الامنية أو

عقب حدوث تفجيرات تنقطع الخطوط عن هذه الاحياء ولا يستطيع العمال الوصول الي العمل لأيام احيانا، وهذا هو السبب الأساسي لتعيين عمال هنود، لولاهم لما أنهينا نصف المشروع حتي الأن.

قلت له مندهشا :

- اذن لا علاقة لقلة الراتب بتعيين الهنود؟

- طبعاً، الراتب ليس المشكلة هنا، المشكلة هي الأعذار الكثيرة لدي العراقيين، نحن أمة من الأعذار.

أخرجت الورقة التي اعطاني إياها (هشام) من جيبي و أنا أقول:

- حسنا ، مكتوب هنا أيضا (حضور عزاء) هذا الأمر شائع بشدة؟

قال (رامي):

- أنت جديد هنا يا سيد (انور) في (بغداد)، هنا الموت يطرق باب كل عائلة، لن تجد أسرة هنا لا يختطف الموت أحد أفرادها كل عام، وكلها وفيات غير طبيعية والعزاء هنا واجب الحضور ويستمر ثلاثة أيام.

قرأت الورقة مرة أخري قبل أن اقول:

- حسناً، أسمع هذه، ثلاثة عمال غابوا والسبب واحد (التعرض للأختطاف) هل هذا معقول؟

قبل ان يهم (رامي) بالإجابة، أسرع المهندس (سمير) يقول:

- دعني أتولي أنا الإجابة علي هذه النقطة، الإختطاف في بغداد مثل عدوي البرد، كلنا يجب ان نتعرض لها تقريبا واحد من كل مائة عراقي تعرض للإختطاف، أحيانا يختطفونه ولا يعود وأحيانا يعود بعد دفع فدية أو بعد الانتقام منه.

هززت رأسي و انا أسأل:

- أفهم أن الإختطاف لأجل الفدية دائماً، ما هي الأسباب الأخرى للإختطاف وما المقصود بالانتقام منه؟

أجابني (سمير) بطريقة الخبير بالأمور:

- قد يحدث الاختطاف لأسباب خلافات عشائرية أو مالية، أو اختلافات دينية حتي داخل الطائفة الواحدة وداخل العشيرة الواحدة، بل حتى داخل الاسرة الواحدة، ولا يستثني أحداً، رجل، إمراة، شيخا، طفلا، في معظم الاحيان يقتلون المختطف ولا يعلم لماذا، وفي الحالات الأخرى التي يطلب فيها فدية هو وحظه وما قدره الله له، قد يتعرض للإيذاء المعنوي فقط وأحيانا الإيذاء الجسدي فقط وربما الاثنان معاً، بالنسبة للفتيات الامر أصعب، الغالبية يغتصبن أثناء الاختطاف، أحيانا يتم تعذيب المختطف ثم يلقي به في أحد الأماكن النائية دون طلب فدية من أحد، الموضوع معقد، هناك أطفال كثر يختطفون لاجل التجارة بأعضائهم، معظمهم من أطفال الشوارع و أبناء الأسر والعائلات الفقيرة.

قلت له:

- كأنك تحدثني عن عالم أخر خيالي مليء بالظلم والظلام.

قال (سمير) وقد ضاقت عيناه وكأنما يسترجع ذكرى ما من أعماق روحه:

- بل هو حقيقي تماماً، أنا تعرضت للاختطاف مرتين من متجر الأجهزة الالكترونية الذي كنت امتلكه، مرة أهلي دفعوا خمسين الف دولار فدية لي وفي المره الثانية دفعوا سبعين ألف دولار، بعدها قال لي والدي أغلق ذلك المتجر اللعين لأنك ستفلس الأسرة كلها معك.

قالها سمير وضحك بصوت مرتفع وكأنه يروي مسلسل هزلي.

طويت الورقة داخل جيبي مرة أخري، وأنا اشرب الشاي في صمت، وأفكر ملياً، هؤلاء الناس يرثي لهم بحق، كل منهم مشروع شهيد أو ميت ينتظر دوره في القائمة.

أنهينا غدائنا وقفلنا عائدين إلى الموقع، كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً، وجدت أن العمال قد استعدوا للرحيل لأن يومهم يبدأ مبكراً منذ السادسة صباحاً، وإن بقي بعض العمال لإنهاء أعمال الكهرباء والدهان داخل المبنى، شاهدت الرجل الذي تشاجر مع (هشام) هذا الصباح مع من بقوا وهو ينهمك في دهان الحوائط بجدية لم يحل بينها كبر سنه، إقتربت منه قائلاً:

- عمل جيد.

نظر لي وقد تفاجأ بوجودي قبل أن يقول:

- شكرا يا أستاذ (أنور).

- هل أدعوك (أبو احمد) أم (أبو صدام)؟

- منك كل شيء مقبول يا أستاذ، المهم النوايا الطيبة.

- شكراً على ذلك، ولكن أيهما أنت؟

تنهد الرجل في حرارة وكأنما يخرج مع تنهيدته أوجاع نفسه قبل أن يقول:

- كنت (أبو صدام) على اسم ابني الأكبر(صدام) وكنت فخوراً بذلك كمعظم العراقيين، ثم حدث السقوط وأصبح أسم (صدام) عيباً وعاراً ومجلباً للخزي كذلك، حتى أن ابني تعرض لمضايقات كثيرة، هناك من قتل لكون أسمه (صدام)، إبني سبوه في المعهد الذي يدرس به ثم طردوه وطلبوا منه عدم الحضور مرة أخرى وإلا سيقتلونه، لم أجد حلا سوى تغيير اسمه رسمياً علي الأوراق إلى (أحمد) ثم أصبحت أكنى (أبو أحمد) .منك أنت مقبول أي شيء ولكن (هشام) هذا رافضي، يقولها وكأنه يبغي أن يهينني

أو أن يسبغ علي صفة الانتماء لحزب البعث وهي جريمة الآن تقود صاحبها إلي حتفه، هو رافضي متعصب وأنا أتحاشاه، لقد هددني أني إن لم أنهي كل جدران هذا الطابق اليوم فإنه سيفصلني من العمل وأنا رجل مسكين واعول أسرة وأفواه مفتوحة.

ربت علي كتفه في إشفاق وأنا أقل له :

- لا تقلق طالما تؤدي عملك باخلاص فلا تخف من أي شيء.

انفرجت أسارير الرجل وتراجع تلألأ عينيه الموشكتان على البُكاء وهو يقول:

- شكراً يا أستاذ.

بحثت عن (هشام) وسط الموقع لأنتبه أنه غادر بالفعل، كنت انتوي أن أحدثه في بعض الأمور فقررت تأجيلها للغد، أنهيت أعمالي مع الساعة السابعة لأجد (أبو حيدر) قد حضر وهو يصطحبني قافلا الي الفندق لأودع أول يوم عمل لي في سلام.

عدت الي غرفتي لاتحلل من ثيابي وأنا أشعر بالحمام الساخن يغسل عني تعب يومي، كان يوما من الأيام الجيدة وأظن أنني قد أبليت حسنا كمدير لأول مرة، أنهيت حمامي وجففت جسمي ثم نظرت لنفسي في المرآه في إعجاب تقليدي بالذات.

إنتبهت أن الشعرة البيضاء ربما تتناسل مع قرينتها فقد أصبحوا ثلاثة الأن، من أين أتت إبنة الحرام الثالثة هذه، ربما من حكايات (سمير) اليوم عن الأختطاف، لو أستمر الأمر هكذا فلن يمضي شهر حتي يكسو الشيب شعري، قرأت في صباي أن الشيب رسول من الله بأن أجل الله قد أقترب، وأنه نذير للاقلاع عن المعاصي ولكني لا أصدق ذلك فالشيب يصيب البر

والفاجر والصغير والكبير ولكن أدرك الأن أن الشيب يصيبني بشكل أسرع مما هو معروف علمياً.

لم أرد إثارة الشعيرات الشائبة بإقتلاعها لئلا أثير غضبها فتتكاثر من جديد، لذا قررت أن احاول إسترضاء طرفها بتركها هكذا، ثلاث شعيرات لطيفات تمرحن في مرجة شعري الأسود.

لم أكن أود النزول للعشاء دون أن أحادث أمي المسكينة، أمسكت بهاتفي الجوال و انا اطلب رقمها، وأسمع الدقات المتوالية قبل أن ينساب صوتها العذب الي أذني وهي تقول:

- (أنور) حبيب أمك، نسيتني يا قلبي؟

- لا يا أمي، لا أقدر علي نسيانك، أنسي نفسي ولا أنساك؟.

- كيف حالك يا بني؟

- بخير والحمد لله، لازلت كما أنا حيا أرزق وأرزق حيا.

- الله يوسع عليك، ألن تأتي قريبا؟

ضحكت لطيبة أمي التي تسألني هذ السؤال كل يومين او أكثر قبل أن أجيب:

- لا يا أمي، أخبرتك المرة السابقة بأنني سأتاخر في العمل قليلاً، لكن أعدك شهرين من الأن وستجديني أمامك.

- أفتقدتك يا حبيبي، السنون تطول و أنت لا تستقر، أخشى أن أموت و أنت بعيد عني.

شعرت بالقلق من حديث أمي فقلت لها بسرعة:

- كفاك الله شرا يا أمي، أخبريني هل بك شيء؟، هل تشعرين بشيء؟

- لا والله ولكن الوحدة فقط تتعبني، أفتقد ابتسامتك يا قلبي.

إبتسمت رغما عني و أنا أسالها:

- الا تكفيك إبتسامة (علياء) وأولادها؟

- أنت ظهري وسندي وحامل أسم أبيك، أحضروتزوج و أنجب لي أطفالا يشبهونك بإبتسامتك ثم اتركهم لي وأمضي حيث شئت.

- الله كريم يا أمي

طال حديثي مع أمي وتشعب بنا حتي صارت تحدثني في أمور كثيرة تافهة من الأسعار وحتي ظروف الطقس قبل أن أنهي معها المحادثة على وعد بإتصال قريب.

عدت لأفكاري حول (بغداد) واخذت أسترجع احداث يومي قبل أن أقف امام المرآة و أنا اقول لنفسي بصوت خافت مخاطباً شعري:

- تشيب او لا تشيب، انا لست جباناً، وسأعيش ببغداد وأعرفها من الحافة إلي الحافة.

أرتديت ملابسي وحرصت علي التأنق وأنا اهبط للمطعم الرئيسي، جلبت طبقاً واخذت بعض المقبلات قبل أن أجد احدهم يقترب مني ويصيح بلهجة أردنية مميزة:

- السلام عليكم أستاذ (أنور)، يومان في (بغداد) ولا نراك سوى الآن يا رجل؟

تفحصت الرجل بنظرة خاطفة، أصلع الرأس قليلاً، وقور، تجاوز الاربعين، يرتدي عوينات طبية انيقة، حاولت التقليب في سجل الناس الذين اعرفهم فلم أهتدي له، لاحظ هو ذلك فبادرني بالإعتذار قائلاً:

- معذرة، دعني اعرفك بنفسي (عبد الرحمن العتوم) من الزرقاء، أعمل هنا بالبنك العربي ونقطن أنا وزملائي بالفندق هنا.

قال عبارته وهو يشير بيده إلي مائدة طويلة عليها سبعة رجال قبل أن يقول:

- كلنا أردنيون، وعندما أخبرني (نعيم) بأن هناك أردني سكن بالفندق وسيقيم لفترة طويلة قلت لنفسي فرصة نتعرف عليك ونضمك للنادي الخاص بنا.

سعدت في قرارة نفسي كوني وجدت أناسا يشبهونني، نحمل نفس الخلفية ووجدته يدعوني لأجلس علي مائدتهم فقبلت بكل ترحاب، وما هي إلا لحظات حتي تبادلنا التحية والأسماء، لم التقطها كلها ولكني قلت لنفسي سأحفظها المرة القادمة.

دار الحديث حميمياً تقليدياً عن عملي وأسرتي وكيف وجدت (بغداد) إلي الآن، أخبرتهم عن قصص الرعب والفزع التي سمعتها، كانوا هنا منذ بضعة شهور فلابد أنهم قد مرو بنفس المرحلة من قبل وتجاوزوها، ألا وهي مرحلة الفزع ثم الاشمئزاز ثم التعود وأخيرا عدم المبالاة بالقصص والذي بدا واضحا من ملامحهم.

هنا ابتدرني أحدهم ويدعي(علي) قائلاً:

- عموما سأعطيك بضع نصائح صغيرة مختصرة كمفاتيح للحياة والتعايش الآمن في (بغداد) لا تتحدث في السياسة أو الدين، لا تتورط في إقراض أحد مالاً، لا تنخدع بالمظاهر، واخيراً لا تقع في الحب.

قلت له باسماً:

- شكرا علي النصائح ولكنك لم تضف جديد، أنا أفعل ذلك بالفعل في كل بلد عشت فيه، لا أنكر أن البلد هنا غريب ويحتاج إلى وقت لفهمه ولكن نفس القواعد تنطبق عليه.

رد علي شخص آخر اسمه (مراد) على ما أذكر قائلاً:

- الأفضل ألا تفهمه، لأن الأمر صعب، العراق خليط من كل التناقضات، وهم انفسهم لا يفهمون كيف تجري الامور بينهم.

أكملنا العشاء ونحن نتناقش في عدة أمور معهم، كنت اشعر معهم بالأريحية فهم بنو وطني في النهاية ومهما حدث أستطيع ان اتبسط في الكلام معهم دون خوف او حرج، تذكرت قول (أبو صدام) اليوم ووصفه ل (هشام) بالر افضي فأحببت ان أسال عن معني هذه الكلمة، فقلت و أنا أجفف فمي من الحساء:

- بالمناسبة، هل يعلم أحدكم معني كلمة (ر افضي)؟

صمت الكل للحظة وكأني ألقيت حجرا قبل أن ينظر لي (عبد الرحمن) وهو يقول:

- جيد انك سألتنا نحن ولم تسأل أحد العر اقيين أنفسهم والا لكنت الأن في ورطة.

قلت له:

- لماذا ؟هل هي سبة بذيئة؟

اجابني (عبد الرحمن) بهدوء :

- بالطبع يا صديقي، إليك الموجز في هذا الأمر، في لبنان والكويت والبحرين وحتي أوروبا نفسها ينقسم المسلمون الي شيعة وسنة الا هنا في العراق ينقسمون الي رو افض ونواصب، أبناء (علي) و أبناء (معاوية)، أبناء (هند) و (فاطمة) الرو افض هم الشيعة والنواصب هم السنة، بالطبع لا تطلق المسميات هذه في العلن ولكنها متداولة عرفاً وسراً وبالذات من المتعصبين من بني الطائفتين، ولذا أحذر في استخدام هذا المصطلح.

قلت له:

- ولماذا يسمون هكذا؟ اعذرني لضعف معلوماتي العامة.

أجابني قائلاً:

- كان الشيعة قد ذهبوا لزيد بن الحسين (ﷺ)وطلبوا منه أن يتبرأ من أبي بكر وعمر فقال لهم "هما صاحبا جدي بل أتولاهما، قالوا له اذن نرفضك" ومن هنا أطلق عليهم السنة الرو افض وشاع الاسم في بعض الاماكن بكثرة حتي أن اهل مصر كان يسبون الرجل أحيانا بقولك إبن الر افضي.

قلت له وقد تبينت الأمر:

- ماذا عنا نحن النواصب أقصد السنة؟

اجابني قائلا:

- يطلقون علينا كذلك لأننا في أعتقادهم قد ناصبنا علي بن أبي طالب وأهل بيته العداء ويشهد الله أننا نحبهم أشد الحب بل وربما أكثر من شيوخ الشيعة أنفسهم.

وجمت للحظة قبل ان أقول:

- العيش في (بغداد) يتطلب الكثير من الحذر.

ضحك عبد الرحمن وهو يقول:

- بالعكس، بل يتطلب الكثير من اللامبالاة، بالمناسبة هل لك في السهر؟ الشباب يخططون للخروج في نهاية الاسبوع في سهرة جميلة.

- أين؟

- علي حسب المزاج لو وددت يمكن أن نذهب إلي أحدي الشقق الخاصة ، أو يمكننا أن نذهب إلي كازينو الأوتار في فندق (فلسطين).

لم أكن طبعا من رواد الشقق الخاصة و أندهشت من تقييمه لي بأنني يمكن أن أتواجد في مكان مثل ذلك فلم أتبسط معهم في الكلام أو يظهر علي عباراتي أي إبتذال يوحي بذلك ولكنني لم أشأ رفض دعوته فقلت:

- حسنا ، كازينو الأوتار يبدو خياراً جيداً، ولكن ليس هذا الأسبوع فهناك الكثير من الأمور التي تشغل بالي حالياً.

قال لي متفهماً:

- لا عليك، الدعوة متاحة في أي وقت ونحن سوياً كل يوم نتناول العشاء في نفس التوقيت.

شكرته في حرارة قبل أن أقول:

- بما أنكم هنا في (بغداد) منذ فترة طويلة، هل رأي أحدكم انفجاراً بعينه؟

قال لي (عبد الله) وهو أصغرهم سناً:

- أنا شهدت واحداً منذ ثلاثة أسابيع، كنت عائداً من مركز التسوق ودوّى الإنفجار علي بعد مائة مترمني، كان في أحد مساجد السنة.

قلت له مذهولاً وقد صعقني ما سمعته:

- مسجداً، من ذا الذي يفجر مسجدا!!، هذا بيت من بيوت الله، من الذي يقتل عباد الله! وهم ذاهبون للمثول بين يديه؟

أجابني (عبد الله) في هدوء:

- يبدو أنك لا تتابع الأخبار علي الإطلاق، المساجد من الأهداف الأساسية هنا، مساجد السنة ومساجد الشيعة المسماة بالحسينيات ولذا عليها حراسة وبالذات أثناء صلاة الجمعة، يفتشونك ذاتيا و أنت داخل اليها.

امتقع وجهي من الضيق و أنا اقول:

- طبعاً، ما دامت السيطرات الأمنية تترك العربات وهي تعرف أنها محملة بالمتفجرات فلابد أن يحدث هذا.

ابتسم (عبد الرحمن) وهو يعقب علي عبارتي:

- آه، سمعت هذا الحكاية، لا اظن أن هذا السبب الرئيسي لإنتشار السيارات المفخخة، ربما سيطرة أو اثنتان قد تفعلان ذلك، ولكن باقي السيطرات تفتش السيارات بأجهزة كشف المواد المتفجرة ويحرصون على إيقافها لو تبين أن بها هذه المواد.

قلت له مشككا في كلامه:

- أذن كيف تفلت هذه السيارات؟

أجابني قائلا

- لأن أجهزة كشف المتفجرات لا تعمل، هي فاسدة أشترتها الحكومة العر اقية في صفقة بقيمة تجاوزت المائتي مليون دولار من شركة بريطانية تدعي " اي تي اس سي" وكانت غير صالحة للإستخدام والذي قام بإكتشاف الأمر بريطانيا نفسها وألقت القبض علي مدير الشركة وسجنته عشر سنوات كاملة والغريب في الأمر أن حكومة العراق أنكرت أن الاجهزة فاسدة ثم في آخر الأمر أحالت المسئولين عن الصفقة إلي القضاء ولكن وللعلم ظلوا يستخدمون هذه الأجهزة إلي الأن ولم يعدموها.

صفقت كفاً على كف و انا أقول:

- يا الله، هل هذا يحدث حقاً، لا عجب أن التفجيرات تحدث في كل مكان، لك الله يا أيها العراق العظيم.

أنهينا طعامنا، ودارت أكواب الشاي العراقي الشهير علينا قبل ان نترك مائدتنا ليغادر كل منا إلي غرفته وفي الطريق إلي غرفتي قابلت (لويس) ألقيت عليه التحية فرد علي التحية بأحسن منها قبل أن يقول:

- عرفت لك ماذا حدث بين (جلجامش) و(عشتار).

لم أكن مستعداً لسماع القصة فقد كنت أشعر بالتعب ولكن أحترمت مجهود الرجل في تتبع القصة من اجلي فقلت له:

- فعلا، جميل، أخبرني ماذا حدث بينهما؟

قال في حماسة:

- حينما انتصر (جلجامش) في معركته مع العفريت (خمبايا) أعجبت به (عشتار) وطلبته للزواج ولكنه رفض خوفا من تقلب احوالها وإحتمالية خيانتها له، وهنا غضبت وشكته لأباها الإله (أنو) وطلبت منه أن يخلق ثوراً سماويا ليقضي به على (جلجامش) وهددت أباها بأنه إن لم يفعل ستفتح أبواب العالم السفلي ليخرج منها الأموات لياكلوا الأحياء، رضخ أبوها لها خصوصا أنها طمأنته بأنها خزنت للبشر ما يكفي من الطعام لان الثور بالتأكيد سيكون نذير مجاعة علي الأرض، ودارت معركة رهيبة بين الثور وبين (جلجامش) وصديقه المقرب (أنكيدو) و انتهت بقتل الثور.

قلت له:

- وماذا فعلت بعد ذلك، هل تركت (جلجامش) في حاله؟

حار جواباً وهو يقول:

- لم أسعى لمعرفة نهاية القصة ولكن سأبحث عنها.

ودعته بأبتسامة و أنا أحدث نفسي قائلاً:

- رو افض ونواصب وملوك وآلهة، يا له من بلد عجيب غريب.

الفصل الرابع (هي وعيناها)

مرت الأيام رتيبة في (بغداد) وكنت أملأ وقتي بالعمل في المشروع بكل جدية واهتمام، بدا أن قيامي بتناول الغداء مع العمال قد بدأ يؤتي ثماراً جيدة فقد زاد حماس العراقيين للعمل، سمعت منهم أن مدير المشروع الذي سبقني كان لبنانياً وكان يتعالي في الحديث معهم ناهيك عن الجلوس علي الأرض وتناول الطعام البسيط مع أقداح الشاي الثقيل، العراقيون من ذوي الأصول الكريمة، يحبون من يتبسط لهم ويبغضون من يتعالي عليهم، إن أحبوك صاروا أهلك وجيشك وإن أبغضوك ضيقوا عليك فضاء الأرض كلها.

بدأ المشروع يتحرك بشكل مضطرد، بعد أسبوعين من وجودي في المكان، وبدأت أتوائم مع الجو العام في (بغداد) وإن كنت كل يوم أتلقى فيضاً من المعلومات من الجميع، المواطنين والمغتربين، عرفت الكثير عن العراق وتاريخه وجغرافيته ومدنه وقراه وطوائفه وأديانه وعرفت عن (بغداد) وعن تراثها ومعالمها وأسواقها وناسها ومصطلحاتها البغدادية المميزة.

بدأت علاقتي بفريقي في العمل تتوطد وخصوصاً أني لم أكن أدخر جهدا لتذليل العقبات التي يواجهونها سواء كانت مالية أو إدارية ولكن شخص واحد فقط لم أاكن قادراً علي إستمالته، ظل يقيم بيني وبينه حاجزاً علي الدوام، ألا وهو (هشام) رئيس العمال العراقيين، كان يعاملني بشكل عادي متجاهلاً منصبي وخبرتي، ومن حين لأخر تبدر منه بعض المواقف الغريبة والتي تستحق التساؤل أوالاستنكار، أو يخالف اوامري بشكل متعمد، بل ويتفوه ببعض العبارات التي لا محل لها من القبول في مكان عمل أخر،

وإن كنت قد تعلمت ان أغض الطرف عن هذه السلوكيات عسى أن أدفع بالتي هي أحسن فيصبح لي ولياً حميما.

كانت قد أتت علي أول جمعة لي في (بغداد) فوجدت (عبد الرحمن) يدعوني للصلاة في مسجد (السابع عشر من رمضان) والذي يقع لحسن الحظ أمام الفندق مباشرة، تعجبت له كثيراً كيف يرتاد الأماكن المشبوهة ويعاقر الخمور وفي ذات الوقت يحرص على أداء صلاة الجمعة في أوقاتها ولكني لم أفاتحه في هذا الأمر و أنا ادعو له بالهداية في نفسي فلعله ترك باباً مفتوحا بينه وبين ربه للعودة إليه يوماً ما.

أنا نفسي لم أكن ملتزماً دينياً، أصوم (رمضان) بالكاد وأحافظ علي صلاة الجمعة فقط وبصعوبة، لم أحضر أي دروس دينية منذ كنت بالمدرسة العليا، ولا اعرف من علوم الدين سوى قشور، صحيح أني لا اشرب الخمر ولا اقامر ولا أقرب النساء جنسياً الا بعلاقات سطحية قصيرة، ولكني لست خيراً منه حتى أعتبره على ضلالة وأعتبر نفسي على هدى.

تذكرت ساعتها قصة العاهرة التي كان تسكن بجوار الكنيسة وكان الراهب متضايق منها فلم توفّى الله الأثنان ذهبوا بالعاهرة الي الجنة فتعجب الراهب وسأل الملائكة: لماذا؟ فأجابوه لأنه طوال الوقت كانت هي تتمنى الذهاب إلي الكنيسة بينما كنت تتمنى أنت الذهاب الي بيت الدعارة.

كان جامع (السابع عشر من رمضان) يقع علي بعد بضعة أمتار من الفندق، سرنا إليه مشياً على الأقدام، لاحظت أن هناك في وسط الميدان حامل ضخم عليه قدم، قلت ل (عبد الرحمن) متسائلاً:

- ما هذا الشيء؟

أجابني وهو يشير لها بيده:

- هذه قدم (صدام) الجزء الوحيد الذي تبقي بعد ان حطموا تمثاله الشهير.

تذكرت المشهد الذي انتشر علي شاشات التلفاز، والذي يوضح الامريكيين لحظة دخول (بغداد) وهم يحطمون التمثال قبل أن يأتي أحد المواطنين العراقيين الغاضبين من نظام البعث ليقوم بتحطيم القاعدة، كان اسمه (كاظم الجبوري) قال بأنه ندم على ذلك كثيراً وأنه قد ذهب (صدام) وأتي بدلاً منه ألف (صدام).

حطموا التمثال، وبقت قدمه، قدم (صدام) الشهير وكأنها تقول بأن تاريخه وذكراه ستظل راسخة في وجدان العراقيين من أحبوه ومن كرهوه، الرجل الذي حكم لأكثر من ثلاث عقود والذي ترك بصمة علي خريطة السياسة العالمية ليس من السهل أن يتركوه وراء ظهورهم وخصوصاً أن ما تلاه لم يكن بأفضل أو أطهر من عهده البائد.

أقتربنا من المسجد، طلب مني (عبد الرحمن) أن أغلق جوالي، تعرضنا للتفتيش الذاتي أمام المسجد ولاحظت وجود ألية عسكرية مع عدد من الجنود مدججين بالسلاح، همس لي (عبد الرحمن) قائلا:

- المساجد مستهدفة بشدة هذه الأيام أكثر مما سبق، قبل حضورك إلي هنا بلغ من درجة إستهداف مساجد السنة أنه طوال يوم كامل كانت مساجد بغداد السبعين الخاصة بالسنة تؤذن للصلاة ثم يعقبونها بقولهم " الصلاة في رحالكم" أي لا تأتو للمسجد للصلاة من كثرة إستهدافها، تصور أي هوان هذا، وكأننا نعيش جاهلية جديدة.

لم أعلق على كلامه، فقد تعلمت أن كثرة التعليق تفتح جروحاً وأوجاعاً لدى المرء، كنت أعلم تلك اللعبة التقليدية من المستعمرين للتفرقة بين

الشعب وكسر المقاومة عن طريق خلق الفتن الداخلية، لندمر مسجداً ثم نفجر بعدها كنيسة وندع المسلمين والمسيحيين يقتلون بعضهم البعضن لنحرق مسجداً ثم لنهدم معبدا وندع المسلمين والهندوس يتقاتلون، أظن أن الأمر ذاته حدث هنا، هناك من أشعل وقود الفتنة ثم أطفأ السراج حتى لا يهتدي الناس للجاني الحقيقي.

دلفت للمسجد في بطء، كان مليئاً بالمصلين و أنا الذي توقعته خالياً، أخبرني (عبد الرحمن) فيما بعد أن هذا المسجد ممتليء في صلاة الجمعة فقط، أما باقي الصلوات فربما يصلي الإمام أو المؤذن وحده من دون مصلين من قلة مرتادي المسجد.

شعرت براحة نفسية تجتاحني، والسكينة تغمر قلبي وكأنني لا اريد أن اغادر المكان، إنتهت الخطبة العطرة سريعاً، وأعقبتها الصلاة بصوت شجي من الإمام، كان إمام المسجد خطيباً مفوهاً ولديه قدرة علي سحر الأسماع والأذهان لو فقط الناس أصغت بقلوبها قبل أسماعها لتغيرت الكثير من الأمور في حياة الناس، أنا لست متديناً ولكني أحب الدين والداعين له بالموعظة الحسنة.

كان للمسجد حديقة خارجية جلست فيها لبضع دقائق عقب الصلاة في إنتظار (عبد الرحمن) لاحظت ان هناك بعض النسوة والأطفال قد تجمعوا عقب الصلاة علي باب المسجد يستجدون الناس، الفقر بادي علي القسمات، المسجد يبعد مائتي متر بالأكثر عن قدور كهرمانة ولصوص علي بابا الاربعين، هناك يقبع اللصوص وعلى عتبات الجامع يقف الضحايا، يبدو أن كهرمانة لم تحسن أداء مهمتها كاملة وتركت بعض اللصوص يعبثون في البلاد.

إنتهت لحضور (عبد الرحمن) فقفلنا راجعين للفندق، حيث تناولنا الغداء، قال لي بالا أثقل في الوجبة، فاليوم سنذهب للسهر في كازينو الأوتار،

لم يلبث في عباءة الإيمان غير ساعة ثم أرتدي بعدها عباءة الشيطان، زمن قياسي يستحق الفخر، فغيره لا يمكث أكثر من دقائق معدودة، قلت له:

- حسنا، ولكن فقط لن نسهر طويلا ، فلدي عمل غدا، لست مثلكم يا أهل البنوك.

ضحك حتي بانت نواجذه وهو يقول:

- لا تقلق، ستكون في فراشك في الواحدة صباحاً.

قضيت بقية اليوم أنظم أعمالي وحينما هل علينا المساء أرتديت لباساً أنيقاً عصرياً وصففت شعري بعناية، و أنا اهيئ نفسي للخروج الذي أشتقت له كثيراً فلم أكن من هواة الأنشطة المنزلية، وجدت الشباب ينتظرونني أمام الفندق قبل أن يتوجهوا بي إلي كازينو الأوتار الذي يقبع علي بعد عدة أمتار.

كان الوقت مبكراً والساعة لم تتجاوز السابعة مساءا، وجدت حسناوات يرتدين زيا محافظا يشبه العباءات العربية السوداء وقد صبغن وجههن بمساحيق زينة ثقيلة، كن يسرعن الخطي تجاه الكازينو أيضا، إندهشت في البداية وحملقت بهن للحظة قبل أن أرد نفسي إلي رشدها، بالطبع لن تخرج المرأة العراقية الي الشارع متبرجة عارية الصدر والظهر وإلا لكان مصيرها القتل او الإختطاف في مثل هذه الأجواء.

شردت بخيالي و أنا افكر بهن، بالتأكيد لديهن أسر ، أباء و أبناء وأخوة وأخوات وربما حتي أزواج، لا توجد إمراة تنبت هكذا من الفراغ، ولكن ما الذي حداهن إلي العمل بمثل تلك الأماكن أو إرتيادها، تذكرت مقولة ووصف (صدام) الشهيرة لنساء العراق وتلقيبه اياهن ب (الماجدات)، أعلم أنها لم تكن تلك المتوجة في عهده وان الكثير منهن قد نالهن عبث أبنائه ورجاله ولكن لم يكن الفقر ليطحنهن لهذه الدرجة.

لكزني (عبد الرحمن) ليخرجني من شرودي ونحن ندلف لداخل الكازينو، كان الجو مختلفا تماما عن الخارج، أضواء مبهرة وموسيقي شرقية صاخبة، غانيات يقفن قرب البار وأخريات يجلسن علي الموائد، إبتسمت لنا عراقية ممتلئة شهية علي الباب وهي ترجو أن نختارها لتكون علي مائدتنا الليلة، لا شك أننا نبدو كصيد ثمين.

جلسنا إلي طاولة تتسع لعدة أشخاص قرب المسرح الصغير، أتت عراقية تجاوزت الأربعين، ترتدي ثيابا ضيقة تبرز صدرها العارم وجزء من خصرها وقد أخفت تجاعيد وجهها بالأصباغ لكي تسألنا ماذا نحب أن نشرب

طلب (عبد الرحمن) لنفسه وللاخرين مشروبات كحولية متفاوتة وأكتفيت أنا بطلب عصير برتقال طازج، نظرت لي في إستهانة وكأنما تنظر إلي طفل بصحبة والده.

لاحظت أن هناك فتاتان حسناوتان أحداهما سمراء والأخري شقراء تنظران إلي مائدتنا بابتسامة خبيثة وهما تتهامسان من حين لأخر ثم تضحكان بشكل ماجن، أشار لهما (علي) أن يقتربا، لبتا الدعوة بسرعة وفي غضون دقائق كانت أحداهما في أحضانه بشكل غريب والأخري تنسج شباكها حولنا جميعا لعلها تظفر بأحدنا في نهاية الليلة وبدا من يأسها أنها علي أستعداد للذهاب معنا جميعا لو أردنا.

لاحظت أن أصغرهما لا تتجاوز الثامنة عشر، في البلاد الغربية والتي نعدها كافرة يعتبر عملها وإستعمالها جريمة، أما هنا في بلادنا العربية والتي تعد مؤمنة فلا قانون ولا شريعة، كانت الكبري تكبرها بخمسة عشر عاما على الأقل وإن كانت تبدو كالتفاحة الناضجة جوار هذا العنب الحصرم، بدأت موسيقي شرقية مألوفة فأخذ (علي) فتاته الصغيرة وأنطلق يرقص بها على المسرح وألهبت مشاعرنا بتمايلها الساخن على الموسيقى، من قال بأن النساء

أخرجن الرجل من الجنة، النساء خلقن للرجل جنة من المتع المحسوسة والملموسة، النساء هن الجنة نفسها.

لاحظت الغانية الكبري إعجابي برقص الفتاة فوضعت يدها علي ساقي وهي تقول:

- تربيتي في الرقص، هل تعجبك؟

قلت لها و أنا أحرك ساقي بعيدا عن يدها العابثة:

- صديقتك؟

تنهدت المرأة وقد أستائت من تصرفي معها وتمنعي على إغرائها وهي تخرج سيجارتها من علبة صغيرة أنيقة وتضعها بين شفتيها قائلة:

- لا بل إبنتي.

صعقت لردها المفاجيء لي، كيف تسمح أم لابنتها أن تنغرس معها في هذا الوحل وتخوض معها في مياه الرذيلة الآسنة، نظرت لي منتظرة بأن أشعل لها سيجارتها ولكني لم أفعل، فتطوع (عبد الرحمن) ليقوم بذلك، شعرت بالحنق تجاهها فقلت لها:

- وزوجك، هل يعمل معكم أيضا؟

كنت أعرف أني اهينها بكلامي وإن لم يصدر ذلك عني عفوياً، فقد عنيت ذلك وتعمدته فصمتت للحظة قبل ان تاخذ نفساً عميقاً من سيجارتها وهي تنفخها في وجهي قائلة:

- زوجي مات منذ أربع سنوات،إنفجر في سيارة مفخخة، كان سائق سيارة أجرة.

التقمت إجابتها وكأنها حجرا أصاب جبهتي، وشعرت أنها بغت بإجابتها أن تسكتني، بأن ترد لي الصاع صاعين في الإهانة فقلت لها:

- ألم تجدي غير هذا العمل لتعملي به؟

قالت لي وهي تتغلغل بنظراتها في عيوني وكأنما تسبر أغواري محاولة فهم إلي أين أريد الذهاب بالحديث:

- حاولت العمل في أي مهنة، وبالغت في تقليل ثمني، ودائما كان رب العمل يطمع فيما هو أكثر، حتى السادة من الشيوخ أرادوني بالزواج ولكن مؤقت، لإرضاء شهوة ساعة أو يوم، وطالما بكل السبل سأمنح جسدي لأحدهم إذن لأمنحه بثمن يستحق.

- وماذا عن إبنتك؟

- ضبطتني مع أحدهم في فراش أبيها الراحل، بكت كثيراً، وفقدت احترامها لي ولنفسها كذلك ثم بدأت تخرج معي بعد فترة.

شعرت أن الأمر أكبر من أن أحتمله، هذه البلاد سلسلة من المآسي تجر بعضها بعضاً، أشحت بوجهي لأفاجأ بوجه يجلس قربنا ينظر لي في أعجاب، شعرت أن أعيني لا تري جيداً، لم أعرف هل هو فتي أم فتاة، الشعر الأسود الطويل، الوجه الأبيض المتناسق ،مساحيق الزينة ولكن الملابس ملابس فتي أو هكذا خيل إلي.

إنتبه (عبد الرحمن) إلي إندهاشي فأسرع يسعفني بالإجابة كعادته قائلا:

- إنه إيمو.

رددت خلفه مبهوتاً:

- إيمو؟

- نعم هكذا يطلقون علي المخنثين والمثليين جنسيا في العراق، أنتشروا كثيرا بعد السقوط، أصبحوا يتشبهون بالنساء في كل شيء، ولهم سوق جيدة ور ائجة جداً هنا، بعضهم ستتعرف عليه من الوهلة الأولي بأنه فتى، وبعضهم بارع لدرجة لن تعرفه الا حينما يقترب منك.

قلت له:

- عجبا ، لم أري من العر اقيين سوي قساة الشخصية والملامح، أنت تفاجئني بوجود هؤلاء.

قال لي وهو يتناول حبات من الزيتون الأخضر ليلوكها في فمه ليخفف من طعم الخمر اللاذع:

- سبيلهم إلى الإنقراض، المليشيات المسلحة هنا تقتلهم من حين لأخر، وهناك بالطبع رفض شعبي لوجودهم وبالذات من النساء، ولكن طالما هناك سوق سيظلون موجودين، أغلبهم لا يتقاضون مالا علي خدماتهم الجنسية، هم يفعلونها للشهوة وليس من أجل المال.

شعرت أن الجو خانق فاكتفيت بالصمت والمشاهدة طوال السهرة،مع الوقت تز ايد عدد النساء علي مائدتنا ليصل إلي أربعة، و أنتبهت إلي أن (علي) قد أنسحب بعد ذلك مع المرأة الأربعينية و إبنتها القاصر ليغادرا الكازينو، لم أعرف إلي أين ولكني خمنت أنه ليس الفندق بالطبع.

تطلعت فيمن حولي من الرجال السكاري والنساء شبه العاريات اللاتي في أحضانهم، لم أستطع أن أميز هنا بين سنية وشيعية، كلا الجسدين عاري، والسلعة واحدة مهما كان المشتري، هنا تبيع النساء الجسد أو بالأحرى تؤجره لساعات قليلة، وبالخارج يقتل الرجال أنفسهم لأسباب تافهة، طائفية كانت أم قومية، أعلم أن ميدان (كهرمانة) علي بعد مئات الأمتار ،هناك يقبع لصوص العراق الذين سرقوا ثرو اته وخيره ونعمه، وتركوا نسائه ما بين حرة تأكل بمد يدها وحرة تأكلها بفتح فخذيها، لازلت أري أن العراق يسع الجميع، لماذا يجب أن يضيق الوطن بناسه، هناك متسع، الله قال هذا، قال إن أرضي واسعة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة وكنت قد شعرت بالأختناق بالفعل من الجو العام بالمكان فاستئذنت في الإنصراف من (عبد الرحمن) ومضيت و أنا لا ألوي شيئا.

هرعت إلي غرفتي لكي ألقي بجسدي بكامل ثيابه تحت الحمام، حرصت علي جعله بارداً هذه المرة وكأني أعذب نفسي، كنت أريد أن أغسل جسدي و أفكاري دفعة واحدة لأنسي هذه الليلة، طاف بعقلي خاطر أننا جميعا لابد محاسبون علي ما يحدث بالعراق، العالم كله محاسب، بحكوماته وشعوبه، ملوكه ورؤساؤه، بكل طوائفهم وأعراقهم وقومياتهم، محاسبون نحن بجريمة الصمت والتجاهل والكل محاسب من أعتزل ومن تواطئ.

أشعرني الحمام البارد بالنعاس فأنسللت تحت الفراش و أنا أترك جفناي يتثاقلان حتي هويت في سبات عميق.

وأستيقظت ثم أستيقظت ثم أستيقظت، ومرت الأيام سريعة متوالية حتي تجاوزت شهرين بالمكان، كنت اشغل نفسي بالعمل و أتجنب التطرق للحديث عن (بغداد) وحالها ومآلها حتي اوشكت أن أنسي أنني ب (بغداد)، حتي كان ذلك اليوم.

كنت بمكتبي حينما سمعت صياحاً بالخارج، وصراخ عال فأسرعت لإدرك ما يحدث، كان (هشام) يقف هناك وهو يمسك بحجر كبير في مثل حجم كفة يده وهو يلوح به مهدداً (أبو صدام) ويصرخ متوعداً:

مشاكل الرجلين لا تنتهي ولكنها تبدو هذه المرة وأنها قد أخذت منحنى جديد، أسرعت لأدرك الموقف قبل أن يتفاقم ولكن يد (هشام) سبقتني لتقذف بالحجر نحو رأس (أبو صدام) فتحركت لدفعه ليرتطم الحجر برأسي وأشعر بلسان من الدم الساخن ينزل من رأسي علي عيناي، شعرت بالرؤية تضعف شيئا شيئا قبل أن أغرق في هوة عميقة مظلمة.

لم أدري كم ظللت فاقدا للوعي الا حينما تناهت أصوات خفيفة إلي مسامعي ففتحت عيناي في بطء ليصدمهما ضوء قوي فأعود لأغلقهما مرة أخرى، كانت هناك محادثة تجري بصوت هاديء إلي جواري، ميزت فيها صوت (رافد) وصوت أنثوي لم أميزه ولكني أحببت نبرته ومنحنياته، وأنتبهت هي ربما إلي حركة أجفاني فقالت ل (رافد):

- يبدو أنه يفيق.

فتحت عيناي علي أثر كلمتها ليطالعني وجهها وعيناها، وأختفت الغرفة بمن فيها، لم أعد أري (رافد) ولا الأسرّة ولا الجدران البيضاء، فقط هي وعيناها، عينان عسليتان ولكن يذوب المرء فيهما عشقاً، فلو كان عابدا لفتن، ولا أدري لماذا في حينها قفزت كل أبيات الشعر التي تحدثت عن العيون الي ذهني متراصة وكأنها موكب إستقبال لجمال عينيها.

تذكرت قول الشاعر(أبو القاسم الشابي) في رائعته:

ولو أن إبليس يوما رأك – لقبل عينيك ثم أهتدى

وزاحمتها أبيات قصيدة رحلة في العيون الزرق ل (فاروق جويدة) والتي لا شك أخطات تلك العيون العسلية الخلابة:

أسوح بتلك العيون
علي سفن من ظنون
هذا اللقاء الحنون
أشق صباحا . أشق
وتعلم عيناك أني
أجدف عبر القرون
جزراً فهل تدركين
أنا أول المبحرين على

جبالي هناك فكيف

تقولين هذه جفون

و" هل أنت بخير"

سحبتني عبارتها من جوقة الشعراء ولو لم تفعل لأسترسلت دهراً، فغمغت بعبارة مقتضبة:

- رأسي يؤلمني قليلاً، لكن لابأس.

تنهد (رافد) ارتياحا وهو يقترب مني مربتاً على كتفي قائلاً:

- حمدا لله علي السلامة يا مدير، الأخوة كانوا قلقين عليك بشدة.

- الله يسلمك من كل سوء، أين أنا؟

- في مستشفي الراهبات.

عدت لأنظر الي الطبيبة، وبانت لي حدود وجهها خارج العيون لتفتح لي ممالك أخري من الحسن ما بين ثغر باسم وشفاه لذة للآكلين ووجه حلو التقاسيم فقلت لها:

- هل يمكنني الإنصراف يا دكتورة (.....)

أجابتني بإبتسامة عذبة:

- دكتورة (سولين) طبعا يمكنك المغادرة، الإصابة خفيفة حتي أنها لم تحتاج إلي تقطيب ولكن لو شعرت بأي أعراض سلبية مثل ضعف النظر أو صداع مثلاً عليك بالحضور للمعاينة والفحص فوراً.

ثم إلتقطت ورقة وكتبت بها شيئاً وهي تعطيني إياها.

- وهذا رقمي لو أردت حجز موعد.

التقطت الورقة منها وأنا أنهض من الفراش مرتدياً ملابسي، قبل أن ألتفت وتتقابل عينانا من جديد فقلت لها:

- شكراً على كل شيء.

- العفو هذا واجبي.

كنت أود أن أطيل الحديث أو أتطرق معها إلي شعاب أخرى فيه ولكن وجود (رافد) حال دون ذلك فقلت له:

- هيا بنا يا (رافد).

إنصرفنا من المستشفى مباشرة الي الفندق حيث تكفل (رافد) بإيصالي، أطبق علينا الصمت في الطريق قبل أن يسألني في حذر:

- ماذا عن (هشام) ؟

أجبته دون أن التفت إليه:

- ماذا عنه؟

- ماذا ستقرر بشأنه؟

التفت له و أنا أقول:

- ماذا تقول اللوائح الداخلية في هذا الصدد، التشاجر مع الزملاء والإعتداء البدني علي الأخرين؟

صمت للحظة وبدا كأنه متردد في الأجابة قبل أن يقول:

- الفصل من العمل.

- أذن أصدر أمرا إداريا بذلك، من اليوم أن لا اريده في الموقع

- ولكن .....

أعتدلت لأنظر له في وجهه و أنا أقول:

- لا يوجد ولكن، الأمر ليس شخصي، هو أوشك علي قتل زميله بتصرفه هذا لولا تدخلي، هذه المرة صادفنا الحظ وربنا سترها، هل ننتظر المرة القادمة؟

لم يجبني (رافد) على سؤالي واكتفى بالصمت وهو يقلني الى الفندق ويساعدني حتى تأكد من وصولي الى غرفتي.

شعرت برغبة عارمة في محادثة أمي، فأخرجت هاتفي وحادثتها، كنت أتذكر و أنا طفل صغير حينما يضربني إبن الجيران أنني كنت أهرع إلي حضنها و أبكي، لازالت لدي هذا العادة و أنا كبير، كلما تعرضت إلي سوء أهرع إلى حضن صوتها، هي تسمع بكائي وتشعر به حتي لو لم تراه، الأم تعرف من صوتك الضاحك هل هذه ضحكة فرح أم ضحكة وجع، أحسست بصوتها يغسل ما بي من عناء الأيام، ووددت لو كان هناك أختراع أو مقدرة على الانتقال الآني لأجد نفسي في هذه اللحظة بين أحضانها، من قال انه لا يوجد دواء لإطالة العمر، الأم دواء يطيل أعمارنا حتي أذا فقدناها شخنا ومتنا.

أنهيت المكالمة وطلبت خدمة الغرف بالطعام إلي الحجرة، فلم يكن لدي رغبة في النزول لأسفل لتناول طعامي، إنتبهت الي الورقة التي دونتها (سولين) برقم هاتفها، أخذتها بين أصابعي لأتأملها جيداً، لا أميز مضمون شعوري تجاهها هل هي بوادر حب، أم فقط نقص عاطفة في هذا البلد القاسي تجعلني أبحث عن ينبوع لأطفيء به ظمأ أحاسيسي.

فكرت ملياً، هل أتصل بها لأشكرها وربما أبحث عن مجال للحديث معها أو دعوتها للعشاء، سجلت رقمها على هاتفي و أنا أهم بطلب رقمها، قبل أن أتوقف فجأة، ماذا لو كانت من عائلة محافظة، ماذا لو كانت متزوجة، ربما تسبب هذا في حرج أو مشكلة لها.

لاحظت أن لديها و اتس أب علي نفس الرقم، تأكدت من تعديل صورتي على الو اتس الخاص بي لأجعلها تبدو مثلي، ثم أرسلت لها فقط وردة حمراء على الو اتس، وأنتظرت، أنتظرت طويلاً، الرسالة وصلت لديها ولكنها لم تقرأها بعد، أتى الطعام وكنت جائعا بشدة فأخذت ألتهم قطعة وأخرى وبينهما أعيد النظر إلى الو اتس مرة أخري حتي أصابني الملل، أنهيت طعامي ثم دلفت للحمام لأخذ حماما ساخناً، تحت الماء الساخن سمعت صوت رسالة

علي الواتس، ربما تكون هي أو شخص اخر، ولكني لم أتعب نفسي بالتفكير طويلاً، خرجت من الحمام عاري كما ولدتني أمي لأمسك بالهاتف وأرى رسالتها، كانت رمزا تعبيريا بيدين متماسكتين تعبيرا عن العفو والشكر، إذن هل هذا كل شيء، ستنتهي المحادثة هكذا، جففت نفسي بسرعة ثم أخذت أكتب:

- شكراً على العناية بي.

أتتني إجابتها مسرعة:

- العفو هذا واجبي.

لم أري عبارة أخرى قادمة من ناحيتها فأيقنت ان المحادثة قد أنتهت عند هذا الحد، لا بد لي من أن اختلق حديثا من لا شيء، نظرت لصورتها على الواتس، كانت هي ومن ورائها معلم أثري جميل فقلت لها:

- صورة جميلة، هل هذه تركيا؟

- شكرا لك، لا هذه من أرمينيا.

- بلد جميل أيضا ولكني لم أزرها من قبل.

- تستحق الزيارة، لا تفوتها.

- هل ذهبت هناك مع عائلتك؟

- لا لوحدي، مع رحلة سياحية منظمة الي هناك.

- سفر الإنسان لوحده ممل، هناك لحظات يجب أن تشاركيها مع الآخرين.

- ليس لدي أحد حينها.

- والأن؟

أتاني صمت عميق أستمر عشر دقائق فلم أعرف هل هي منشغلة أم تمتنع عن الإجابة ثم أتتني عبارتها:

- كيف تشعر الأن؟

- بخير.

- هل تعاني من دوار أو صداع أو رعشة بالإبصار؟

- لا كل شيء يسير بشكل حسن.

صمتت للحظات وقد فشلت محاولات الإنعاش المضنية للمحادثة، فقلت لعلها لا ترغب في الحديث معي قبل أن اجدها تقول:

- هل أنت حديث العهد ب (بغداد)؟

- فقط مضى شهرين علي وجودي هنا.

- أذن هل زرت أيا من أماكن (بغداد) المعروفة؟

- لا فقط تجوالي بين مطعم وأخر.

- آه، فاتك الكثير، يجب أن تزور مدينة (بابل) الأثرية.

هنا استجمعت شجاعتي لأقل لها:

- فقط إذا كنت أنت مرشدتي سأزورها

جاوبني صمت قصير قبل أن أجدها تجيب:

- حسناً، سأفعلً، متي يناسبك؟

- الجمعة القادمة أنا متفرغ، ماذا عنك أنت؟

- سأحاول يوم الجمعة.

- إذن إلى لقاء.

- إلى لقاء قريب.

- ولكن حتى ذلك اليوم سنتواصل يومياً، أليس كذلك؟

جاوبتني برمز تعبير لوجه مبتسم ثم أعقبتها بعبارة:

- الوقت تأخر، أحلام سعيدة.

- أحلامك أسعد.

ولأول مرة منذ وصولي الى (بغداد) انام وعلي وجهي إبتسامة عريضة حتي ظننت أن الكون كله يبتسم معي، وددت لو أن هذه الابتسامة تسري بين أهل (بغداد) جميعاً، وأن تنسيهم الآم الماضي وجراح الحاضر وأن تنير لهم المستقبل.

حقاً بدأت الأيام تحلو في (بغداد).

الفصل الخامس (ما كان في بابل)

جاء الصباح التالي عاصفا بشدة، ما ان وصلت الي مكتبي حتي وجدت صياحا عظيما بين (رافد) مدير الموارد البشرية و(هشام) الذي وقف أمامه يرغي ويزبد قبل أن يتوقف الجميع ساعة وصولي، بدا الجو ملتهبا ولم أرد أن أفسد يومي فقلت في حزم:

- ماذا هناك؟

صاح في (هشام) وهو يقترب مني بعنف:

- أنا لا أقبل قرار الفصل، إنس هذا الأمر وتراجع عنه، هذه بلدي أنا وهذا خيرنا نحن وليست بلدك انت.

- هذا أخف قرار يمكن إتخاذه وأحمد ربك أن الأمر لم يصل لأسماع الشرطة.

ألقيت كلمتي في صرامة و أنا أتحسس لردة فعله، لكنه لم يملك سوى إبتسامة عريضة وهو يقترب مني كذئب عقور قبل أن يقول:

- أذن لنرى من منا سيملي إرادته على الأخر، سأعود للعمل قبل ظهر اليوم وسترى.

تركنا و انصرف و(رافد) يرتعش كورقة ألقت بنفسها في مهب الريح، فأشرت له قائلا:

- لا تقلق.

نظر لي في إنكسار مجيباً:

- أنت لا تدري من هو؟ وماذا هو قادر على فعله؟

لم أعي هذا الأمر في وقته، هذا مشرف عمال عادي يحق لي فصله في أي وقت، كنت اظن أنني سيأتيني إستدعاء أو زيارة من مكتب العمل لا اكثر، ربما قضية عمالية تنظر في المحاكم لشهور ولكن في (بغداد) كان الوضع مختلفا

ما هي الا نصف ساعة حتي وجدت إتصال من رقم مجهول لي، قمت بالرد لأجد صوت خشن يصك مسامعي قائلاً:

- أعد (هشام) إلي العمل.

- من أنت؟ من المتحدث؟

- أنا (عمار الساعدي) من (.....)

ذكر لي الرجل إسم ميليشا مشهورة للغاية بالعراق، معظم أعضائها خطرون، قلت له في حذر:

- وإن لم أفعل؟

ضحك بقهقهات عالية وهو يقول لي:

- أذن سنلتقي وجها لوجه وصدقني لن تحب ذلك.

أغلق الهاتف في وجهي ولم يترك لي فرصة للاسترسال في الحديث، شعرت بالحنق، وقتي القصير في (بغداد) وإستطلاعي للامور سمح لي بالتعرف علي هذه المليشيا التي أعرف ان عدد أعضائها يتجاوز العشرة الأف مقاتل في (بغداد) وحدها، وهي مرهوبة الشان ومدعومة من الحكومة العراقية نفسها.

أستدعيت (رافد) الي مكتبي ودخل علي مرتبكاً وهو يقول:

- هل نلغي قرار الفصل؟

- لا طبعا ، لن يصير لنا كلمة علي العمال إن فعلنا ،لقد وردني إتصال الأن.

هتف متوترا

- إتصال واحد؟، لقد وردني ثلاثة إتصالات واحد من عشيرته من كبير العشيرة نفسها، والثاني من رتبة عالية جداً بوزارة الداخلية، والثالث من مكتب رئاسة الوزراء نفسه.

رجعت بظهري علي مقعدي و انا أقول:

- لهذه الدرجة، من هو (هشام) هذا؟ ما هي كينونته بالدولة؟

- هو مجرد عضو في مليشيا مسلحة، ولكنه عضو نشط، يعرف كل القيادات، صدقني لو أغضبناهم سيكون الأمر سيئاً علينا جميعاً وبالأخص عليك أنت.

قلت له:

- هل انت خائف؟

- أكذب عليك لو قلت لك لست خائفا، لقد وجدت أطارات سيارتي خربة منذ قليل، هذا شيء بسيط بما يمكن أن يفعلوه بي.

صمت للحظة و أنا أدير الأمر في رأسي قبل أن أقول:

- اذن لو اتصلوا بك مجددا أخبرهم أن لا دخل لك بالأمر، و أنني الوحيد المتصلب في رأيي.

- ولكن ...

- ليس هناك من لكن، دعهم يفعلون ما بدا لهم، ولكنني لن أتراجع عن قراري.

تركني و أنصرف وفي عينيه شفقة لاحظتها وإن حاولت تجاهلها، كنت في داخلي أشعر بالخوف شخصياً، ولكن لم أظهر ذلك له لا في ملامحي ولا في صوتي، أمضيت يومي بشكل عادي، وردني إتصال أو أثنان فيهما تهديد واضح ولكني لم أكترث.

طلبت من (أبو حيدر) أن يقلني باكرا عن موعدي المعتاد للعودة، حيث عدت للفندق ولم أخرج منه، كنت أقضي وقتي في الحديث مع (سولين) تطورت أحاديثنا من كتابات إلي رسائل صوتية ثم محادثات هاتفية طويلة كانت تتجاوز الساعة كحد أدنى.

عرفت منها العديد من الأمور عنها وعن عائلتها وعاداتها وهوايتها ودراستها، عرفت أن أباها تاجر أجهزة كهربائية معروف، ولم يكن لديه إبنة سواها فأرسلها إلي إنجلترا لدراسة الطب هناك قبل أن تعود لبلدها رغم إغراءات الإقامة بالخارج، عملت بمستشفي الراهبات لفترة ثم إنتقلت للعمل في كردستان لتفاجأ بالعداء الكردي للعرب والقومية الكردية المتنامية لتقرر ترك العمل هناك أيضاً والعودة مرة أخرى إلي (بغداد).

عرفت بولعها بالموسيقي اليونانية والتركية وعشقها لركوب الخيل، عن جمعها للاقلام التي تحمل شعار الشركات، عن شرفة منزلها البغدادية المسماة في بغداد بالشناشيل، عن غرامها بشراب الفراولة.

وعرفت هي عني الكثير منذ ولادتي حتي لحظة لقائي بها، هنا تيقنت أني أكن لها شعوراً اكثر من مجرد إعجاب أو إنجذاب، مرت الأيام سريعة، لم أعد أتلقى اتصالات تهديد وإن كنت قد فوجئت بولادة شعيرة بيضاء جديدة ربما من أثر التوترات السابقة، الأن صار لي أربع بنات شائبات في شعري يتدللن علي والدهن الشاب.

كنت قد أخذت حذري بناءا علي توصيات الزملاء المخلصين بأن أغادر كل يوم في موعد مختلف أو سيارة مختلفة من موقع العمل، حتي أتي يوم الجمعة المنتظر حيث رتبنا لخروجنا أنا و(سولين) لزيارة مدينة (بابل) القديمة بجوار منطقة الحلة جنوب بغداد، كنت قد طلبت من (أبو حيدر) أن يقلنا في ذلك اليوم وتطوع الرجل مشكورا بذلك، رغم أنه يوم عطلته.

كانت (سولين) قد جاءت إلي الفندق بعربتها البيضاء المميزة وهبطت منها وكأنها (عشتار) تنزل من عربتها المقدسة، كانت فاتنة في فستان أزرق جذاب وقد تمنطقت بحزام ذهبي أنيق، وعقصت شعرها برباط ذهبي أيضا فبان كالتاج علي رأسها.

إندهش (أبو حيدر) حينما عرف أنه سيقلنا سوياً إلي مدينة (بابل) ولكنه لم يعلق، هذا الرجل مثالي في الاهتمام بشؤونه والإنصراف عن شؤون الاخرين،لا أعلم هل وجود كثير من أمثاله خيراً أم شراً لشعوبنا الفضولية.

كانت هناك العديد من نقاط التفتيش في الطريق ولكننا لم نتعرض لمضايقات إلا في سيطرة الحلة حيث أصر الضابط علي تفتيشي ذاتيا حينما عرف أنني أردني وتفتيش السيارة كذلك ولا أعرف السبب.

لم نتبادل أنا و(سولين) كلمات كثيرة في الطريق ربما لوجود (أبو حيدر) فتصرفنا بطريقة شبه رسمية، وفي الطريق مررنا علي مسرح (بابل) أخبرنا (ابو حيدر) أنه كان ذو شان كبير أبان العهد البائد، وكان (صدام) يقيم المهرجانات الغنائية والفنية كثيرا في الثمانينات ويأتيها مئات الوفود من كل دول العالم، وكان المسرح يصدح بأجواء فنية رائعة ولكن أخبرنا أنه بعد السقوط، توقف هذا كله وصار الفن والثقافة والأثار نفسها علي الهامش، كان يعرف الفرق لكونه كان سائقاً حكومياً في تلك الفترة مسؤولا عن إقلال الوفود.

عبرنا المسرح ثم ترجلنا من السيارة لكي نسير في الطريق المؤدي إلي مدينة (بابل) أستأذن منا (أبو حيدر) في أنه سيبقي بالسيارة لأنه لا يقدر على المشي الطويل، أثنيت علي ذكائه الإجتماعي في تركه الفرصة لي و(سولين) في أن نصبح علي راحتنا في الحركة والحديث، مشيت الهويني مع (سولين) ونحن نتحدث عن الأماكن، كانت الخضرة تحيط بالمدينة في شكل رائع، ولكني

لاحظت قلة الزائرين إلي المكان وعدم العناية به، وصلنا إلي بوابة عشتار بألوانها الزرقاء المزدانة بالزخارف الذهبية لحيوانات خرافية وكأننا دخلنا من بوابة التاريخ إلي عالم الأساطير القديمة.

وجدت أحد المرشدين العراقيين يعرض علينا خدماته، فشكرته لطفا، لم أكن أريد عزولا أخر بيني وبينها، فأكتفيت بشراء كتيب يشرح المدينة وأثارها، سرنا بين أطلال وبقايا المدينة القديمة وأنا ألتقط لها الصور بين الأثار وهي تتفنن في أتخاذ وضعيات مرحة أو مغرية في غير تبذل، بينما كل صوري كانت رسمية نوعا ما، وصلنا إلي أنقاض مدينة (بابل) المسماة بأنقاض الجنائن المعلقة والتي شيدها الملك "هوسيروس" حبا لزوجته "سميراميس" اخبرتها هذه المعلومة فقالت:

- مرحي، تاج محل في الهند والحدائق المعلقة في العراق، أظن أن الحب هو حافز الحضارة، سعيدة هي من ترتبط بمهندس معماري.

لم أفهم هنا هل عبارتها كانت بريئة أم تلمح إلي شيء ما فقلت لها مجيباً:

- لو كان الأمر بيدي لبنيت لك مدينة لم يشهد الزمان مثلها

إنتشت وجنتاها بالخجل، وهي تسير معي بين عدة سراديب كأنها متاهة قبل أن تقول:

- حاول الا نتوغل كثيرا فهذه المتاهة سنضيع فيها وسيصعب علينا الخروج.

قرأت من الكتيب معلومة عن هذا المكان قبل أن أقول:

- هذه المتاهة تم تصميمها حتي يضل الغزاة المهاجمون للقصر الملكي طريقهم فيها.

ثم أشرت إلي أعلي أسوار المتاهة قبل أن أقول:

- وهنا كان يقف الرماة بأقواسهم وسهامهم يقتنصون الغزاة قبل أن يصلو الي القصر.

ضحكت وهي تقول:

- اظن أن هذه أسطورة، ربما الملك كان يود أن يختلي بالملكة في هذه المتاهة فلا يفاجئه أحد من الحاشية.

شعرت أن في كلماتها رسالة خفية فأمسكت يدها بلطف، نظرت لي في سكون، أقتربت منها ببطء، جفلت ولكنها لم تبتعد، التصقت بالحائط، فاحتضنتها وخضنا في غمار قبلات عارمة عصفت بالروح والجسد، لم ندري بالوقت، ربما أستغرقنا دقائق في قبلاتنا قبل أن أضع يدي تحت ذقنها الدقيقة وأرفعها نحوي قائلاً:

- شعوري نحوك لا أستطيع وصفه بالكلمات.

قالت وهي تقطر خجلاً:

- و أنا أيضاً، ولكن تمهل علي فهناك الكثير مما لابد أن تعرفه.

قلت لها و أنا أضع سبابتي علي شفتيها:

- أعرف ما أريد بالفعل.

لم تجبني و إنما مدت يدها تأخذني خارج المتاهة، سرنا مرتبطي الأيدي حتي رأينا من بعيد قصراً حديثاً علي ربوة جبلية، لم أقرا عنه شيء في الكتيب فقالت لي:

- هذا قصر (صدام حسين) بالحلة ك، هل تود الذهاب؟

قلت لها فرحا:

- بالطبع وهل أفوت فرصة كهذه، هل هذا قصره الوحيد؟

- لا بل واحد من بين عشرات القصور كانت له ولأولاده بالعراق.

كان القصر يقبع علي تبة صناعية عالية، ولكنها مزدانة بالزهور والنباتات البرية فبدت رائعة الجمال، ولما وصلنا الي القمة رأيت من الأسفل أجمل مشهد علي الأطلاق، النهر الجارف المتدفق يخترق الأراضي الخضراء في تحفة فنية ربانية، رأيت بيوت الفقراء علي ضفة النهر فقلت ل (سولين) متسائلاً:

- تري كيف كان شعور هؤلاء وهم علي مقربة مئات الأمتار من قصر (صدام) العظيم.

قالت لي باسمة:

- في عهد (صدام) كان ممنوعا حتي الأقتراب من القصور الرئاسية، هؤلاء بنو بيوتهم بعد السقوط.

كان القصر مهيباً ذو طابقين بالإضافة إلى طابق تحت الأرض، حجراته واسعة وكل ركن وجدار فيه عكف علي أعداده فنان، ولكن يد الأهمال طالته في كل ركن، هناك علي أحد الجدران كتب أحدهم (حسن) و(شهد) مع رسم لقلب يخترقه سهم، لم يكن للقصر الخرب سوي حارس واحد أكتفي بأخذ مال من الناس ليسمح لهم برؤية الطابق العلوي، كان السقف عبارة عن رسوم توضح تاريخ العراق من الماضي السحيق حتي تاريخه المعاصر.

علي أحد الجدران رأيت نقوشا رائعة وعندما تمعنت فيها وجدتها نقوش هندسية تحمل حرفي الصاد والحاء وهي إختصار أسم (صدام حسين) الرجل أختزل العراق في شخصه وأولاده، أستمعنا لشرح من حارس القصر عن أن (صدام) لم يزر القصر سوي مرة واحدة في حياته ولمدة نصف ساعة وانه لم يعجبه وطلب هدمه وبناء أخر محله، وأنه أعجبته نخلة قرب القصر فطلب الأهتمام بها ولما كانت طلبات القائد العظيم مهيب الركن محل

تقديس من الجميع لذا تم تأمين حماية عسكرية ومهندسين زراعيين للأهتمام بها طوال الوقت، هذا هو الخوف بأقسي صوره.

إنتهينا من رؤية القصر والذي تحسرت علي ما أل إليه وتمنيت أن يستغلونه أو يجددوه ويهبونه لأي نشاط سياحي أو فندقي لربما درعليهم دخلاً كبيراً.

إنتهينا من رحلتنا وقفلنا راجعين، لم يكن هناك أي مطاعم قريبة فطلبت من (أبو حيدر) أن يتوجه بنا إلي أي مطعم عراقي جيد فأختار لنا مطعم (مزاج) كان المطعم يقع علي بعد مسافة قصيرة من الفندق فأستأذن الرجل أن ينصرف الآن، كانت فرصة لأن أتمشي في أثناء العودة مع (سولين) إلي الفندق ورحبت هي بذلك، تناولنا طعاما عر اقياً دسماً، لاحظت أن المرأة العر اقية مهما بلغت نحافتها تقبل على الطعام بشهية طيبة وتعجبت لهذا التناقض العجيب.

حينما أنتهينا طاب لنا السير نحو الفندق و أيدينا تتشابك وكأنها تخشي الفراق، رحت أحدثها كيف أصبحت(بغداد) أجمل منذ دخلت هي إلي حياتي، كانت صامتة وكأن هناك ما يشغل عقلها فقلت لها:

- (سولين) هل أنت بخير؟

- نعم ولكن أريدك أن تتريث قليلا في مشاعرك،أشعر أننا انجرفنا، فلم أخبرك كل شيء بعد.

- لا أريد أن أعرف شيئاً، أنا خلقت لك و أنت خلقت لي.

- لا، ستسمع لي، فما سأقوله لك ربما يغير رأيك تماماً.

- أتريدين رأيي، رأيي أن نذهب الأن ونتزوج فوراً، بلا زفاف ولا جمهور، بلا أحد غيري أنت و أنا والكون شاهداً علينا.

- هناك فارق كبير بيننا

- ليس هناك فارق سيمنعني عنك، الحب لا يعرف فارق، لا السن ولا الجنسية ولا التعليم والا المكانة الاجتماعية.

نظرت لي متمعنة قبل أن تقول: - وماذا عن الدين؟

صمت للحظة قبل أن أقول:

- منذ التقيتك إلي الآن، لم أسالك عن دينك فماذا ستكونين شيعية و أنا سني، هذه حدود إصطنعها بشر ولم يضعها الله، ما هما سوى مذهبان لدين واحد فرقتهما السياسة.

- لست مسلمة

- إذن لتكوني مسيحية ، كما قال مطرب العرب العظيم:

" صومي خمسينك وأصوم ثلاثيني .. أنت علي دينك و أنا علي ديني"

- لست مسيحية كذلك، عملي بمستشفي الراهبات لا يعني أني مسيحية.

- كوني ما شئت أن تكوني، حتي لو كنت يهودية، النبي (محمد) صلي الله عليه وسلم قد تزوج مرة من إمراة يهودية.

توقفت في مشيها وهي تضع كفها علي فمي لتوقفني عن الكلام قائلة:

- (أنور) إسمعني أرجوك.

إبتسمت و أنا أقل لها : - حسناً، قولي ما لديك، كلي أذان صاغية.

كنا قد وصلنا إلي الفندق ففتحت باب سيارتها و أتخذت مكانها وراء المقود وهي تدير مفتاح السيارة لتشغيلها وكأنها تلوذ بالفرار، فوقفت بجانب السيارة أسالها:

- ها، قولي لي ما هو الدين الذي يمنع زواجنا؟

نظرت لي بنصف عين دامعة وهي تنطلق ببطء بالسيارة قائلة:

- أنا إيزيدية

الفصل السادس (أتباع يزيد والحسين)

" كفرة فجرة"

هكذا أجابني (عبد الرحمن) السني حينما سألته.

"فجرة كفرة"

وهكذا أجابني (نعيم) الشيعي حينما سألته .

وعندما أستفتيت الشيخ (جوجل) أجابني التالي، بعد إستشارة ويكبيديا ودائرة المعارف وجدنا التالي:

الأزيديين هم أتباع الديانة الأزيدية ومأخوذة من اللفظ الفارسي "إيزيد" أي الملاك او المعبود وهم يطلقون علي أنفسهم لقب "داسين" ويعتبرون أنفسهم عباد الله، في العراق، يؤمنون أنهم أشتقوا أسمهمم من (يزيد بن معاوية) وذلك لتقديس هؤلاء الأخرين له، وذلك لتشابهه مع الشخصية المقدسة لديهم "سلطان إيزدي" وهذا جلب لهم غضب الشيعة والسنة علي السواء وأعتبروهم عبدة الشيطان وذلك لرفضهم الجمع بين حرفي الشين والطاء ورفضهم لعن أبليس المسمي لديهم (سيدي طاووس) وتقديسهم له واعتبارهم أياه انه الملاك الطائع الوحيد لأنه لم يسجد لأدم ولم ينسي وصية الله بعدم السجود لغيره في حين نسيها بقية الملائكة وعلي ذلك فهو يعتبر أول الموحدين.

حقيقة نشاة اليزيدية ملتبسة فالبعض ينسبها لمؤسسها (يزيد بن أبي أنيسة) بالبصرة والبعض يراها نشات أثر أنكسار الجيوش الأموية بالعراق على يد العباسيين، وهناك قصص كثيرة ملتبسة عنهم.

يعتبرون أنفسهم ديانة وقومية مستقلة بذاتها ومنهم العرب والأكراد، تعرضوا لحملات إبادة منظمة عبر التاريخ ولذا لا يبشرون بديانتهم وسط الأخرين وينغلقون علي أنفسهم وسط مجتمعاتهم.

لديهم أسطورة بأنهم من سلالة مختلفة عن جميع البشر نبتت دون وصال في جرة فخارية ويعبدون الإله البابلي (نابو) ويقدسون كلهم (عدي بن مسافر) فهو الشخصية المحورية لديهم.

لديهم عقائدهم الغريبة وطوائفهم وكتابهم المقدس المكتوب باللغة الكرمانجية وهي لغة كردية قديمة، ولديهم هيكل تنظيمي لديانتهم هو الأمير وكل أمرائهم من عائلة واحدة تسمي العقيد وينقسمون بعد ذلك في الجماعة الي الشيخ والبير والمريد وينقسم كهنتهم الي مراتب ثلاثة ثابتة هي الفقير والقوال والعراف، ينتشرون في العراق وسوريا وتركيا مع بعض الأنتشار الخفيف في جورجيا وارمينيا، وعددهم يتجاوز النصف مليون بقليل.

كانت الديانة بالنسبة لي غير سماوية، وبالتأكيد حملت كتابا عبر الأنترنت يحكي عن معتقداتهم لعلي أجد بها أصلا عن التوحيد فلم أجده بل وجدت التالي:

اولاً: يري الأيزيديون أن الله موجود في كل شيء وعليه يقدسون كذلك الشمس والقمر والنجوم.

ثانياً: يؤمنون بالتوحيد المطلق وعليه لا يعتقدون بوجود قوى أخرى تسير الأنسان مثل الأرواح الشريرة والشياطين والجن.

ثالثا: يصلي الأيزيديين خمس مرات باليوم هي الفجر والشروق والظهر والعصر والغروب ويوالون الشمس في كل الصلوات ما عدا صلاة الظهر حيث يتوجهون إلى لالش هو معبدهم في غرب الموصل.

رابعا: يصوم الأزيديين ثلاثة أيام بالسنة وله أن يزيد ما شاء علي ذلك ورجال الدين لديهم يصومون ثمانون يوماً، أربعين بالصيف ومثلها بالشتاء

خامساً: القبلة لديهم هي الشمس وعليه الأعتدال والوقوف رافعا يديه للسماء.

سادساً: يؤمن الأيزيديون بالتقمص والتناسخ ويؤمنون بوجوب تعميد المولود.

سابعاً: يحرم الزواج لديهم بين الطبقات.

ثامناً: يحجون مرة واحدة بالعمر الي معبدهم في لالش، ولديهم العديد من الأعياد الدينية.

تاسعاً: يرتدي رجالهم الزي العربي ونسائهم الملابس السريانية ولكنهم في الأغلب عصريون.

عاشراً: بعد أن عوقبوا سياسيا في فترة حكم البعث، نشطوا سياسيا بعد ذلك ولديهم مكتب لأحياء الخلافة الأموية في بغداد.

لم أعد أحتاج لأقرأ المزيد، شعرت كما و أني طفل صغير هطل عليه المطر ولا يجد ملجأ له سوي أن يحتمي بالنيران، كنت لا أدري ماذا من المفترض أن أفعل بعد ذلك، لو كنا في فيلم هندي رديء لأتصلت بها وأخبرتها أن الحب هو ديننا و اننا كلنا بشر لكن الحقيقة التي أعلمها جيداً أننا لن نفعل، الو اقع ليس رومانسياً هكذا، أنا لست ملتزماً دينياً ولكن جزء مني يرفض هذا الأمر تماماً.

التقطت الهاتف لأطلب رقمها، اكاد أتخيلها الأن تنظر للرقم، تقرر ألا ترد ثم تتشجع ليأتيني صوتها:

- (أنور).

- (سولين) لا أعرف ماذا أقول.

- سأعفيك أنا من القول، كنت تريد والآن لا تستطيع، لا بأس ولكن هل يمكننا أن نظل أصدقاء؟

- لا أظن أني أستطيع ذلك أيضاً، الحب لا يعود صداقة أبداً.

- إذن شكراً علي الوقت الظريف الذي قضيناه سوياً.

- وداعاً

****

كان مزاجي متعكراً كثيراً في الصباح التالي، مكدراً وأعصابي مشحونة، وقفت هذا الصباح أنتظر (أبو حيدر) الذي تأخر على غير العادة وبينما أنا أنتظره وجدت (لويس) يقترب مني قائلاً:

- صباح الخير يا أستاذ (أنور).

- صباح الخير يا (لويس).

- عرفت لك نهاية قصة (عشتار) و (جلجامش)

- ليس الآن يا (لويس).

- أنها ستاخذ دقيقتين فقط

- ليس الآن، الا تري أنني غير مهتم

صرخت بوجه الرجل الذي تراجع للخلف وكأنه لم يتوقع ردة فعلي تلك قبل أن يعتذر منصرفا عني، لمت نفسي للحظة علي فعل ذلك ، الرجل يحاول ان يكون ودودا ويجتهد في خدمتي، وعدت نفسي بأن أعتذر له حال عودتي.

لم يزل عني الغضب والحزم اللذان بداخلي فصببت بقية غضبي علي (أبو حيدر) عند وصوله، بهت الرجل كذلك وهو الذي تعود علي طبيعتي الهادئة وليونتي في التعامل، لاشك أنه خمن أن شيئاً ما سيئاً قد حدث بيني وبين (سولين) بالأمس.

تحاشاني الجميع في العمل ساعة وصولي وقضيت اليوم كله ألتقط الأخطاء لكل من حولي وأصرخ علي الأداء السيء والمتاخر لكل إدارة حتي أنني لم أذهب معهم للغداء وطلبت أن يأتوني بوجبة خفيفة لدى عودتهم.

سهرت لساعة متأخرة من الليل في المكتب وأضطررت لصرف (أبوحيدر) لئلا ينتظرني كل هذا الوقت، كنت أريد أن أنسى مسألة (سولين) برمتها ولكن الواقع أنني لم أنساها، رأيت نفسي وقد كتبت أسمها عشوائياً مرتين في أجندتي، لم أدري كيف ولا متي فعلتها ولكن هذا يعني أنها ظلت هناك قابعة في أعماقي.

أنهيت عملي قرابة الساعة التاسعة مساءً، كان كل العمال قد أنصرفوا وكذلك كل الإدارات، ولم يبقي غير حراس الموقع، ألقيت عليهم تحية مقتضبة أثناء خروجي ولم يجاوبوني عليها، اليوم ليس أسعد أيامي على الإطلاق.

وقفت بالشارع أنتظر أي سيارة أجرة مارة من الطريق، لوحت لواحدة فلم تتوقف ومرت فترة وأنا أنتظر أخرى، كنت اتمني الآن لو كنت مدخناً، أجد لفافة تبغ أحرق صدرها وتحرق صدري، أشعر أن علاقة الأنسان بالسيجارة فيها ناحية حميمية وكأنها إشتقاق من الجنس، الرجل يطفيء غضبه وشهوته في صدر إمرأة ويطفئ بالمثل المشاعر في سيجارته.

أشرت لسيارة لاحت من بعيد لعلها تراني، إقتربت السيارة ببطء ولم تخفض أنوارها ، حمدت الله أني غير مضطر لقضاء وقت أضافي في الشارع،

توقفت السيارة إلي جواري قبل أن أنتبه إلي أن السائق ليس وحده ، هناك رجلان أحدهما بجواره والأخر في الخلف لم أتبين لهما وجها ، كانا يختبئان خلف قناع ملثم أسود ، قام الرجلان بالهبوط من السيارة قبل أن تتوقف في سرعة، وبحركة مدروسة كبلا ذراعي، حاولت أن أقاوم، تملصت منهما وركلت أحدهما في صدره ولكن الأخر كبل ذراعاي من الخلف في حين وجه الأول قبضته إنتقاما نحو صدري، رأيت السائق ينزل، لم أستطع رؤية ملامحه، رأيته يحمل جراباً قماشياً أسوداً أسدله علي رأسي ليعميني عن الرؤية، أركبوني في الخلف عنوة وشعرت بالسيارة تتحرك.

لقد تعرضت لأختطاف منظم.

لم أدري ما المفروض علي فعله الآن؟ هل أقاوم من جديد؟ هل أدفع أحدهما وألقي بنفسي من السيارة؟ وماذا لو فشلت؟ ماذا لو قتلوني؟ هل أستسلم؟ ماذا سيفعلون بي؟ هل يرغبون بالمال؟ أم أن الأمر للتسلية؟

طافت كل الخواطر السوداء برأسي وتذكرت حكايات (سمير) عن الأختطاف، لم أحاول التظاهر بالبطولة فأنا أرتعد بالفعل وأستسلمت لعجزي بين الأثنين القساة عن يميني وعن شمالي.

تمايلت بنا السيارة عدة مرات في الطريق، لا شك أنه يأخذ طرقا ملتوية كذلك، وشعرت من أرتجاج السيارة المفاجئ أن الطريق أصبح أكثر وعورة وكأنه يسير في شوارع غير ممهدة، سارت السيارة لفترة قدرتها في عقلي بنصف ساعة وإن كنت لا أستطيع أن أجزم بصدق تقديري فمعصوب العينان إحساسه بالوقت غير دقيق.

توقفت السيارة فجأة وشعرت بالباب يفتح والقاسيان يقتاداني عبر أماكن ما في غلظة، شعرت بالحصى يرتطم بمقدمة حذائي، هل نحن في الصحراء؟ ولكني لا أشعر بالهواء، إذن هذا ممر ولكنه غير ممهد، شعرت بهم

يفتحون بابا جديداً أصدر صريرا عنيفا صك مسامعي قبل أن يدفعني أحدهم في عنف لأسقط علي وجهي علي بعد مترين علي الأقل ، أعتدلت و أنا لازلت جالس علي الأرض و أنا أتسائل ماذا الأن ؟

الباب لم يغلق فلم أسمع صريره مره أخري والأثنان لم يغادرا بالتأكيد، فكرت في أن أخلع الجراب الأسود ولكن كيف وقد أنتبهت أني مكبل الذراعين

شعرت بوجود شخص ثالث بالغرفة، لم أسمع صوته ولكنها غريزة الإنسان للبقاء حينما يشعر بوجود خطر قريب منه، أتاني صوته ليؤكد حدسي وهو يقول بصوت أجش:

- أهلاً بالعريس.

لم أفهم هل عبارته سخرية أم تورية، هل يقصد أنهم سيزفونني إلي مكان ما، ربما القبر أم أن الكلمة يستعيرها لأنني مقدم علي تجربة جديدة وهي الأختطاف، لم أنبس ببنت شفه وشعرت به يسحب مقعدا خشبياً ويجره على الأرض قبل أن يضعه علي مقربة سنتميترات مني ويجلس عليه، شعرت به ينتزع الجراب من علي رأسي ليتيح لي الرؤية.

توقعت ضوءً مبهراً في البداية ليصدم مقلتاي ولكن إضاءة الغرفة كانت خافتة وتظاهرت بأني أخفض عيناي لأستطلع ملامح الغرفة في سرعة، كانت تبدو غرفة منزل، ليست مخزنا علي أقصي تقدير، الغرفة عارية من الأثاث سوي من المقعد الوحيد الذي يجلس عليه الرجل وقد جعله بالعكس حتى يتمكن من إسناد ساعديه علي ظهر المقعد عند الجلوس.

القاسيان كانا يقفان عند الباب في حالة تأهب، أما أجش الصوت فقد رفعت عيناي لأستطلع وجهه، كان ضخم الجثة ولديه لحية خفيفة لا تعبر عن تدين أكثر مما تعبر عن بأس وغلظة، عينان واسعتان وكأنهما تلتهمان

الإنسان لا ترمقانه، ملامحه قاسية بلا شك وهناك شبح إبتسامة يلوح ويخبو علي شفتاه الغليظتان.

عاد يقول لي

- ما أسمك؟

تعجبت الا يعرفوا شخصيتي وهم من قامو بإختطافي في تدبير وعن قصد، ربما يقصد السخرية مني ولكني أجبته في أقتضاب:

- (أنور) .. (أنور الرفاعي)

نظر لي وقد ضاقت عيناه وهو يقول:

- هل أنت سني أم مسلم؟

تعجبت من السؤال وهو يقارن بين ديانة وعقيدة من نفس الديانة وكأنهما كيان منفصل فقلت له مجيباً:

- أليس السني بمسلم؟

ضحك ملء شدقيه حتي كان أن ينقلب علي ظهره قبل ان تتلاشي ضحكاته ويأخذ وجهاً متجهماً ليبادرني بقول غاضب:

- وأليس الشيعي بمسلم ؟؟!!!

لم أفهم سؤاله التعجبي فلم أرد عليه قبل أن يقف وسط الغرفة وهو يسير نحو الباب خطوتين قبل أن يعود لي ليقول:

- هل تعرف؟ منذ عدة سنوات كنت بالأردن، بعد السقوط كانت الأحوال متدهورة، كان ضباط الأمن لديكم يستوقفونني بالشارع ويطالبونني بإظهار هويتي، ويسألونني نفس السؤال "هل أنت مسلم أم شيعي" فور أجابتي بأنني شيعي و أفتخر كنت ألقى منهم كل تعنت وإهانة، أليس الشيعي بمسلم أيضا.

هنا أنتبهت لأول مرة لماذا هناك كره دفين داخل نفوس بعض العر اقيين تجاه الأردنيين، من منطق واحدة بواحدة والبادي أظلم، لم أجبه و أكتفيت بإطراق رأسي، لم يهتم كثيراً بي وكأنه يسترجع ذكرى ما خطرت على باله وهو يتطلع إلي ظلالنا علي الجدار قائلاً:

- كنت أسعي هناك للعمل بأي شكل لأعالة عائلتي، تناسيت مؤهلاتي التعليمية كلها، ورضيت أن أعمل بأعمال الأصلاحات والبناء، كان يأتي الأردني منكم ليقصدني لأبني له جدار بيته أو أقوم بدهان سور حديقته أو إصلاح زجاج نو افذه، وكنت أؤدي عملي علي أكمل وجه، يوم كامل أقضيه في الحر بلا ماء ولا طعام حتي أنجز العمل، وحينما أفرغ وأذهب إليه لأساله الأجر يقول لي " الله يبارك لك" أقل له " والأجر" يرد علي " الله يبارك لك " طبعا لا أقوي علي الشجار معه والا طردت من البلد.

ضحك مرة أخري في هستيريا وهو يقول :

- ولكني كنت أعود ليلا لأخنق الرجل في فراشه و انا أصرخ في أذنه "الله يبارك لك" "الله يبارك لك".

هنا إرتجف الدم في عروقي، الرجل يبغض بني وطني بغضا عميقا ولديه أسبابه الوجيهة لذلك، الظلم يصنع من الإنسان وحشاً بلا عقل، والقتل لديه و افروجاهز لمن يريد فقدرت أني لن أخرج من هنا حياً، في داخلي شفقة تجاهه فهو كان إنسان عادي ولكن وطأة الظلم عليه حولته إلي ذلك الشخص الشرير، تري هل أحاول الحوار معه أم أن قلبه قد تحجر بلا رجعة، لا أظن أن من أسرف في القتل بهذا الشكل يمكن الحوار معه بأي شكل كان فقررت الصمت و أنا أغمغم بصوت خافت:

- وماذا الآن؟

كنت أتطلع إلي أجابة شافية، ربما كلمة أننا سنتخلص منك أو سنعذبك أو حتي سنطلب فدية، أريد أن أعرف ما أنا مقدم عليه ولكن الرجل نظر لي ملياً بدون أن يتفوه بكلمة قبل أن ينصرف هو ورجاله و أنا اهتف بصوت اعلى:

- وماذا الان؟ .... وماذا الان ؟

لم أسمع لصوتي صدي إجابة فحاولت أن أعتدل في جلستي ولم استطع، كانت القيود التي تحكمت بمعصمي قوية للغاية ولكني قمت بشد أطرافي حتي لانت وأستطالت وأستطعت إخراج نفسي من القيود بعد أن أذت جلدي وجرحته

لحسن الحظ قد نسوا أن ياخذوا هاتفي النقال مني، أسرعت ألوذ بأحد أركان الغرفة و أنا أطلب رقم (رافد) لعدة رنات لم أتلقي منه أي إجابة ، فطلبت (سمير) هو الأخر وفور أن سمعت صوته، اسرعت بلهفة اقول:

- (سمير)، أدركني، انا ...

لم أستطع إكمال عبارتي فقد شعرت بيد قوية تضربني علي رأسي وتملكني الدوار الشديد ور أيت أحد الرجلين اللذان أختطفاني وقد أمسك بالهاتف النقال وحطمه علي الأرض قبل أن يدوس عليه بقدمه عدة مرات حتي يجهز عليه.

قمت بالنهوض وتراجعت للحائط خلفي أحتمي به ولكن الرجل أسرع يعاجلني بلكمات قوية طرحتني ارضاً، لم أكن ضعيف البنية للحد الذي لا يمكنني من رد الضربات له ولكن ماذا لو فرغت منه، كيف سأتغلب على الإثنان الآخران، لربما يطحنون عظامي طحناً، أحيانا الاستسلام للضربات يقيك من ضربات أخري أشد.

لم أستطع المقاومة تحت وطأة اللكمات والركلات فسقطت ارضا و أنا ألتف علي نفسي كجنين في بطن أمه فتركني الرجل و أنصرف وسمعت صوت الباب يغلق علي من الخارج.

تكومت علي الأرض مثل جوال قديم ومرت بي اللحظات بطيئة، أشعر بالدماء تسيل من أماكن عدة بجسدي ورأسي، مع خدر خفيف وصداع يجتاحان جسمي وعقلي، في عقلي دارت أفكار كثيرة متناثرة قبل أن تتنافر ولا أذكر منها شيء واحد.

لم ادري كم سأبقى هنا ولا إن كنت سأخرج من هذه المحنة سليماً أم لا ولكن تمنيت أيا كانت النهاية أن تكون قريبة.

الفصل السابع (عذابات متقطعة)

مرت علي ساعات طويلة، غفت عيناي فيها، كان الظلام حالكاً إلا من بصيص يأتي من بين حين وآخر يبدد الظلمة قبل أن يتلاشى وكأنه مضيف بخيل أثر الحرص والشح علي ضيوفه، كان يومي مرهقاً ولكن رفضت الاستسلام للنوم و أنا اترقب ما الذي سيحدث لاحقاً، حاولت أن أمد يدي لألتقط ما تبقى من اشلاء هاتفي لاجد أنه قد لفظ أنفاسه الأخيرة، لا يستطيع إرسال أو إستقبال أي شيء.

أتعجب من الناس الذين يتعاملون مع الإختطاف برباطة جأش وحنكة وكأنهم خبراء في ذلك، أرى أن الاختطاف تجربة تجعل العقل عاجزاً عن التفكير، تُرى هل أحاول إستكشاف المكان لأجد منفذا للهروب، لا أحبذ ذلك، لقد رأيت وجوههم ولن يسمحوا لي بالخروج حياً علي أي حال.

داعب النعاس عيني وشعرت بأن جسدي يتهاوى فتركت نفسي لهوة السبات العميق تلتهمني

لم أدري كم بقيت نائماً ولكن شعرت بشيء ما يضربني في بطني لاستيقظ، تأوهت بقوة ثم نهضت بسرعة و أنا التفت له، كان الرجل غليظ القلب مرة أخرى، قام بتصويري عدة صور بهاتفه النقال قبل أن يتركني ويرحل.

لا أعرف لم صورني، هل يريد أن يري الصور لشخص ما، ربما يريها لشركتي لطلب فدية، ربما يرسلها لصحيفة أو قناة تليفزيونية، أيا كان الغرض فهو حبيس نفسه فقط.

تناهي إلي مسامعي صوت طرقات خافتة علي الجدار.

هناك من يطرق الجدار في الغرفة المجاورة.

تري من يكون؟

هل هي طرقات عشوائية، لا، إنها تبدو منتظمة لي، هذه طرقات إنسان، بالتأكيد هو مختطف مثلي والا لماذا يطرق الجدار بكل هذا الإصرار؟

قمت بالطرق علي الجدار بدوري وكأنني أعلمه انني قد سمعته، توقف للحظات، ربما ظن أني أحد الخاطفين، عدت لأصمت قبل أن أطرق الجدار بنفس الوتيرة التي كان يفعلها و أنا أقل له:

- هل تسمعني؟

قلتها بصوت خافت فلم اعرف هل سمعها أم لا، رأيت الطرقات تعاود من جديد فقلت بصوت أعلى:

- هل تسمعني؟

أتاني صوته الخافت يقول:

- نعم، من معي؟

- أنا (أنور الرفاعي) و أنت؟

- أنا (يحيى ال .....)

لم اسمع باقي عبارته وشعرت بصوت يأتي من داخل غرفته وكأنه صوت باب حديدي يفتح بغلظة، ساد صمت عميق قبل أن أراه يصرخ في شدة مع أصوات أشياء تتحطم من حوله، لم أفهم ما الذي يحدث له ولكنه بالتأكيد ليس جيداً.

ساد الصمت بعدها لساعات، كان إحساسي بالوقت ينبئني أنه قد مضي علي على الأقل عشرون ساعة هنا في المكان، أشعر بالجوع الشديد وكذلك بعض الرغبة في تناول الماء، تري هل أطلب منهم طعام أم أنتظر أن يفعلوا؟

وهل يفعلون؟!

هل يشعر الخاطف بألم المخطوف؟

لا أظن، أنا لست إبنا لأحد الأثرياء سيعيدونه إلي والده الذي ينتظره في شوق، بالتأكيد لن يرغب أحد بإطعامي وإن كان الشيء الوحيد في إطعامي هو رسالة منهم أنهم سيبقون علي علي قيد الحياة؟

مرت ساعات أخري ثقيلة علي وتداعت كل الذكريات إلي رأسي منذ مولدي حتي هذه اللحظة.

جائني خاطر أن اتضرع إلى الله لكي يخرجني من هذا الموقف ولكني لم اطاوع خاطري ليس لرغبة مني في عدم الخضوع لله ولكن لا أريد أن أكون مثل العبد الذي ينسي مولاه في النعماء ويذكره في الضراء فقط، وفي هذا لمت نفسي أني مقصر في علاقتي بربي وقررت أن أحاول إصلاحها إن خرجت من هنا حيا معافى.

الكثير من الناس حينما يقعون في ضراء أو مشكلة يشرعون في قطع العهود على انفسهم والوعود علي ربهم حتي إذا وصلوا إلي شاطيء النجاة نكثوا على أعقابهم، أما أنا فلن أفعل.

لم أسمع أي طرقات أخرى على الجدار، لربما أصاب الرجل مكروه، ولربما أجهزوا عليه، أو لعل المانع خيرا ويكونوا قد أقتادوه ليطلقوا سراحه، هؤلاء قوم غامضون ولن تعرف لهم مبدأ محدد يسيرون عليه.

مر بي النهار كله والليل، ها قد مرت أكثر من ثلاثون ساعة منذ إختطافي ولا أحد يفكر حتى بالنظر إلي، لا عجب أن الكثيرين يموتون أثناء الاختطاف، لو كنت مصاباً بالسكر الآن لكنت ضحية غيبوبة سكر أكيدة، ولكن في حالتي هذه الموضوع مختلف.

غلب التعب على جوعي وامتننت لذلك فنمت وأنا ازجر بطني عن التلوي مثل حية ترقص علي ضوء اللهب.

أتى اليوم الثاني لإختطافي، ها قد مرت ليلتان كاملتان، شعرت أن داخل معدتي تنين جائع، بخطوات واهنة ذهبت لباب الغرفة أطرق عليه في غير جدوى، لم يأت أحد ليرد علي وكأنهم أختفوا تماماً من المكان برمته.

ترى هل يتركوني هنا أياماً أو أسابيع لأموت جوعاً، يا لها من ميتة مروعة، الأفضل أن يجهزوا علي مرة واحدة بدلاً من ذلك الموت البطيء إن كانوا ينتوون ذلك.

بعد انتصاف ظهيرة اليوم، شعرت بالباب يفتح وأحد الرجال يدخل ليلقي لي رغيفين من الخبز العراقي علي الأرض وينصرف.

اتسخ الخبز لحظة ارتطامه بالأرض ولو كنت أنا في موقف أخر لرفضت مس هذا الطعام بهذه الطريقة المهينة ولكن الشكوى هذه تصح في فندق خمس نجوم وليس علي أرضية مخزن قديم أنت فيه مختطف.

أسرعت إلى الطعام ألتقطه في سرعة، وأنظفه مما علق به قبل أن ألتهمه التهاما ناسياً كل قواعد وبروتوكلات تناول الطعام، سحقا لها وسحقاً للكرامة، انا جائع.

رغماً عني ندت مني دمعة سريعة سرعان ما تلاشت بين شعيرات ذقني التي نمت خلال الساعات الماضية، ما أسوا الذل على الإنسان وخصوصاً بعد عز طويل، لا أدري هل كانت دمعة من ذل أم نتجت عن تأثير الألم الذي أعانيه ولم أجتهد في تفسيرها طويلاً.

أنهيت على الرغيفين، لازلت أشعر بالجوع ولكن على الأقل تبلغت ببعض القوة التي تعينني علي الساعات القادمة.

شعرت بصوت الباب في الغرفة المجاورة يفتح وشيئ ما يلقى بالغرفة، أكاد أسمع صوت إرتطام ذلك الشيء بالأرض، مع صوت أنين خافت يصك مسامعي.

هذا أنين أنثى، هذه أنثى مختطفة في الحجرة التي بجواري، رغماً عنه أنطلق عقلي يفكر بها، تري ما شكلها؟ كم عمرها؟ ما سبب خطفها؟ كيف ستصبر عليه إذا كنت أنا الرجل القوي لا أحتمل، شفقتي عليها أزالت من عندي رهبة الاختطاف وألمه علي نفسي وجسدي، لا تتجلد الا حينما ترى أضعف منك يمر بالموقف ذاته.

أقتربت من الحائط وأنا اطرقه بيدي مثلما فعل الرجل المسكين، حاولت مراراً ولكن لم أسمع لها صوتاً، فقط نشيج وبكاء يقطع نياط القلوب، بعد عدة محاولات أنتبهت هي لطرقاتي فقامت بالطرق هي الأخرى بسرعة وشدة وكأنها تود النفاذ عبر الجدار، المسكينة تحسب أن النجدة على الجانب الأخر ولا تعرف أن من على الضفة الأخري عاجز مثلها.

قلت لها بصوت مرتفع لتسمعه ومنخفض لئلا يسمعه غيرنا:

- مهلاً، مهلاً بهدوء لا تثيري غضبهم.

- أنقذني أرجوك، أريد الرجوع لأهلي.

- ما أسمك؟

- (وسن)

- حسنا يا (وسن) أنا مختطف مثلك ولو خرجت سليماً سأساعدك على الخروج من هنا، أين تسكنين ومع من تعيشين ومن أخاطب لأحررك؟

- أنا من حي الأعظمية، كنت مع أختي بالسوق حينما أختطفوني، إسمي (وسن عبد الله محسن) و....

رأيتها صمتت فجأة مع صوت الباب يفتح من الحجرة التي هي بها، ألصقت أذناي بالحائط وأنا أرهف السمع، بعد دقيقة صمت رأيتها تصرخ صرخة مريعة وصوتها يشق الجدار قائلة:

- حرام عليكم اتركوني، لا تفعلوا هذا.

لم احتاج كثيرا لأخمن ما هم بصدد فعله، إبتعدت عن الحائط و أنا اسير في الغرفة كوحش أسير، الغضب يعتريني ولكني لا اقدر علي فعل شيء، أسرعت ألصق أذني بالحائط مره اخرى لأسمع توسلاتها المستغيثة في يأس وكأنما تسأل صم بكم عمي فهم لا يعقلون:

- بالله عليكم، بحق (محمد) وآل (محمد) اتركوني، لا ، لا ، لا ، حرام، أنا بنت ناس، أنا حافظة القرآن،لا أرجوك ، يرحم والديك، أعتبرني اختك.

أتاني صوت احدهم يقول ببذاءة:

- أختي ليست عاهرة.

تعالى صوت صرخاتها، من صوتها وصوتهم أستطيع أن أتخيل ما الذي يفعلونه بها، الأن وعلى بعد سنتميترات مني ملابسها تنتزع أو تمزق، هناك من يقيدها، هناك أخر يصفعها علي وجهها، الأن يباعدون ما بين ساقيها، الأن هناك من يغتصبها، تعالت صرخاتها أكثر قبل أن تتحول ببطء إلي توجع ثم أنين خافت قبل أن تصمت تماما.

تراجعت و أنا أضع يداي علي فمي، أبكي بحرقة كالأطفال، لا بل أبكي كالنساء طالما لا أستطيع التصرف كرجل، لأبكي لعل دموعي تمسح ما لحق بي الأن من عاروذل وعلى مسمع مني ينتهك شرف فتاة رغماً عنها.

من كثرة غضبي شعرت أن الأرض تميد بي ولكني لم أسقط، فقط أتراجع عن الجدار.

كلما تخيلت أكثر إبتعدت عن جدارها أكثر و أنا أعض على شفتاي حتى أدميتهما ولم تتمالكني قدماي أخيراً فجلست على الأرض ووضعت رأسي بين فخذاي وكأنما اتقوقع على نفسي.

ما الذي فعلته هذه الفتاة حتي يحدث لها هذا، أي أوغاد يفعلون هذا، مرت ساعة ولم أدري هل أنتهوا أم لازالوا يتناوبون عليها، لم أستطع العودة مرة أخري وطرق الجدار، ماذا سأقول لها؟

و أتت علي الليلة الثالثة، في غمرة حزني نسيت أني جائع ، ولكن نداء الطبيعة عاجلني، منذ يومان وأكثرلم اذهب إلي المرحاض، لا يوجد مرحاض هنا في ذلك المكان العفن، توليت إلي ركن ما وفعلتها هناك مثل كلب الشارع وضاعف هذا من إحساسي بالمهانة.

أبشع ما في الإختطاف أنه يكسر روحك وكرامتك، فلا تعود بعده مثلما كنت قبله إطلاقا

شعرت بالراحة قليلا، عدت إلي الجدار المقابل ووضعت أذني، لا أسمع شيئا، هي لا تئن حتى، تري هل حدث لها مكروه، أحتقرت نفسي لسؤالي وهل هناك مكروه علي المرأة أشد من أن ينتزع شرفها، وما المكروه لو لم يكن هذا، لربما كانت تفضل الموت علي أن يلمسها بشر.

ترى هل أتجاسر وأطرق على الجدار وماذا لو جاوبتني ماذا سأقول لها؟

هل أقل لها أنا أسف؟

ترى هل يجدي؟

هل سترد أصلاً؟

لعلها تموت خجلا في ذاتها الأن.

حسنا لن أفعل، لن أطرق الجدار، لأعتبرها ماتت ولتعتبرني كذلك

العالم كله يحول نظره عما يحدث بالعراق.

و أنا واحد من سكان هذا العالم.

لأغض بصري عما يحدث بالغرفة المجاورة فقط.

مرت الأيام كذلك خانقة حزينة، كل يوم ياتي أحدهم ليلقي لي برغيفين خبز لاثالث لهما مع زجاجة مياه لا أكثر ثم يمضي، وبين حين واخر يأتيني صراخ الفتاة من الغرفة المجاورة، مع ضحكات ضباع أوغاد، مرت عشر ليال علي ذلك، حتي أنني رفضت تناول الطعام الذي أرسلوه أخر مرة.

كان الإحباط واليأس يسيطران علي، لأفعل شيئا لأوقف الذي يحدث لتلك المسكينة؟، في غمرة غضبي أثناء إتيانهم إياها أخر مرة، قمت بالإمساك بالكرسي الخشبي لألقية نحو الجدار الفاصل بيني وبينها في عنف ليتحطم إلي قطع صغيرة متناثرة

مرت دقائق توقف خلالها الصوت من طرفهم لينفتح باب الغرفة عندي ويدلف الرجال الثلاثة داخلها غاضبين، أنطلق احدهم يصفعني بقوة والأخر يتلقاني بلكمات عديدة قبل أن أتهاوى تحت أقدامهم وتركلني الأقدام القاسية في كل مكان متاح من جسدي.

أرجو أن أموت الأن.

لماذا الموت عزيز علي و أنا علي أرض الموت الأولى في العالم.

كل شيء هنا رخيص.

الدم رخيص.

والحياة رخيصة.

فلما صارت حياتي غالية.

من الواضح أنهم لا يرغبون في قتلي ولو أرادوا لفعلوا ذلك منذ زمن بعيد، هناك شيئا ما يبقيني علي قيد الحياة لديهم، والإ لما أطعموني أو لقتلوني مره واحدة بدلا من تلك الضربات الموجعة.

فقدت الوعي تحت وطأة ضربات من قدم أحدهم أصابت رأسي، لأفتح عيناي بعد فترة ما، لم أقوي علي الوقوف فزحفت نحو الجدار، هذه المرة طرقته، أريد أن أواسيها وليحدث ما يحدث.

طرقت علي الجدار في وهن، لا أقوى على تحريك يداي من الألم، لم تجاوبني بشيء، ربما تفكر، ربما هي تموت من الحياء والشعور بالعار لما حدث، لا يا أختاه العالم هو الذي يجب أن يشعر بالعار لا أنت، أنت الشريفة ونحن الزناة الأوغاد ولو حبلت بنا شريفات لما صمتنا عن هذا، أرى أن العالم ينظر نحو المغتصبة بشكل مغاير لما ينبغي ان يكون وكأنها ألبست ثوب فضيحة وعار وهي علي العكس تماما قد نالت شهادة رسمية أنها قد قالت لا فأنتزعوا منها ما يريدون عنوة.

بعد مضي ساعات من الطرق إستسلمت وعدت لمكاني ناكث الرأس، في اليومين التاليين لم يقدموا لي أي طعام او شراب وكأنهم يعاقبونني علي ما بدر مني، لا يهم، ليدعوني أموت، فقدت إحساسي بجسدي ولم أعد أستطيع التفكير، مع الوقت بدأت أرى هلاوس من أثر الجوع، أمي وأختي صاروا معي بالمكان وإن كانت أمي قد اخذت رأسي بين صدرها وكأنما تحتوي طفلا رضيعاً وأختي اخذت تفرك يدي مهدئة لي.

مر اليومان ثم فوجئت بالخاطفين يدخلون إلي داخل الغرفة وكبيرهم يشير لي قائلا لهم:

- هيا، كما اتفقنا.

أقتادوني بينهم ولما لاحظوا تخاذلي في المشي نتيجة الإرهاق جروني جراً، وهم يضعون عصابة علي عيني،شعرت بأنهم يخرجوني إلى الخلاء، ترى ماذا سيفعلون بي، هل سيقتلونني، شعرت بهم يلقوني في سيارة ما قبل أن تتحرك

بنا لفترة طويلة، لم أستطع إحتساب الإتجاهات ولا الوقت المستغرق ولكني رأيتهم بعد فترة ينزلوني من السيارة وأحدهم يطلب مني الركوع علي ركبتاي

إذن هذه هي النهاية، سيقتلونني برصاصة خائنة من الخلف، أو ربما يجتز أحدهم رقبتي بسيف أو سكين كما رأيت مسبقا في أفلام القتل المقززة التي انتشرت مؤخراً.

طلبوا مني أن أعد من واحد إلي مائة

قمت بالعد تصاعدياً وصوت أقدامهم يتباعد من حولي، قبل أن أسمع صوت السيارة تولي منصرفة بعيدا عني، لم أكن قد وصلت إلي الخمسين في العد، تري ماذا أفعل الأن، لقد رحلوا، هل أرفع العصابة، ماذا لو كان أحدهم لازال هنا، لا أعرف، الخوف مثل النبات الشيطاني ما إن يزرع في القلوب حتي يصعب إنتزاعه، أكملت العد لمائة ثم بحذر شديد مددت يدي لأنزع العصابة، أتعبني الضوء في البداية و أنا الذي أعتدت الظلام لأسبوعين كاملين.

كان المكان خالياً، كنت بجوار طريق سريع وقد تركوني بمحاذاته، بخطى متهالكة أخذت أسير، لا توجد أي سيارة قادمة من أي طريق، ولا اعرف إلى أين تقودني قدماي، رأيت سيارة نقل قادمة أشرت لها بالتوقف فلم تفعل.

رأيت سيارة اجرة هدئت سرعتها قليلاً ثم لما رأى سائقها جسدي الذي أدمته الجروح ووجهي الذي غيرت ملامحه الكدمات حتى أسرع يولي هارباً.

بعدها بقليل رأيت سيارة عسكرية تقترب، وقفت أمامها و أنا ألوح بكلتا يداي، لم تهمني ان دهستني ام لا ولم يخطر ببالي أنهم قد يشكون بي فيطلقون علي النار ولكن كل ما قررته أنها يجب أن تتوقف، توقفت السيارة بالفعل ونزل منها بعض الجنود شاهرين أسلحتهم طالبين مني الركوع على

ركبتاي ووضع يداي فوق رأسي قبل أن يتقدم كبيرهم وهو ينزع نظارته الشمسية السوداء قبل أن ينظر لي في صرامة.

منظر جراحي وثيابي الممزقة أنبئه بكل شيء، هم بقول شيء ما ولكني لم أسمعه فقد تهاويت تحت قدميه مغشيا علي.

الفصل الثامن (عودة ما كان)

رأيت أمي وقد جلست تطعمني بيدها وتشكو أنني قد أصبحت هزيلاً، ولا أعلم لماذا وجدت أختي وهي تقف تدلك لي قدماي ولم أعهد منها هذا أبداً من قبل، كانت أمي تقل لي في عتاب:

- لا تذهب إلي العراق مرة اخرى

- انا لست في العراق يا أمي.

- لا تكذب علي ، لقد عرفت كل شيء، و أنا أسامحك ولكن لا تذهب مرة اخرى.

- حسنا يا أمي لن اذهب.

- أقسم لي بربك.

- بربي لن اذهب.

شعرت بيد تلمسني لتتلاشي صورة أمي وأختي من حولي وأري طيفاً من نور يسود المكان، أنتبهت أن هذا كان حلماً وأن اليد التي هزتني قد أيقظتني منه، فتحت عيناي ببطء و أنا أتطلع في من حولي في إنهاك.

كان أول ما طالعني وجه (رافد) و إلي جواره (سمير) وهناك شخص ثالث لا أعرفه بدت ملامحه قاسية نوعا ما ثم رأيتها هي، في البداية إبتسمت حينما رأيتها قبل أن تقتضب ملامحي، لم ادري ماذا أقل لها بعد ما حدث، كنت نذلا جداً معها وأظن أنها لن تسامحني، لم تجاوب تقضيبي بأي شيء، كانت تتفحص نبضي في برود قبل أن تشير إليهم قائلة:

- هو بخير، تجاوز مرحلة الخطر ولكن لا ترهقوه بالحديث.

بدون أن تلتفت لي ولت خارجة من المكان وكأنها لا تود الإستطراد أكثر من ذلك.

آه يا (سولين)، هل زرعت نبت الكراهية لي داخل قلبك، يا لي من وغد أثيم.

لم يمهلني (سمير) لأفكاري مع (سولين) فقد أندفع يقترب مني بوجه فرح وهو يقول:

- حمدا لله علي سلامتك يا أستاذ (أنور)

قلت بصوت ضعيف و أنا أتحسس الأسلاك التي تمدني بالتغذية هنا وهناك:

- الله يسلمك يا (سمير) منذ متى و أنا هنا ؟

أجابني الشخص الثالث الذي لا اعرفه:

- ثلاثة أيام يا أستاذ (أنور) أظن أنك بخير الأن ويمكنك التحدث.

لم أفهم من هو وماذا يريد مني فأستدركني هو قائلا وهو يضع راحته علي يدي:

- الرائد (سيف الديلمي) من الشرطة.

خفضت عيناي و أنا اتطلع بنظرة جانبية إلي (رافد) الذي هز رأسه بعلامة أنه يمكنني الأطمئنان فعدت أنظر للرائد و أنا اقول:

- ما الذي تريد معرفته؟

أخرج من سترته دفتراً صغيراً وقلما وهو يقول:

- متي تم أختطافك؟ ومن أين؟ هل ميزت لون أو لوحة السيارة؟ ما شكل مختطفيك؟ هل تميز المكان الذي تم إختطافك به؟

أجبته في سرعة متأففاً:

- مهلاً مهلاً، لا تسألني الأسئلة كلها دفعة واحدة، تم إختطافي من أمام موقع العمل، كانت سيارة ما ولكن لم أميز لوحاتها أو لونها، ربما كانت سيارة زرقاء، الخاطفين كانوا ثلاثة ولست جيداً في الوصف، ربما يمكنني لاحقاً أن

أرسمهم لك بشكل تقريبي، أستطيع الرسم، المكان لا أعرف موقعه ولكنه يبدو كمخزن قديم.

عاد الرائد (سيف) يسأل:

- هل تبادلوا أسماء فيما بينهم،هل كانوا يتحدثون بلهجة عراقية أم لهجات عربية؟

قلت له:

- لم يتبادلوا أي أسماء، وكانت لهجتهم عراقية خالصة.

سألني بسرعة:

- ماذا عن ...

قاطعته في حدة خرجت رغما عني:

- سيادة الرائد الا ترى أنني مرهق ولا طاقة لي بكل هذه الأسئلة، هل يمكن أن نؤجلها لما بعد خروجي من هنا؟

نظر الرائد (سيف) إلي كلا من (رافد) و(سمير) قبل أن يدس الدفتر في معطفه وهو يقول:

- حسناً، نأسف لذلك، حينما تستعيد عافيتك وتصبح مستعداً سنعود لك، شكراً، اتمنى لك عاجل الشفاء.

- شكراً.

غادر المكان دون أن يودعنا وأنا أنظر ل (رافد) وأشير له أن يقترب، كنت اشعر بوجع كبير ولكن حاولت أن أعرف بعض المعلومات عما حدث، قلت له:

- من الذي أحضرني إلي هنا؟

- هناك قوة عسكرية تابعة للجيش قد وجدتك وأحضرتك إلى هنا.

- منذ ثلاثة أيام وأنا هنا،لم اشعر بكل هذا الوقت.

- كانت حالتك صعبة للغاية، تعاني من ضعف شديد وهناك نزيف من عدة اماكن بجسدك، عشرات السجحات والكدمات والرضوض.

- وطبعا من سؤال الر ائد لم يجدوا الخاطفين.

- ولن يجدوهم، الفدية دفعت بالفعل ولن تبحث الشرطة عن خاطفي شخص دفعت فديته ورجع سليماً، القضية شبه منتهية ولكنها الإجراءات، عليه إغلاق أور اقه وإنهائها.

قلت له متعجباً:

- أي فدية، متي دفعت وكيف وكم قيمتها؟

تنهد (ر افد) وهو يقول:

- بعد إختطافك بيومين إتصلوا بالشركة وطلبوا فدية قدرها مائتي ألف دولار والشركة فاوضت معهم لتخفيضها وفي النهاية و افقوا علي مائة ألف دولار، تم وضعها بطريقة ما في مكان يعرفونه.

قلت ل (ر افد) وقد أتضح لي الأمر برمته:

- لهذا السبب تركوني أحيا، كان دافعهم المال فحسب.

صمت (ر افد) قليلاً قبل أن يقول:

- هناك أمر ما سأخبرك به ولكن لا تغضب مني.

لم اكن في حالة صحية تسمح لي بالغضب علي أي حال فقلت له:

- أخبرني وبعدها اقرر أن أغضب أم لا.

- لقد أعدت (هشام) للعمل.

- لماذا؟

- صراحة كنت أشك أنه الذي دبر إختطافك و إنه نفذ إنتقامه فأعدته بعد ثلاثة ايام ولكن لما وجدت أن الأمر لم يتغير ومفاوضات الفدية تعمل بمعزل عنه، تركته يعمل لأني لا أستطيع فصله مجدداً.

- وهل تظن إأني سأو افق، أنا مسؤول المشروع وإأنت فعلت أمراً ليس من صلاحياتك، أنا سأعتبر الأمر كأنه لم يكن.

حار (رافد) ولم يستطع أن يجبني فأدركه (سمير) قائلاً.

- المهم الأن صحتك يا أستاذ (أنور) لتخرج لنا بالسلامة وبعدها ينصلح كل شيء، كل الأخوة قلقون عليك بشدة واليوم سيفرحون حينما يعلمون بأفاقتك.

نظرت ل (رافد) الذي جلس مطرقاً وكأنما ساءته كلماتي قبل أن أقل له

- منذ متى و أنتم هنا؟

- أنا منذ أول يوم و(سمير) جاء منذ مطلع الصباح حتى الآن.

- هذا كثير عليكم، هيا أذهبوا وأستمتعوا بحياتكم، أنتم لديكم أسر تهتمون بها ، أنا سأتكفل بأمر نفسي ولا تقلقوا بشأني، المستشفى هنا أظن أن بها كل شيء.

هم (رافد) بالاعتراض فعدت اكرر بصرامة:

- وهذا أمر نهائي لا يقبل النقاش.

ابتسم (سمير) وهو يشد (رافد) من يده لينهضه وهو يقل لي:

- حسنا، يبدو انك تستعيد صحتك بسرعة، هيا لنذهب يا (رافد) قبل أن يضربنا.

قام (رافد) وهو يربت علي يدي في حنان قبل أن ينصرف مع (سمير) مغادراً، جلست لساعة وحدي أتامل الغرفة من حولي و أتذكر كل ما جرى لي، الآن فقط ذهب الخوف وعاد الأمان، إنه لشعور يساوي كنوز الدنيا كلها.

كانت (سولين) قد جاءت مع الممرضة وهي تقيس لي ضغطي، عجيب هو برودها، لا يمكن أن تكون تتصنع كل هذا الجمود بدون أن تشعر ولو بذرة تعاطف مع ما جرى لي، عجيب أمر النساء، متطرفات في الحب والكره،

إذا أحبتك إحداهن أعطتك نور عينيها وإذا كرهتك حرمتك ماء النجاة في قلب صحراء مترامية.

إنصرفت الممرضة وهمت (سولين) بالانصراف كذلك فأمسكت بمعصمها بقوة و أنا أقول:

- (سولين).

لم تلتفت لي و أنا احاول تبين ما الذي يجول بخاطرها قبل أن أردف:

- أنا آسف.

التفتت لي وهي تحرر معصمها من يدي قائلة وقد ضاقت عيناها قليلاً:

- لم يكن هناك من شيء حتى تعتذر عنه.

- بل كان هناك شيء، ربما ذهب بعضه ولكن بقي منه القليل.

- ما يذهب بعضه يذهب كله.

- (سولين) هل يمكننا أن نكون أصدقاء كما طلبتي من قبل؟

تحركت (سولين) تجاه الباب بدون ان تجيب قبل أن تلتفت وتمنحني نظرة غاضبة وهي تقول:

- لا.

وصفقت الباب من خلفها وكأنها تصفعني على وجهي

***

مرت علي ثلاثة أيام أخرى و أنا بالمستشفى، لم أرى فيها (سولين) ولا مرة، أستبدلت بطبيبة أخرى مسنة تدعى (تفاؤل) وهي إسم على مسمى، حيث كانت تدخل إلي غرفتي فتحادثني وتمازحني وكأنها تعرفني منذ زمن طويل، كانت في الخمسين من عمرها وملامحها أوروبية، هذه نموذج لمسيحي الشرق الذي يتعلقون بأهداب البقاء بالوطن الجريح.

بعد اليوم الثالث لإفاقتي قالت لي (تفاؤل) مبتهجة :

- رغم أننا سنشتاق إليك يا أستاذ (أنور) الا أنني يمكنني أن أصرح لك بالخروج الأن.

مرت تسعة عشر يوماً على إختطافي والأن سأعود للحياة مرة أخرى، لاحظت هي وجومي، كانت تعرف أنه ليس هناك من أحد هنا حولي، فاستدركتني قائلة:

- تم إبلاغ رفاقك بالأمر، سيأتون عما قليل لإنهاء الإجراءات.

همت بالخروج ولكني أستبقيتها بسؤال عابر:

- هل دكتورة (سولين) لا تزال هنا ؟

الفصل التاسع (حيرة في الطريق)

كان أول وجه طالعني لحظة خروجي من المستشفي هو وجه (أبو حيدر) الذي أسرع نحوي يحتضنني في قوة مست جراحي وألمتني ولكني وجدت نفسي رغما عنه أعانقه في حفاوة، من يجرب السجن أو الإختطاف يشعر بعده بولادة جديدة أو بالأحرى بإعادة الإحياء ،أنت أثناء ذلك ميت مفقود إلى أن يطلقوا سراحك.

كان (رافد) قد أحضر لي ملابس نظيفة جديدة تخصني، فتح لي (أبوحيدر) الباب وحاول مساعدتي لكي أجلس، كنت أوشك أن أمازحه بأنني شاب ولم ينل الخطف مني ولكن لسبب ما وجدته حريصا على ذلك، وكان السبب واضحا:

تسعة عشر يوماً من الاختطاف قد شيبتني حرفياً.

تطلعت لنفسي في مرآة غرفتي ووجدت أن الشيب قد غزا أطراف شعري وكأنه حشد لجيش يستعد للهجوم، ترى من ينتصر في النهاية السواد الحالك أم البياض الناصع، العلم يقول أن الغلبة في النهاية للجيش الأبيض، الأن الجيشان فقط في حالة ترقب قبل الإلتحام والمعركة.

لم اعد أستطيع احصاء عدد شعيراتي البيضاء، ربما كانوا مائة أو الفاً، المؤكد أنهم لم يعودوا قلة مندسة الآن، صاروا قطاعاً وجمهوراً عريضاً ولهم مطالب في جمهورية رأسي.

علي أي حال التجربة المريرة لم تنل من شباب رأسي فقط بل نالت من شباب روحي فشعرت أني قد كبرت فجأة، أصبحت أتكلم ببطء و أتحرك ببطء وردود أفعالي أصبحت تحتاج وقتا للتماشي مع المستجدات.

أنطلقت بنا السيارة لا تلوي شيئاً وكلاً من (سمير) و(رافد) معي لا ينفكان يتحدثان، المدينة لم تتغير كثيراً، ليس في تسعة عشر يوماً،كنت أظن خلالها أن النجوم ستسقط والبحار ستنشق، ولكنك تدرك الآن أنه أثناء مأساتك الفردية كان العالم يمشي هادئا وكأنك لست به.

لن يفتقدك أحد.

عند ذكري للفقد، تذكرت أمي وأختي، يا لهولي، لماذا لم أطلب محادثتهم أثناء وجودي بالمستشفى، نسيت في غمرة كل شيء أن أطمئهم علي، لعل القلق قد قتلهم بالفعل الأن لأني لم أتصل كل ذلك الوقت.

أسرعت ألتفت ل (رافد) بسرعة و أنا أقل له:

- ناولني هاتفك الجوال، أريد أن أتواصل مع أهلي بالأردن.

نظر لي (رافد) وهو يقول:

- أهلك في طريقهم إلي (لبنان) يا أستاذ (أنور) لقد قام المكتب الرئيسي في (الدوحة) فور تأكيد إطلاق سراحك وتعافيك بطمئنتهم عليك وحجز رحلة لهم إلي (لبنان)، حتى أنت المكتب الرئيسي يرى أن عليك أن تبقى عدة أيام بعيداً عن العمل حتي تستعيد كامل إتزانك الذهني والنفسي وتقرر إذا ما كنت راغبا بالإستمرار هنا أم لا.

تفأجئت بكلامه، اشعر أني الأن كالطفل الصغير الذي يقررون بالنيابة عنه ما الذي يجب أن يحدث له وكأني عديم الأهلية لإتخاذ القرارات، ولكني سعدت أن اهلي يعرفون الأن أني بخير و أني سألتقيهم قريباً.

وصلت بنا السيارة إلي الفندق، لاحظت جمهرة من الناس ينتظرون على الباب، هناك الشباب العاملون بالبنك وعلي رأسهم (عبد الرحمن) هناك بعض الشباب العاملون بالفندق ومنهم (نعيم) و (ضياء) وأخيراً (لويس).

كان أول من هرع لي يبادرني بالسلام وأحتضنني بقوة هو (لويس) نفسه، احتضنني وهو يبكي، قبلت رأسه الصلعاء أسفاً على أنني قد أسات له قبل أن يحدث ما يحدث، صافحني الباقون في حرارة وتبادلوا معي عبارات ودودة.

شققت طريقي وسط هذه الحفاوة نحو غرفتي، لسبب ما أشتقت إليها، غرفة المرء تعني حياته التقليدية الرتيبة التي بلا صراعات أو شرور، أغتسلت لفترة طويلة وكأني أحاول أن أغسل مع جسدي أركان ذاكرتي من تلك التجربة الرهيبة.

فور أن أنتهيت جلست على أقرب مقعد لي و أنا أتأمل سلة فاكهة أرسلتها لي إدارة الفندق علي سبيل هدية العودة وداعبت بأصابعي تفاحة حمراء من السلة.

كانت تلك التفاحة بمثابة إشتهاء لي طوال فترة الاختطاف مثل حلم جميل، كنت لأدفع أي شيء لأشعر بطعمها، ها هي وأخواتها من الفواكه على قيد أنامل معدودة مني ولا أشعر نحوها بشيء.

نفس الشيء حدث مع (سولين) كانت لي و أقرب ما يكون مني، ثم لما اشتهيتها حقا كانت أبعد لي مما أظن.

كم هي عجيبة طبيعة الأشياء، نفقدها فتحز في نفوسنا ونملكها فلا نكترث لها، تذكرت أني لم أذق القهوة منذ فترة طويلة فقمت بتبديل ملابسي والنزول إلي مقهي (اللارسا) بالفندق طلبا للقهوة.

جلست هناك وسط ترحيب النادل، لم يكن هناك كثيرون، بعد دقائق وجدت (رافد) يأتي لي وقد أحضر لي هاتفاً جوالاً أنيقاً ومعه خط شحن كنت قد طلبته منه، أنهيت تركيبهما بينما أنتظر قهوتي.

كنت أود الأتصال على شركتي وأن أحاول إمساك طرف خيط العمل مرة أخري، أريد أن أعرف أين أنا الأن منهم وما المخطط لي، هل هناك تغيير

بموقعي، هل أطلب أنا التغيير، لست أدري، لابد من حسم ذلك الأمر ووضع النقاط على الحروف.

قمت بتركيب الهاتف وجربت الاتصال، لم اكن أحفظ أي أرقام بذاكرتي سوى رقم أختي، سجلته أول واحد وقررت الاتصال بها فيما بعد، ساعدني الأنترنت على الاتصال بمديري في (الدوحة) عن طريق برنامج سكايب المعروف.

في البداية كان ودوداً وهو يسألني عن صحتي وكيف أبلي الآن ولكنه بدا قلقاً بعد ذلك فعاجلته قائلاً:

- مبدئيا شكراً على دفع الفدية ولو أنها كبيرة بالمقارنة بميزانية التأمين علي العاملين لديكم، وشكر آخر على اللافتة الكريمة فيما يخص أمي وأختي.

هز رأسه في رفق قائلاً.

- لا شكر على واجب، الأمر الاول كان يجب فعله وسنفعله مع أي شخص من طرفنا بالموقع أما بالنسبة للأمر الثاني فلا يستحق الثناء، هما تحتاجان للاطمئنان عليك بعد كل هذا القلق والتوتر الذي مرتا به.

- متي عرفوا أنني قد أختفيت؟

- بعد أسبوع من عدم تواصلك معهم وبعد أن فشلوا في الاتصال بك عبر هاتفك، قامت أختك بإخبار والدتك بأمر العراق وسفرك لها وكذلك قاموا بالاتصال بنا هنا في المركز الرئيسي وأخبرناهم بالأمر، لا داع لذكر كمية الهستريا التي حدثت منهما، السؤال الأن ما الذي تخطط فعله؟

- لا اعرف بعد، هل تتوقع مني شيئاً مختلفاً.

- في المعتاد بعد تجربة كهذه يفضل بعضهم ترك العمل أو أخذ إجازة طويلة، لا اعرف بالنسبة لك، لكن نخاف أن تعود مباشرة للعمل ثم تكون غير مستعد فتحدث أخطاء، انت تتفهمني طبعاً.

- تمام التفهم، لا تقلق، عرفت ان موعد سفري إلى (لبنان) غداً وسيكون هناك متسع من الوقت لأفكر في قراري الأخير بالنسبة للعمل هنا.

- لا أريد أن أضغط عليك ولكن لو أحببت العودة لمنصبك القديم هنا فهو متاح، لا تقلق.

- أشكرك، دعني بضعة أيام وسأخبرك بالنتيجة.

كانت قهوتي قد أتت خلال المحادثة ومالت للبرود، أرتشفتها في تلذذ، هنا رأيت (لويس) يمر إلي جانبي ويلقي التحية، أشرت له أن يقترب:

أقترب مني علي إستحياء وهو يقف إلي جانبي مبتسما، أمسكت بيده في مودة خالصة و انا اقل له بود خالص من قلبي:

- قص علي نهاية قصة (عشتار) و(جلجامش).

الفصل العاشر (ليالي لبنان)

هبطت الطائرة بي في مطار (بيروت) كنت أشعر بالسعادة والقلق في آن واحد، السعادة أنني سأرى أمي وأختي والقلق من ردة فعل أمي أنني قد كذبت عليها بخصوص تواجدي في (بغداد)، كيف سأنظر في عينيها، كيف سأتطلع لها؟

كان الفندق الذي تم الحجز لي فيه هو فندق (فينيسا) وهو من أعرق فنادق (بيروت) ما إن دلفت إلي ردهة الفندق حتي وجدت أمي وأختي هناك ينتظران وعيناهما معلقتان بالباب.

أسرعت أمي رغم سنوات عمرها العديدة تعدو نحوي كشابة في العشرين وأشفقت عليها، فأنطلقت أعدو نحوها، لم يحتمل جسدها هذا النشاط المفاجيء فكادت تسقط قبل أن تصل لي بمتر واحد فأسرعت و أنا أنحني لاحتملها على صدري، قبلت كل جزء وصلت إليه شفتاها من رأسي ورقبتي قبل أن تجهش في بكاء حار.

أتت اختي كذلك وأحتضنتني من الخلف، حتي شعرت أني عدت جنينا داخل رحم بشري ، وأي رحم، أحن إثنتان علي على وجه الأرض.

أسرعت أنحني لأقبّل رأس أمي ثم يدها فقبلت يدي بعفوية هي الأخرى وسرعان ما جلسنا في بهو الفندق في انتظار إجراءات التسكين الخاصة بي.

صمتت أمي وهي تحتضن يدي، لم تقل شيئاً، ولكن عيناها كانتا أبلغ من الف رسالة، قالت بعيناها:

- أهكذا يا (أنور) تهن عليك أمك فتروع قلبها وتتسبب بنزول دموعها عليك؟

أجبتها بعيناي:

- غفرانك يا أمي، عذرا أني كذبت عليك، وكان عقابي ما حدث، المهم أنك بخير.

- أنا بخير طالما أنت بخير يا بني.

دار هذا الحديث بيننا بالعيون فقط، قبل أن تقول أختي (علياء):

- حمدا لله علي سلامتك يا أخي، أشتقنا لك كثيرا.

إبتسمت و أنا أقول لها:

- شوقي لك كمثل البحر يا أختي، كيف حالك وحال زوجك والأولاد؟

- كلهم بخير، كنت أود أحضارهم معي ولكن أنت تعلم أن الأولاد مشغولون بالدراسة وإجازتنا هنا قصيرة، لقد وصلنا بالأمس ليلاً وأظن أننا سنغادر سوياً غداً أو بعد غد.

نظرت لي أمي وقالت:

- ستعود معنا، أليس كذلك؟

هززت راسي ولم أجب و أنا أضغط علي يدها قائلاً:

- لا داع للحديث الآن، حيث أنكم هنا يجب أن نرى (بيروت)، هي جميلة جداً وتستحق الزيارة.

أحست أمي اني أتهرب من الإجابة فعدلت وجهي ناحيتها وهي تقول:

- (أنور) لن أرضى عنك لو عدت للعراق مرة اخرى، يكفينا ما جري، والحمد لله علي عودتك.

قبلت يدها و أنا أقول لها مهدئاً:

- دعي مناقشة أمر هذا لما بعد يا أمي، الأن أنا مشتاق للضحك والخروج والطعام، بالمناسبة هل جربتم طعام الفندق؟ هل هو جيد؟

قالت (علياء) ضاحكة :

- طعام الفنادق لا يسمن ولا يغني من جوع، أمك أصرت علي أن تطهو بنفسها بعض الطعام لك.

ضحكت أنا وقمت احتضن أمي محاولاً أن أشتت تفكيرها عما يدور في رأسي وما أخطط له، قضينا يومان من أروع أيام حياتي في (بيروت)، لم أنشغل فيهما بالتفكير بشيء، حرصت على شراء هدايا كذلك من هنا لأرسلها لأبناء (علياء) وزوجها الذي ولا شك هو متضايق الآن بشدة لكونه مطالب بالاهتمام بالبيت لوحده.

نظمت رحلة سياحية لأمي لرؤية اماكن كثيرة ب(لبنان) منها مغارة (جعيتا) وكنيسة سيدة النجاة وصخرة الروشة وغيرها من الأماكن الساحرة، على أن كل هذا لم يمنع أمي أن تغمرني بنظرات بين حين وآخر تحمل سؤالاً واحداً:

" هل أعود إلي (بغداد) أم لا؟"

والحقيقة أني نفسي لم أكن أعرف إجابة هذا السؤال، أي شخص غيري مر بهذه التجربة العنيفة في أول شهور تواجده ب (بغداد) ومع تو افر عرض له بالعودة كان ليترك (بغداد) بناسها ومشاكلها ويبادر بالعودة فورا.

فلماذا اذن لا أتخذ ذلك القرار؟

لن يقول عني أحد أني جبان؟

وحتى لو قالوا فالأمر لا يعنيني حقاً.

ولكن أنا نفسي قدمت إلى (بغداد) لهدف قهر الخوف، وهو ما لم يحدث، لو أنسحبت الأن وبهذه البساطة فسأعيش كل عمري بعد ذلك مع الخوف، سأخاف من كل شيء، الموت والرزق والمجهول والمستقبل وحتى الشيب الذي يلاحقني.

في أحد الأفلام الحديثة التي شاهدتها كانت تسمي (فتي الكاراتيه) كان الصبي الأسود قد تعلم الكاراتيه حتي يضرب الصبيان الذين يضايقونه ونجح في الفوز عليهم بعدة مباريات رسمية فعلا ولما طلب منه مدربه التوقف طالما أنه قد أوصل رسالته قال كلمته الشهيرة:

- لا أستطيع التوقف الأن والا هزمني الخوف مرة أخرى.

أنا أيضا لا أستطيع التوقف الآن، ما كنت أخاف منه قد حدث فعلاً، رأيت المجهول وشهدت الموت قرب عيني وسمعت عن الفظائع وأختبرتها فما الجديد الذي علي خوفه؟

لذا حسمت أمري وقررت العودة إلي (بغداد) وإستكمال ما بدأته هناك وكان علي الأن مواجهة خوف جديد.

الخوف من ردة فعل أمي.

والحقيقة أن ردة فعلها حينما أخبرتها كانت قاسية جدا، صرخت في وجهي وهي تتهمني بالجنون و أنني لا أحبها ولا اطيعها وأخذت تشير إلى شعري الذي شاب في (بغداد) وهي التي تعمدت ألا تثير هذه النقطة من أول لقائها بي حتي لحظة إخباري لها بقراري وهددت بانها ستمتنع عن الطعام حتي اتراجع عن قراري.

حاولت تهدئة روعها ومخاوفها دون جدوى، كنت أعلم قلقها ولذا باغتها بسلاحي الأخير أمام غضب أي أنثي وبالذات الأمهات، فقط أحتضنتها.

أحتضنتها في حنان و أنا أمسح علي رأسها و أنا اقول لها:

- نجاني الله ببركة دعائك مرة وسينجيني كل مرة طالما تستمرين في الدعاء، أم أنك ستتوقفين عن دعائك لي؟

قال لي وهي تضع يديها علي كتفاي وتنظر بعينين شبه دامعتان:

- أبداً لن يفتر لساني أبدا عن الدعاء لك يا (أنور).

- حسنا ما دام لسانك لا يفتر ودعاء الأم علي ابنها ولإبنها مستجاب، إذن لا تخافي من شيء.

لم تملك أمي إزاء عنادي سوي أن تستسلم وبعدها بساعات وجدت نفسي أودعهم في مطار (بيروت) وأمي تقبلني ألف قبلة علي رأسي وجبيني وكأنها تحاول أن تختزن أكبر مخزون مني قبل أن تمضي متثاقلة الخطى.

تري هل تشعر أنها أخر مرة تقابلني بها؟

أم تحتفظ برصيد حتي نلتقي مرة أخرى؟

هي وحدها تملك الإجابة ، أما أنا فقررت العودة إلي (بغداد) مرة أخرى في أول طائرة وجدتها متاحة بعد ذلك و أنا ألقي نظرة وداع علي (بيروت) الجميلة قبل أن تذوب الرؤية عن عيني لتصبح أثراً بعد عين.

الفصل الحادي عشر (ذاكرة خائنة)

حينما هبطت بي الطائرة في (بغداد) للمرة الثانية لم أكن متهيباً مثل المرة الأولى فأنا قد اختبرت أسوأ ما فيها وأعلم ما أنا مقدم عليه، كانت رؤية أمي وأختي قد أمدتني بالحيوية والطاقة لإستكمال ما بدأته هنا، طالعني وجه (أبو حيدر) الطيب كالمعتاد وهو يستقبلني في ساحة (عباس بن فرناس) استلم مني حقيبتي الصغيرة وهو يضعها في خلفية السيارة قبل أن أجلس إلى جواره وهو يبتدرني قائلاً :

- كيف كان سفرك؟ لعله سعيد؟

- الحمد لله، رأيت الأهل ورأوني وتعافيت تماماً.

- الحمد لله، هل نتوجه الي الفندق؟

- وهل لدينا غيره؟، هيا بنا نتوجه إلي هناك فوراً.

كان الأصدقاء الأردنيون قد أعدوا لي سهرة ممتعة ودعوني لها ولكن لسبب ما لم ألبي دعوتهم، وإن كنت قد طلبت منهم أن نسهر حول حمام السباحة الموجود بالفندق ونتناول عشاء ظريف.

كنت أكره خروجاتهم الصاخبة وما يصاحبها من مجون وأعجب كيف لإنسان أن يرمي بنفسه لكل هذه الشهوات وهو علي حافة الموت، ولكنها حبائل الشيطان التي يوقع بها العباد حيث يوهمهم بإمكانية التوبة قبل فوات الأوان.

كنت أحاول إستجماع شتات نفسي وأن أقرر كيف ستكون عودتي للعمل، حينما حضرت أول مرة كانت بدايتي قوية وتركت أثراً ايجابياً على العمل، لا أستطيع أن أعود لهم بعودة باهتة ضعيفة وإلا ضاع كل ما بنيته كما أن ذلك يعني أني قد أنهزمت بالفعل.

أبشع الهزائم التي قد يتلقاها المرء في حياته هي أن تهزمه مخاوفه وأوهامه ولذا قررت أن أطلب من الله المدد، لقد زالت الضراء وأتت السراء وصلاتي له الأن لن تكون نفاقاً ولا إرغاماً، بل تقرباً وعرفاناً.

توضأت وكأني اغتسل علي نهر بالجنة ثم دخلت في ركعتين، إنحنيت فوقع مني خوفي وسجدت فسقط مني حزني وأعتدلت فلبست تاج الطمأنينة وأنتصبت فكسيت ثوب السكينة وحينما القيت السلام في نهاية صلاتي جاوبني الأمل بأنه لدي فرصة جديدة.

دخلت صلاتي وأنا منكسر، مبعثر الروح وخرجت منها وأنا مجبور الكيان مستعدا لما هو آت.

في الصباح التالي وجدت (لويس) يشرف علي الإفطار صباحاً وما أن رآني حتي أتى لي بوردة حمراء ووضعها على مائدتي قائلاً:

- صباح الإشراق يا أستاذ (أنور).

- كيف حالك يا (لويس)؟

- بخير، طمئني عنك، كيف صرت الآن؟

- بخيروعلى أحسن حال.

- الحمد لله.

- أين (ضياء) كنت قد تعودت علي رؤيته بالصباح.

- هو في إجازة، اليوم ذهب لإستكمال بعض المعاملات الخاصة بأولاده، هم يذهبون للمدارس وهو يود نقلهم إلي مدارس أخرى قريبة من مسكنة الجديد.

- وأنت هل لديك أولاد؟

- لا أنا غير متزوج، لا أظن أن المرء ستأتيه شهية للزواج في هذا البلد، أي زوجة تحتاج إلي رجل يحميها وأي اولاد يحتاجون إلي والد يؤمنهم و أنا ضعيف كما ترى.

- أنت تهون من شأن نفسك يا (لويس) أنت قوي وحتى لو لم تكن قوي بنفسك، فالكل هنا يحبك وستكون قوياً بهم.

ضحك وهو يقول:

- صدقت القول، الكل هنا يحبني

ثم مال نحوي بغتة وهو يقول:

- هل تصدق أن من كثرة حبهم لي كانوا يدعونني إلي الإسلام، يقولون لي يا (لويس) أنت طيب وخسارة تحسب من المسيحيين ولكن بربك إن تحولت للإسلام علي أي ملة أكون؟، سني أم شيعي؟، في بلد مثل العراق الحياد أفضل شيء و أنا سعيد كما أنا رغم يقيني بعظمة الإسلام.

تراجع وهو يحتفظ بنفس إبتسامته المعهودة وأطرقت أنا أنظر للأرض، لديه حق، علي أي ملة ينوي الدخول للإسلام في بلد تمزقه الطائفية هكذا، هو الآن يحبه الطرفين ولو إنحاز لأحدهما لخسر تأييد وحماية الطرف الآخر والمظلوم الأول والأخير هنا هو الإسلام كدين سماوي نزل موحداً من عند الله وأخطأ في تفسيره بعض البشر.

إستأذن مني في الانصراف لخدمة ضيوف آخرين وشربت أنا قهوتي بسرعة و أنا أرتدي سترتي لأسرع إلي (أبو حيدر) الذي ينتظرني منذ فترة.

فور أن وصلت إلي العمل رأيت العيون كلها تتابعني من بعيد، نفس النظرات التي تتابع لاعب الكرة العجوز ويتسائلون في قرارة أنفسهم هل سيكون هذا يوم اعتزاله أو تمديد لبطولته سنوات للأمام، نفس نظراتك لطفلك الذي يحبو، هل سيقف أم سيكبو؟.

مشيت منتصب القامة، لم أبتسم ولم أعبس، فقط أظهرت الحماس و أنا أسير تحت مسرى العيون الفاحصة وبين فترة وأخرى أتوقف و أنا اشير إلي أحد العمال بإصلاح شيء ما.

أنا لم أنكسر.

ولن أنكسر.

وصلت رسالتي للجميع فعادوا إلي عملهم وسارع المديرين بالتوجه نحوي ومصافحتي و أنا أشكرهم بهدوء وفي خضم كل ذلك رأيت (هشام) من بعيد.

تلاقت عيناانا وكأنها تحدٍ.

كنت أتمني أن يبتسم.

لو فقط فعلها لعرفت أنه الفاعل وراء ما حدث لي.

ولكنه لم يفعل.

ولم يخجل كذلك أو يحني رأسه إستحياءً.

فقط نظر لي في عدم إكتراث مع لمحة من التحدي وهنا أدركت أنه لم يكن وراء ذلك الحادث، ولكن هذا لا يمنع من أن عودته خطأ ويجب ألا يترك هكذا.

دخلت إلي مكتبي وقمت بإستدعاء (رافد) الذي جاء علي عجل وهو يقول:

- أشرقت شمسك يا أستاذ (أنور)

إبتسمت رغماً عني و أنا أقل له:

- دعك من نشيد التملق هذا فلن يعفيك من غضبي.

تلاشت إبتسامته وهو يجلس قائلاً في بطء:

- هل الأمر بخصوص (هشام) مرة أخرى؟

- نعم، لا يمكن أن يستمر، لقد اتخذت إجراءا فردياً بدون موافقتي والآن ومع كامل احترامي لك، إما أن تصرفه من العمل والا سأصرفك أنا من العمل.

أطرق (رافد) برأسه في الأرض في ضيق، نعم شعرت أني قاسي القلب ولكن موقع العمل وحساسية منصبي تقتضي مني ذلك وأي تهاون بعد عودتي سيفسر أن الإختطاف قد نال مني، ازدرد (رافد) لعابه قبل أن ينظر لي بعين كسيرة وهو يقول:

- اذن سأستقيل أنا من العمل.

فوجئت بإجابته، كنت أتوقع ان يتراجع أو يحاول اقناعي بمنطقه ولكنه آثر الإنسحاب من المشهد، لربما شعر بالجرح والإهانة وخصوصا بعد ما قدمه للشركة ولي من خدمات، حدثتني نفسي أن أتهاون في الامر وأدعه يمر مرور الكرام ولكني لم اشعر أن هذا قرار صائب فقلت له:

- حسناً، يمكنك الاستقالة لو هذا يحفظ ماء وجه الجميع هو وأنت وأنا.

إنصرف (رافد) من عندي وأنا اشعر بالأسي تجاهه، موقفه هذا يذكرني بصراع الحق والباطل، عادة المساكين والطيبون يطحنون في المنتصف و(رافد) من النوع المسكين الذي لا قبل له بالمشاكل والنزاعات فيؤثر الهروب عوضا عن المواجهة.

لم أدع الأمر يعطل بدايتي القوية فأنشغلت بمتابعة التقارير الكثيرة علي مكتبي، لاحظت أن الكثير من التقارير إما مفقودة أو ناقصة في الفترة التي كان فيها غيابي، الأمر يحتاج إلي تنظيم، ربما أقوم بتعيين سكرتيرة تنفذية لي وللمشروع، أمسكت دفتر ملحوظاتي وسجلت فيه (أريد فتاة للعمل ب ..) لم اكمل باقي عبارتي وتوقفت فجأة وانا اهتف في نفسي: "الفتاة"

رباه، كيف نسيتها في خضم كل هذا، تلك المسكينة البريئة، لقد تعافيت وخرجت من محنتي وحتي أنني سافرت وعبرت فترة نقاهتي وكأنما حذفت من عقلي تماماً، ترى هل هذا هو النسيان المدفوع حينما يجبرك عقلك على نسيان أشياء بعينها، أو أحداث بعينها، أتراني كنت شاعراً بالذنب تجاهها فعمد عقلي إلي محو ذكراها وما حدث لها للأبد من أحداث الذاكرة؟.

تري ماذا كان اسمها.

(وسن عبد الله محسن) وكانت من حي .. نعم تذكرت هي من حي (الأعظمية) يجب علي أن أبلغ الشرطة بما لدي فوراً أو أبحث عن أهلها بسرعة لاخبرهم بموقفها ومحنتها.

أسرعت اتصل ب(رافد) رغما عني الذي أتي رغم ما فيه من ضيق وانكسار وهو يقول:

- خيرا يا أستاذ (أنور)؟

- أريد الذهاب إلي مخفر الشرطة فوراً ، يجب علي تقديم بلاغ ضروري.

أسرع يتحرك معي دون أن يعرف حتى ماهية هذا البلاغ، (رافد) طيب القلب حقاً، ربما هو مدير ضعيف ولكنه صديق مخلص للغاية وإنسان فوق كل شيء، حينما توجهنا لمركز شرطة الأعظمية كما طلبت منه، أسرعت أجلس أمام أحد الضباط وأنا اطلب منه تسجيل بلاغ او فتح محضر قضية.

نظر لي في ريبة نوعا ما وهو يقول:

- بلاغ بخصوص ماذا؟

- لقد كنت مختطفا منذ عدة أيام لدي عصابة ما وكان معي بنفس مكان الإختطاف فتاة، تعرضت للإغتصاب والإيذاء، أريد أن أبلغ عن هذه لربما هناك أهل يبحثون عنها وربما يمكنكم إنقاذها.

بدا مهتماً لسماع ما لدي فأخذ ورقة وقلما وطفق يسجل مردداً:

- فتاة، حسنا أكمل .. أكمل ؟ هل تعرف ما أسمها وما أوصافها؟

- لا لم أراها، كانت في الغرفة المجاورة لمكان إحتجازي، سمعت صوتها فقط وأعرف بياناتها كما أخبرتني، هي من منطقة الأعظمية هنا ولذلك توجهت لكم ، وأسمها (وسن عبد الله محسن)

أخذ يكتب ور ائي في بطء (وسن عبد الله...) قبل أن تتوقف يداه وهو ينظر لي في حزن قائلا:

- لا داع للبلاغ يا سيد (أنور) لقد عادت.

تنفست الصعداء و أنا أقل له:

- الحمد لله، هل هي بخير الأن؟

تراجع ليرتخي علي ظهر مقعده وهو يداعب القلم ببطء قائلاً:

- هي بخير في المكان التي هي به.

شعرت أن في كلامه ما يريب فقلت له:

- ماذا تقصد؟

- أقصد الله يرحمها، عند رب كريم.

لم أصدق أذناي ونظرت له وكأني أطلب منه أن يعيدها علي ولكن نظر اته كررت نفس ما قاله.

المسكينة، لقد ماتت، قتلها الأوغاد، قتلوها حية في شرفها ثم أستلبوها الانفاس بعد ذلك، قلت له:

- هل لي ان اعرف ما الذي حدث، لقد كانت حية حتي فترة قريبة، هل قتلوها بعدما أطلقوا سراحي؟ هل عثرتم علي جثتها؟

أوقفني الضابط باشارة من يده وهو يقول:

- مهلا يا سيد (أنور) هي قتلت نعم ولكن ليس علي يد من أختطفوها، لقد قتلها أخوتها.

رددت خلفه مصعوقاً:

- أخوتها ، كيف هذا ولماذا؟

أمسك (رافد) بيدي وكأنما يهدأ من روعي، وطلب مني الضابط أن أمهله ليتم حديثه قائلاً.

- كان خاطفوها قد ألقوها في أحدي الطرقات قرب منزلها منذ بضعة أيام وعادت إلي أهلها وهي شبه مشوهة، جسدها ما به جزء إلا وبه جرح أو كدمة، مسكينة لقد عانت كثيرا ولكن أخوتها شعروا أن شرفهم قد ضاع، كيف تسمح أختهم لشباب بالتمكن من جسدها، لماذا عادت لهم، لماذا لم تقتل نفسها، فكان أن قاموا عليها الثلاثة جميعا وأنهالوا عليها ضربا بادوات حادة حتي فاضت روحها وهم الأن رهن الاعتقال والتحقيق.

شعرت أن الأرض تكاد تميد بي، أين نحن وفي أي بلد وعلي أي دين، بل قل أي جنس من المخلوقات نحن؟

ثلاثة أخوة يتحركون للشرف فيقتلون الضحية ويتركون الجلاد، أي شرف هنا، إن كان هذا هو الشرف فيا مرحباً بالعار مدى الحياة، كيف تطاوع الأخ يداه أن تقتل أخته بدلاً من أن يمسح دمعتها ويستر ضعفها، أي وحوش صنعها الزمن فيما بيننا؟

قمت دون أن أودع الضابط حتى و أنا امشي مثل المذهول، هناك دمعة تفر لتهرب من عيني ولكني أمرتها بالتراجع حتى حين.

لو أنني فقط تذكرت الأمر فور خروجي من مكان الإحتجاز أو حتى من المستشفي لربما كان قد أنقذوها وظلت حية الآن، أو حتي لو أن أهلها رفضوها وتركوها للشارع لظلت حية، لو لجأت إلي لظلت حية.

جاشت في نفسي رياح الغضب والسخط، أشعر أننا علي كوكب آخر ليس به بشر،نعم هذه وجوه وعيون وشفاه وآذان ولكن ليس هذا خلق الإنسان، هذه مسوخ تمشي وتضحك وترقص وتصفق ولكن لم تعد من بين بني البشر.

أسرعت أركب السيارة إلي جوار (رافد) الذي ظل واجماً دون أن يقطع علي صمتي حتي وصلنا إلي مكان العمل، دخلت مكتبي وأغلقته خلفي وهناك تركت لدموعي العنان.

الآن تليق علي الدموع وتشرفني.

فأنا لم أكن رجلاً مع تلك الفتاة ولا أخوتها كانوا رجال، ولا أظن أنه بالعراق بعد الآن رجال.

الفصل الثاني عشر (زمن)

مرت علي أيام عديدة منذ علمت بحادثة تلك الفتاة (وسن) وكانت من أسوأ أيام حياتي، كنت أدفن نفسي بالعمل وكأنني آله، أتحرك كآلة و أتكلم كآلة وكآنني أحاول انتزاع المشاعر من أعماقي، ولكنّي كلما خلوت بنفسي أتذكرها، حاولت بشكل ما الوصول إلي بيتها ومقابلة والديها ولكني لم أوفق قبل أن يشفق علي أحد قاطني الحي الذي كانت تقيم فيه ويرشدني إلي المكان الذي دفنت فيه.

توجهت إلي قبرها، لا شيء يميزه سوي حجر قديم علي شكل طير، وكأن طيراً حقيقيا بالفعل قد هبط وتحجر علي قلبها.

لهذا الحجر أحن عليها مما لاقته علي يد أعدائها وذويها في وقت واحد، قرأت جزءً من القرآن علي قبرها وتعاهدت نفسي أني سأقوم لها بعمرة في البيت الحرام إن قدرلي الذهاب للأراضي المقدسة يوماً ما.

تعلقت بها بعد موتها وإن لم أعرف شكلها وإن كان عقلي مزج بين عدة فتيات ليخرج لي بصورة لفتاة تلبس الأبيض وتبتسم في خجل وعلي خديها دمعتان خفيفتان.

تلك الدمعتان رسالة إلي الإنسانية.

أنا حزينة بسببكم.

أين أنتم بينما كنت أُنتهك وتسال دماء عذريتي وشرفي على مذبح الطغيان.

خففت زيارتي لقبرها من عناء قلبي فعدت ألين شيئاً فشيئاً وأحتفظت بها في ركن عزيز من ذاكرة القلب وإن كان العقل بدأ يتناساها شيئاً فشيئاً.

كنت قد أوعزت الى (رافد) أني أُريد بديلاً له وكمحاولة مني للتهوين على نفسه مما رآه مني حادثت أصدقائي الأردنيين العاملين بالبنك وحصل على وظيفة أفضل هناك وما هي إلا أيام وينتقل، جاء لي (رافد) بعدة أشخاص وقورين للعمل ولكني رفضتهم جميعاً.

كانوا جميعاً من جيل قديم لا زال يؤمن بشكل المنظومة الإدارية العتيقة، مشكلة العراق ولازالت أن تطوره وقف منذ سنة غزو الكويت، بعدها الزمن تجمد بكل شيء، تراجع حتي في مستويات التعليم والصحة والأمان وغيرها.

العراق الذي كانت مستوى الأمية به بالثمانينات هي صفروكان مستوى التعليم يحاكي الدول الاسكندنافية صار مرتعاً للجهل.

قديماً قالوا القاهرة تكتب ولبنان يطبع والعراق يقرأ، الأن القُرّاء في العراق صاروا معدودين وسوق الكتاب راكد.

الفن والأدب والاقتصاد وكل شيء ذهب وبقت منه شذرات فقط هنا وهناك، وكان هؤلاء العجائز من ميراث النظام البائد الذي لم يتطور.

كلهم يحدثوني عن منظومة إدارية فيها صادر ووارد ودفتر ملاحظات وأمر إداري، لا أحد منهم كلمني عن خطط التدريب والتطوير وتحسين الأداء، لا يعرف معظمهم كيف يتعامل مع التكنولوجيا أو مستحدثات العصر، حتى طريقتهم في الحياة عتيقة.

شعر (رافد) بأنه قد أسقط في يده فقال لي:

- كل الرجال الذين لدي كذلك، ما الذي تريده بالضبط؟

- أريد شخصا مثلك ولكن ليس أنت ولو لم تجد رجلاً يمكنك البحث عن إمراة، الأمر عادي بالنسبة لي.

وهنا جاءت (زمن).

والحق أن من أسماها بهذا الأسم قد وفق توفيقاً شديداً في ذلك، فالناس كلهم لحظات وهي لوحدها زمن بأكمله، يكفيك أن تتطلع لها حتى تسرقك ملامحها السنين ولو تحدثت معها مرت بك عصور وقرون دون أن تشعر بملل أو سأم.

يقول بعض الناس أن الرجل ليحضن زوجته في الجنة أربعين عاماً فلا يحس بمرورهن، هي من هذا النوع ولذا أستحقت أسم زمن عن حق.

كان (رافد) قد أحضرها بناء علي تزكية من أحد أصدقائه للعمل بوظيفة مدير الموارد البشرية بالمشروع وجاءت هي ما بين الحماس والقلق لتحمل أعباء تلك الوظيفة، جلست أمامي مرتبكة قليلا قبل أن أشرع في سؤالها وقد أستشففت ما تشعر به:

- هل تشعرين بالتوتر؟

- نوعاً ما.

- لماذا؟! حسبما فهمت من سيرتك الذاتية أنك كنت مديرة موارد بشرية بشركة طيران محلية هنا، ولديك شهادة جامعية في هذا التخصص من جامعة فرنسية شهيرة فما المشكلة؟

- ربما لأن هذه شركة بناء وإنشاءات وأنا لم اعمل في تلك البيئة من قبل، أنت تدرك ذلك، كل هؤلاء العمال وخشونتهم في التعامل.

- لا عليك، يجب علي كل إنسان أن يختبر الأشياء للمرة الأولي، أعتبري أنك تغيرين نوع السيارة، ربما تكون السيارة الأخرى من طراز مختلف وربما بمواصفات مختلفة ولكن السائق الماهر سرعان ما يتكيف مع ذلك التغير بسهولة ويسر بل ويصبح خبيرا بذلك.

لانت ملامحها فأشرقت الشمس من عينها ولاح علي خديها قمر جميل قبل أن تقول:

- شكراً لك، لقد أرحت أعصابي كثيراً.

إبتسمت رغما عني قبل أن أعود إلي جديتي وأسألها أن تعرفني بنفسها قائلاً:

- بعيدا عن سيرتك الذاتية المكتوبة بعناية، هل لي أن أعرف من أنت؟

أعتدلت في جلستها قبل أن تقول:

- اسمي (زمن علاء) من مواليد عام ألف وثمانمائة وستة وثمانون، خريجة جامعة مونبليه بتخصص إدارة الموارد البشرية قبل أن أعمل في فندق روتانا أربيل بوظيفة منسقة موارد بشرية ثم إنتقلت للعمل ببغداد كمديرة موارد بشرية بشركة طيران سما بغداد، أدرس حاليا ماجستير في إدارة الاعمال مع جامعة كارديف البريطانية.

لم اهتم كثيرا بما قالته لأنني رغماً عني وبشكل غريزي أخذت أتأمل ملامحها، يخطئ من يظنني شهوانيا وأن شهوتي تغلب عقلي، علي النقيض تماما أنني رجل صعب الإرضاء وما بين مليون امراة فقط واحدة قد تستهوي بصري.

(سولين) فعلت ذلك حينما رأيتها للمرة الأولي و ها هي (زمن) تفعل نفس الشيء، مصادفة أن إثنتان في موسم واحد وفي مدينة واحدة ولكن ما بين ألوف النساء اللاتي كن عابرات سبيل في طريقي، كان الحظ أن القدر جعلني أسيراً لبنتين من بنات (بغداد).

هل العراقيات جميلات؟ فيهن وفيهن، هناك عراقيات تشعر أنهن من نسل أميرات الأساطير، هذه هي حفيدة (سميراميس) وهذه هي إبنة (الخيرزان)، هنا الجمال مثل حدائق الجنة أشكال وألوان، من الخمرية الساحرة إلي البيضاء الفاتنة، ما بين مليئة بالخجل والجامحة كفرس برية، وهناك عراقيات عاديات لا يلفتن نظرك بشيء.

كانت (زمن) تختلف عن (سولين) في أشياء وصفات وتتفق معها في أخرى ولكن نظرتي لها كانت إعجاب بها ككل، كنت قد أحببت (سولين) قبل أن أعرف ما هي ولكن الأن أميل إلى (زمن) و أنا قد عرفت من هي ، الأولى قادتني لها العيون والثانية شدتني لها الآذان.

على أن وضع (زمن) كان يختلف بالنسبة لي الآن، فهي ستصبح تحت إدارتي مباشرة وأي تقارب بيني وبينها يجب ان يكون مدروساً ومحسوباً وإلا سيؤثر علي مصداقيتي وعملي وكذلك على عملها وأدائها.

ثم الأمر الأخير والذي أنتبهت له خلال نظرتي العابرة للملف.

هي متزوجة ولديها طفل.

يعني لا مجال لأي فرصة معها، ما لم اكن ذئباً لا يرحم محراب زوجية مقدسة فيهبط عليه ليدنسه.

جائني هذا الخاطر فكففت عن تأملها وعدت أسألها عن طريقة أدائها في العمل وعن رؤيتها لصفات المدير الناجح وما هي خطة عملها في أول ثلاثين يوماً وما الذي يجب عليها إستلامه من المدير السابق إن حصلت على الوظيفة.

كانت إجاباتها أكثر من رائعة، هذه المرأة معجزة فهي جميلة وذكية في آن واحد وهو نادراً ما يجتمع، سألتها بعد أن أنتهيت:

- عظيم، متي يمكنك البدء بالعمل ؟

ترددت للحظة قبل ان تقول:

- يمكنني البدء بعد شهر من الآن، يجب علي إبلاغ شركتي بقراري و إيجاد بديل لهم كما أنني ليس لدي سيارة الآن وسأبحث عمن يوصلني من وإلى العمل.

كان ردها منطقياً وأطمانت نفسي إلي إحترافيتها أكثر فقلت لها:

- لا بأس، شهر من الآن ليس وقتاً طويلاً وبالتوفيق في موضوع السيارة ولو حدث أنك لم توفقي فيها يمكنك إستخدام سيارة الشركة في أول أيام العمل حتي ترتبي أوضاعك.

إبتسمت لي في امتنان وكأنها تشكرني، وما إمراة بمثل إبتسامتها أن تشكر، نحن يجب أن نشكرها كل يوم لأنها تبتسم، وتملأ الكون بالضياء، هذا الجمال لا يجب أن يكون ملك شخص واحد فقط، هذا تراث إنساني مثل لوحة الموناليزا وأهرامات مصر ونهر الدانوب، يجب أن يكون ملكاً لكل البشر، كم هو محظوظ زوجها بها، فهذا القمر يطوف طوال النهار ليبيت في أحضانه آخر الليل.

شعرت أني مراهق كبير وأنا أتاملها ولكن من قال أن للإنسان سلطان على قلبه، للقلب سلطان واحد أكبر على العقل والجوارح.

قمت من مقعدي وأنا أصافحها متمنياً لها حظ سعيد في عملها المستقبلي معنا وردت هي على مصافحتي بكلمات ود حارة قبل أن تغادر كما دخلت في هدوء.

تغير مزاجي كثيراً بعد مقابلتي مع (زمن) أصبحت أكثر إبتهاجاً وتفاؤلاً، ولاحظ الجميع أني عدت إلى نشاطي المعهود وإلي حيويتي التي أعتادوها مني

الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو موقفي من (هشام) ظللت اكن له عدم مودة ظاهرة ولكن لم أكن لأقوى علي إفتعال شجار من لا شيء معه، كان منتظما في الحضور وكان كعادته لم يتغير في صرامته بالعمل غير أنه خفف من حدة مراقبته الحثيثة للعامل المسكين (أبو احمد)، هل تراه استكان للأمر وقرر أن يركز في عمله أم أن هذه إستراحة محارب سيعود بعدها إلى مضايقة الآخرين.

لم أركز بالأمر كثيراً فقد شغلني المشروع برمته وخصوصاً أن وتيرة العمل قد زادت بعد إستدعائي لمجموعة إضافية من العمال الهنود وإعادة تنظيمي لخطط العمل في الموقع.

مرت بنا الأيام سريعة طوال النهاروبطيئة أثناء الليل، كان عملي يجعلني لا أشعر باليوم فينقضي ما بين شروق الشمس وغروبها كلمح البصر بينما ينقضي ما بين غروبها وانتصاف ليلي ببطء شديد، ربما الوحدة والفراغ، ربما لكون المدينة رتيبة خصوصاً وأني رفضت دعوات الأخوة في الفندق للخروج بضع مرات إلي أي كازينو أو مقهي قريب، وأخيرا ربما للجفاف العاطفي الذي تعاني منه أرضي.

كانت (سولين) قد تركت فراغاً كبيراً في قلبي، احترمت كبريائها الذي عبرت عنه بأقسى صوره في المستشفى، هذه امراة جريحة وتصرعلي جرح من أذاها كذلك حتى وهو في أضعف صوره ولكني أتفهم هذا بل وأحترمه.

ولكن قلبي لا يفهم ذلك، هو جائع، تلك المدينة مع أحساس عدم الأمان فيها تدفعني إلي البحث عن الحب وإلي مشاركة قلبي مع أحداهن، تذكرت قول الشاعرالأندلسي (ابن زيدون) حينما قال:

لما الرحيل لا أهل لك ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

انا أبدل كلمة الرحيل هنا بكلمة البقاء، لما علي البقاء بدون مشاعر هنا، ولكن المشكلة أن حظي عثرفي الحب،حظي عثر، عثرمثل شخص نجا من حقل ألغام فسقط في أرض رمال متحركة.

الأولى علي دين لا يجوز لي الارتباط به والثانية علي عهدة رجل لا يجوز لي المساس بها أو حتى التفكيربها أصلاً ولكن هل يملك قلبي هذا، إن عقلي وقلبي تعلقا بها بشدة ولولا الحياء لأستدعيتها في أحلام اليقظة لأعيش معها لحظات عشق جلي.

حاولت نفض الأمر برمته وراء ظهري و أنا اتعايش شيئاً فشيئاً مع أجواء العودة إلي (بغداد) بكل ما فيها ومن فيها.

حتى جاءني ذلك اليوم الذي وقفت فيه سيارتي مع (أبو حيدر) كالمعتاد عند أحدى السيطرات، كانت الشوارع كلها مزدحمة وتكدست المركبات لمئات الامتار بلا حركة في إزدحام عجيب، قدرت أنها ربما زيارة لأحد المسؤولين الأجانب الكبار إلى (بغداد) وما أكثرهم وكأن (بغداد) ينقصها اللصوص.

ومع استمرار الأنتظار مر بنا الكثير من الجوالين بين السيارات ما بين متسولات حسان يطلبن الحياة بمد اليد بدلا من مد القدم وجدت عليهن بما تيسر الوصول له في يدي حتي أمنعهن عن الطريق الأخر القصير والسهل، ثم صبيان يبيعون المياه وآخرون يبيعون الشاي، أشترى لي (أبو حيدر) قدحاً من الشاي وأشترى لنفسه آخر فقد علم بحكم خبرته أن الأمر سيطول لساعة كاملة على الأقل، مر بنا بعدها باعة المحارم الورقية ثم باعة ألعاب الأطفال ثم باعة السميط العراقي الشهير، حتى أحسست أن الشارع أصبح سوقاً مفتوحاً وربما لو عرضوا فيلماً سينمائياً علي شاشة عملاقة لأصبح نادي سيارات ضخم بإستثناء أنه يضم شاحنات كذلك.

مع الوقت ومع انتهاء كوب الشاي الحلو بدأ الملل يتسرب إلى قلبي فزفرت في ضيق محادثاً (أبو حيدر) بقولي:

- ساعة كاملة ونحن بانتظار هذا المسؤول المهم ليمر، هذا الأمر مضيعة للوقت.

ضحك (أبو حيدر) وهو يكشف عن أسنانه قائلاً:

- لا يوجد مسؤول يا أستاذ (أنور).

- اذن ما الذي يعطلنا هكذا، دواعي امنية!

- لا بل دواعي إقتصادية ، رزق للجميع.

- لم أفهم

- كم بائع ومتسول مر علينا حتى الآن؟

- لم اعد، ربما عشرة او اكثر.

- هم أكثر من خمسون شخصاً منتشرون بين السيارات الآن يبيعون أو يتسولون، هم قاموا بذلك بالأتفاق مع نقطة السيطرة الأمنية وبعد أن ينتهوا من حصيلة هذا الأمر سيفتح الطريق وينال رجال السيطرة حصتهم من العطلة.

- يا رجل!!! أنت تمزح وخيالك ذهب بعيداً.

- وحياة (الحسين) وآل (محمد) هذا حقيقي، إننا فقط نتجاهل وجوده ، البلد لم يعد بها نظام أبداً، حتي أنني أشك لو عاد النظام لكرهناه من كثرة ما تعودنا على الفوضى.

لم أصدق ما قاله ولكن العراق و(بغداد) خصوصاً بلاد عجيبة وغريبة تحفل بكل المتناقضات ولن أندهش لو رأيت كائنات فضائية تشوي السمك في الشارع أو شهدت بقايا لقبيلة مغولية تبيع الكتب على الطريق، هنا بلد الغرائب.

عجبت لكون المدينة رغم كثرة سكانها وأنها مدينة حضرية قديمة وتعتبر عاصمة لبلد كان متقدما نوعا ما في فترة من فترات عصوره أنه لا يوجد بها متنوع من وسائل المواصلات قبل أن أعلم فيما بعد أن ذلك مستهدف ومتعمد.

(العراق) مثل الرجل القوي الذي أسقطه أعدائه الكثر مريضاً ولكنهم لم يرغبوا له أن يموت، تركوه هكذا مريضاً، يعطونه القليل مما يبقيه حياً، القليل من الهواء، القليل من الطعام، القليل من كل شيء فلا هو يشفى ويسترد عافيته ولا هو يموت وينهي معاناة أهله.

كان ببغداد نهضة طرق و إنشاء جسور في الماضي حتى أتموا ثلاثة عشر جسرا تربط بين كل ربوعها وكانوا قد خططوا في العهد البائد لإنشاء قطار أنفاق سريع يربط بين كل العاصمة وبالفعل أنشأوا بعض تلك الأنفاق قبل أن ترغمهم ظروف الحرب على استخدامها في الأعمال العسكرية كمخابيء حين الغارات ومخازن للسلاح، سمعت أن هناك مشروع قائم هذه الأيام لأعادة إحياء قطار الأنفاق ولكن في ضوء ما أري وأسمع أشك ان يرى هذا المشروع النور.

نتيجة لكل ذلك كثر استعمال النقل النهري والقوارب للتنقل بين ربوع المدينة ولكنه ليس متيسراً لعامة الشعب.

(العراق) تعرض لهجمة مغولية حديثة ولا زال لم يتعافى منها، قتلوا فيه أجمل ما فيه، العزّة في رجاله والشرف في نسائه والطموح في شبابه والبراءة في أطفاله، أنتزعوها بكافة الأشكال وإن بقيت هناك فلول مقاومة هنا وهناك تقاتل في يأس.

قتلوا كل ذلك إما بقتل الأشخاص الذي يغرسون الأمل أو بقتل ظواهر الأمل نفسه.

أذكر أني سمعت أنه كان هناك فنانة تشكيلية شهيرة تدعى (ليلى العطار) وهي فنانة موهوبة بحق، أختطفها الموت الأسود مبكراً حيث قامت قوات التحالف الأمريكي بقصف بيتها قصداً بصاروخ ليودي بحياتها هي وزوجها والسبب بسيط أنها قامت برسم صورة لجورج بوش الأب علي مدخل أرضية فندق الرشيد في (بغداد) حتي تطأها كل الأقدام.

ولكن هناك شيء ما داخلي يمنحني اليقين أن العراق سيبقى عظيماً وسيقوم من رقاده وينهض من رماده كطائر العنقاء الشهير.

حينما قام الأمريكيون ببناء الجدران الشهيرة التي قسمت كل (بغداد) وشوهت معالمها، أنطلق الفنانون والرسامون العراقيون ليحولوا تلك الجدران الكئيبة إلي لوحات فنية تعبر عن الحياة والصمود والرسالة واضحة، لن تقتلونا، سنظل نقاومكم بكل شيء والعراق زاخر بالأسلحة النووية التي لن يضبطها أحد.

هناك سلاح العمارة وصدر العراق للعالم معماريين علي أشد درجات الحذق والمهارة مثل (زهي حديد) وهناك سلاح الموسيقى وما صوت (كاظم الساهر) على أنغام عزف (نصير شمة) بالشيء اليسير، وهناك سلاح العلم وآخر للخط وثالث للشعر والكتابة وكل هذه الأسلحة ستتنصر في النهاية لأنها أسلحة تحيي ولا تقتل.

كنت وسط شرودي و افكاري لم أنتبه أن السيارة قد تحركت مثلما تحركت باقي السيارات، لقد أنتهت إختناقة اليوم المرورية وسار الموكب الطويل ويوماً ما في المستقبل أتمنى أن تنتهي إختناقة (العراق) كذلك و(بغداد) خصوصاً.

وصلت بنا السيارة إلي مكان عملي قبل أن أهبط منها لأرى (رافد) يتحرك هنا وهناك وهو يجري مكالمات هاتفية منزعجا، أوقفته في سرعة و أنا أساله:

- ما الذي يجري ، ماذا حدث؟

- مصيبة، لقد تم إختطاف بعض العمال الهنود منذ قليل، ولا ندري عنهم شيئا، لقد خابرت الشرطة وهي في طريقها إلينا.

أعادت لي كلماته ذكرى إختطافي القريبة وخفت أن تؤثر في تلك الذكريات السيئة فلا أحسن التصرف والتدبر فقلت له:

- تمهل، لنعالج الأمر بروية، هيا بنا إلى مكتبي.

سارع بالقدوم معي إلى المكتب وهو يحاول التماسك، كان قد بقي على مغادرته للعمل خمسة أيام وتستلم (زمن) مكانه ، ويشعر أن المصيبة هذه قد أتت لتنغص عليه صفو أيامه الأخيرة، أنا نفسي شعرت بالقلق، ماذا سأفعل لوحدي بدون (رافد) وقد أبدلته بأنثى رقيقة لا ادري هل ستحسن التصرف في مثل تلك المواقف أم ستضيف إرتباكاً علي إرتباكي.

قلت له بسرعة :

- متي أكتشفتم الأمر؟

- منذ ساعة، كانوا قد ذهبوا لأرسال نقود عبر شركة الويسترن يونيون ثم لم يعودوا، خمسة عمال، تواصلنا معهم تليفونياً ولا أحد يجيب.

- ربما أوقفتهم الشرطة نفسها، هل معهم هويات؟

- نعم معهم هويات وأوراق عمل ثبوتية، وحتى لو أوقفتهم الشرطة، هم يعرفون ما عليهم فعله سيجمعون بعض الأوراق النقدية ويقدمونها لرجل الأمن وسيدعهم يمضون، لقد أختطفوا بلا شك.

قلت له وقد وضحت الصورة أمامي:

- إذن سننتظر إتصالاً من اجل الفدية؟

صمت (رافد) وهو ينظر لعيناي في حسرة قائلاً:

- لا، هم ليسوا مثلك، هؤلاء عمال عاديون فقراء والشركة لن تهتم بهم والخاطفون يعلمون ذلك بالتأكيد، المصير بالنسبة لهم سيكون أسوأ.

لم أفهم ما الذي يرمي إليه، ما غرض عصابة من خطف عمال ضعفاء من أخر بلاد العالم جاؤوا للإسترزاق، ما الضرر الذي يسببونه لأي إنسان، قلت له مستفسراً:

- أفصح يا (رافد).

لم ينتبه (رافد) لسؤالي أول مره لانه كان قد أستغرق في التفكير فأعدت السؤال عليه بنبرة أعلى فعاد يجيبني :

- أسباب الخطف هنا قد تكون كثيرة، ربما تقتلهم أحدي الجماعات في شريط مصور ويهددون حكومتهم، أنت تعلم انه هناك الكثير من الدول لازال لديها قوى حماية هنا في العراق، ربما يضغطون بهم علي الحكومة العر اقية كورقة ضغط سياسية، وأخر شيء ربما يقتلونهم ويبيعونهم لتجار أعضاء فهذه تجارة رائجة هذه الأيام.

شعرت بقلقه يتسرب إلي داخل روحي مثل ثعبان لاذ بكهف عميق، وقد أدركت صحة ما يقوله، فرصة عودة هؤلاء العمال ليست كبيرة وربما هي منعدمة وفقط علينا أن نرجوا أن يلاقوا موتاً سريعاً رحيماً.

كم هي قاسية الحياة في أحداثها ومآلاتها، بدلا من أن تتمني النجاة لشخص ما، تتمني أن يحصل على موت سريع، كم هو قاسي شعور أم لإبن مصاب بالسرطان وقد يئست من علاجه أو شعور الشخص الذي مات أبيه علي غير دين ويدعو أن يخفف عنه في عذابه، هذه أمور شبه منتهية.

أفسد ذلك يومي وإن ظللت مع (رافد) نتابع الموضوع بضعة أيام وكل يوم تردنا معلومات من الشرطة بعدم العثور عليهم أو على أي خيط يصل بنا إليهم ومع الوقت تم إستدعائنا للتوقيع علي المحضر وأخبرونا برسالة واضحة:

"اعتبروهم في حكم الموتى "

في ذلك الوقت أنتهت فترة الأنتظار التي على (رافد) قطعها وحضرت (زمن) لكي تتسلم منه مهام ومستندات القسم للشروع في عملها، ورغم انشغالي بأعمالي الكثيرة حرصت علي الألتقاء بها في ساعة وصولها إلي المكان وتبادلت معها حديثاً ودياً غلبت فيه النظرات على العبارات.

انتهي (رافد) في نهاية اليوم من تسليم كل معلومات وملفات قسمه العالقة وغير المكتملة إلى (زمن) وحرص علي تدوين ذلك في تقرير مكتوب وقع عليه كلاهما قبل أن يرسله لي بالبريد الإلكتروني ثم يحضر لي نسخة مطبوعة إلي مكتبي.

قمت من على مكتبي لأشد علي يده مصافحاً، لم أرد الإطالة في لحظات الفراق تلك، كنت أكن له أحتراماً كبيراً وأشهد أنه قد تجاوز سقف توقعاتي بالنسبة لمنصبه ولكن القرار الذي أخذته تجاهه لا يمكنني أن أغيره.

العجيب أني أخذت في حياتي قرارات كثيرة خاطئة وندمت عليها بعد سنوات وأعرف أن قرار إنهاء خدماته من القرارات التي سأندم عليها بعد سنوات ولكن هكذا هو الإنسان، كثيرا ما ننسى وقليلاً ما نتعلم.

خفف من حدة تأثري بفراقه، بعض من السعادة برؤية (زمن) ،هل كنت أنانيا في ذلك الموقف، نعم ولكن أنانية مشروعة مسوغة ويمكنني أن أجد لها ألف مبرر لو أردت، (زمن) قضية تجد لها ألف محامي للدفاع عنها وهي بذاتها تبريء نفسها، أنا اشتهيت (زمن) مع علمي بعدم إمكاني التطلع لها ولكن بضع كلمات منها ونظرات إليها كل يوم تكفيني كزاد في جوع (بغداد) العاطفي الذي أعاني منه.

سألت (زمن) إن كانت قد نجحت في توفير سيارة فقالت غير مبتئسة:

- لا لم انجح في تدبير سيارة إلى الآن ولكني أتفقت مع صاحب سيارة أجرة أن يوصلني ويعيدني كل يوم لقاء أجر معلوم.

- ولكن هذا مرهق لميزانيتك.

- لابأس، هو شهر واحد وبعد ذلك أشتري سيارة باذن الله.

- طالما هو شهر واحد، يمكننا تدبره، سأقوم بتكليف (أبو حيدر) بتوصيلك يوميا قبل توصيلي، أنت تنتهين من العمل قبل مني بساعة وعليه يمكنه توصيلك ثم العودة لتوصيلي، الأمر سهل.

- لا أريد أن أسبب لك ضيقاً، كما أخشي أن يتضايق الإخوة الزملاء من هذا الأمتياز الذي حصلت عليه دونهم، اعفني من ذلك أرجوك.

- الأخوة كل منهم لديه سيارة، كما أن الامتياز مؤقت، و أنت مديرة ولست موظفة عادية.

منحتني إبتسامة تساوي كنوز الأرض وما عليها وهي تقول:

- شكرا لك يا سيد (أنور) أنا عاجزة عن الشكر.

- لا عليك، كلنا هنا واحد.

الحقيقة أني كنت كاذبا هنا بشكل لم أقنع به نفسي شخصياً، هي لو كانت رجل مهما كانت درجته بالمكان لم أكن لأمنحه هذا الامتياز، ولكن هي امراة و أتخذت مكانا في قلبي إحتلالا سافرا، ولهذا خاطرت بأن أعطيها هذا الامتياز الذي ربما يثير علامات الإستفهام لدي البعض.

على أن مشاعري نحوها وتمييزي لها لم يكن محل تجاهل من الجميع، الكل لاحظ أني أكن لها مودة خاصة و أني أتجاوز عن هفوات وأخطاء العمل التي ترتكبها في البداية فالصب تفضحه عيونه والمحب تكشفه تصرفاته، لهذا عرفت لم ترفض المؤسسات المحترفة تعيين الأقارب والمتزوجون في نفس مكان العمل وبالذات في نفس الأقسام، القلب يميل هنا إلى تجاهل الأخطاء وتحقيرها وإلى تعظيم الحسنات وتوقيرها و أنا قد وقعت في هذا الفخ الساذج مثل أي مبتديء ولكني لم أبالي.

هناك مرحلة ما في عمرك، لا تعد تبالي بما يظنه الناس بك، ولا بما يقولونه عنك، يهمك نفسك بدرجة أكثر من الآخرين و أنا أمر بهذه المرحلة العمرية الآن.

وكان أكثر من لاحظ هذا ووضعني أنا وهي تحت المراقبة هو عدوي الأوحد واللدود داخل المؤسسة، (هشام) نفسه.

كنت حين ألتفت له أثناء تجوالي معها في الموقع، أجده يراقبي ويراقبها بعيون صقر رأي فريسة سانحة، هو يعرف بأنها أثيرة لدي وأن وراء علاقتي المهنية بها شيء آخر، هذا رجل يعرف مشاعر الرجال مهما أخفوها وهذا ما يثير حنقي، لأنه يجعلني في موقف ضعيف أمامه.

وأصبح هو يستغل هذه النقطة تجاهي، فيتعمد التشاجر معها دون سبب أو في أحيان اخري التودد لها بلطف أزيد من اللازم أمامي وكأنه يتحداني ليري ما الذي أستطيع فعله، هو يرسل لي إختبار تحد واضح.

إن كيد النساء قوي ولكن قهر الرجال أقوى، الرجل يعرف كيف يقهر الرجل الآخر سواء بقوة جسده أم بنفوذه وسلطاته أو حتى بما فعله معي (هشام)، هو يعرف أنه لا يستطيع أن يؤذيني مباشرة، فأذاني فيمن أحب ويعرف أنني لن أستطيع أن أتفوه ببنت شفة أو أشير له بأصبع واحد رداً علي ما يفعله، هي حرب باردة بيني وبينه وهو يلعبها بمهارة، والعجيب أن (زمن) كانت ذكية لتدرك أنها قد أصبحت ساحة حرب بيني وبينه، أدهشها هذا الأمر في البداية ولكن مع الوقت ضايقها، هي لا تريد أن تكون ساحة حرب بين رجلين يختصمان فسهام القتال تلك ستنال من سمعتها ولذا بدأت تحاول أن تكون أكثر تحفظا في تعاملاتها وحديثها معي ولم تعد تتبسط معي كما سبق.

تباً ل (هشام) هو مثل صرصور الليل الذي يزعجك دائما ولا تستطيع الإمساك به ولكن الشيء الذي أنا على يقين منه أن صرصور الليل بالتأكيد له فائدة خلقه الله لها، على خلاف (هشام)الذي لا أرى منه فائدة اطلاقاً.

الشيء الذي زاد من حنقي أن (هشام) قد طور حربه معي لينقلها إلى العمال العراقيين كذلك، كنت قد توقفت بعد عودتي من حادثة الاختطاف عن تناول الطعام معهم كما أعتدت تجنباً لرؤيته ولكنه أستغل تلك النقطة حتي يبين لهم أني لا أختلف عن الذي سبقني وأني فظ متعال ولا أحترم العراقيين والعجيب أنه نجح في استمالة معسكر كبير منهم لهذا الرأي، البسطاء يخضعون للصوت العالي وللمنطق المتطرف على الدوام ولا يجسرون علي مناقشة صاحب القوة.

ثم حول لسانه عني لمنحنى جديد، أن يتحدث عن أني أجتريء علي الشرف العراقي بمحاولتي التقرب من إمراة عراقية متزوجة شريفة دون مراعاة لمنصبي، وهذا كان أكثر قسوة علي، فقد علمت أن سهام حقده طالتها دون قصد، ولذا تعمدت الابتعاد أنا عنها والتعامل معها برسمية وتجنب الظهور معها أمام العامة إلا في حالات الضرورة الملحة.

كانت مهلة الشهر التي طلبتها حتى تشتري سيارة قد قاربت على الإنتهاء، وكنت أسمع منها بين حين وآخر أنها تفاضل بين سيارة وأخرى وتسألني عن رأيي في أداء تلك السيارة أو مشاكل السيارة الأخرى وعن السعر المناسب الذي تستطيع شراء سيارة مستعملة به.

حتي جاءت تلك الحادثة.

كنت أهم بالخروج من مكتبي كالمعتاد حوالي الساعة السادسة مساءً حينما جائني (أبو حيدر) مسرعاً، كان قد أنتهى لتوه من توصيل (زمن) كما

يفعل كل يوم، وكان يعود بعدها ليصطحبني عائداً إلي الفندق، ولكنه بدا هذه المرة منزعجا للغاية ومتوترا علي غير العادة ليبادرني قائلاً:

- أستاذ (أنور) حدث اليوم شيء خطير لابد أن تعلمه.

شعرت بالقلق علي (زمن) و أنا استحثه على الحديث قائلاً:

- ما الذي حدث، هل أصاب (زمن) أي شيء؟

شعرت بأن زلة لساني غير ملائمة ولكن الرجل لم ينتبه للهفتي في الحديث عنها وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة، سحقاً هذا الرجل أبطأ من سلحفاة في الكلام حينما تريده أن يتحدث وأسرع من أرنب في الحديث حينما تريده أن يصمت، ولكنه رحم ضعفي بقوله:

- لا ، إطمئن، مرت علي خير هذه المرة ولكن لعل نفس الأمر يحدث غداً.

- ما هو الأمر؟، تحدث مباشرة بلا مواربة.

- كنت أقود بها السيارة ككل يوم لأوصلها إلي منزلها، هي تقطن في بيت بسيط ولكنه جيد المعمار في منطقة (الجادرية) وكل يوم يومنا يسير بشكل عادي ولا يحدث أي شيء، نتبادل بضع كلمات، نضحك قليلا، تعرض علي شيكولاتة من التي تحملها ولكن اليوم حدث شيء مغاير.

أهم بتحطيم رأس الرجل، هذا الأسلوب التشويقي لا يشفي غليلي يصلح لأن تقص قصة على أطفالك أو تروي فيلماً درامياً لزوجتك لا ان تخبر عن أمر جلل ولكنه تابع بنفس الأسلوب:

- بينما كنت أقود السيارة شعرت بسيارة أخري تتابعني في ترصد واضح وهي تسارع للحاق بي، خفت بشدة، أنت تعرف حوادث الاختطاف، كما أن معي أمانة وشرف وهي السيدة (زمن) لابد من المحافظة عليها، لذا زدت من سرعتي، فزادوا هم من سرعتهم كذلك، راوغتهم فناوروني، بعدت عنهم فأقتربوا مني بشدة، أنعطفت لشارع آخر فتبعوني هناك، بدا واضحاً أنهم

يقصدوننا وليس الأمر صدفة، قبل أن يسرعوا بالسيارة ليجاوروا سيارتنا في الطريق، كان بالسيارة الأخرى ثلاثة رجال إثنان بالأمام وثالث بالخلف، ملامحهم ليست قاسية، هم عاديون ولكنهم علي إصرار غريب على اللحاق بنا

أشرت له أن يسرع بالحديث فقد نفذ صبري فأكمل بسرعة:

- كانت السيدة (زمن) خائفة في البداية قبل أن تجاورنا السيارة الأخرى وتنظر من بداخلها وبالذات الرجل الذي يجلس في المقعد الخلفي ليتحول خوفها إلي غضب، بدا أنها تعرفه جيدا، أخرج رأسه من النافذه وهو يطلب منها أن توقف السيارة وتهبط وهي ترفض بعناد وتطلب منه الإبتعاد عنها، ولكنه أصر وهو يشير لقائد السيارة وزميله أن يكسروا الطريق علي سيارتنا ليعترضوها وفعلا سارعت سيارتهم بإعتراضنا وأجبروني علي التوقف.

قلت له بإنزعاج ولهفة:

- ألم تقدر علي الهروب منهم يا رجل، قل لي ماذا حدث بعدها؟

قال (أبو حيدر) بسرعة:

- هبطت من السيارة لأحاول أن أحادث من بها وأري ما الأمر ونزل منها الشباب بدون أن يتبادلوا كلمة، قام السائق بإعتراض طريقي بيده بينما توجه كبيرهم نحو (زمن) وهو يصرخ بها أن تأتي معه ويجذبها من ذراعها بالقوة لتخرج من السيارة، خرجت رغما عنها بعد أن ألمها جذبه لها وهي تصيح به أن يبتعد عنها، صراحة ترددت هل أشتبك مع الشباب الثلاثة في قتال محسوم لصالحهم أم أؤثر الصمت وفي النهاية أخترت أوسط الامور فصحت بالرجل ان يتركها، نظر لي نظرة قاسية وهويقول "لا شأن لك بنا إنها زوجتي". نظرت للسيدة (زمن) لأسمع منها تأكيد أو نفي لقوله، قبل أن أراها تسحب يدها من يده وهي تعترض قائلة: (أنت لم تعد زوجي، لقد تطلقت منك ،إذهب بعيداً عني).

رأيته يجذبها ليجلسها في السيارة معه وهو يأمرني بالانصراف، نظرت لها لأرى ما رأيها فأومات لي برأسها مو افقة حتي تعفيني من الحرج، ور اقبتهم ينطلقون بها دون ان اقدر على منعهم .

صمت في حنق و أنا اتخذ مجلسي خلف مكتبي و أنا أسأله:

- هل هذا كل ما حدث؟

أجابني وقد هدأت أنفاسه:

- بالحرف الواحد.

عدت للصمت وبداخلي شعوران مختلفان يتقاتلان للفوز بصفحة وجهي، الأول شعور بالسعادة أنني اكتشفت الآن أنها مطلقة والثاني شعوربالقلق عليها ومنها في ذلك الموقف المبهم الملتبس، لماذا أخفت خبر طلاقها عن الجميع ولماذا يتمسك زوجها السابق بها بعد ذلك وما السر في طلاقهما، أسئلة كثيرة طافت في دوائر داخل عقلي بلا إجابة.

سألته بغتة:

- ولكن كيف تقول أنها مرت علي خير وقد أخذوها منك إلى مكان لا تعلمه، ربما هي مختطفة الآن.

رد علي (أبو حيدر)بسرعة:

- لا لقد حادثتني منذ قليل من بيتها علي هاتفي الجوال وأخبرتني أنها بخير، سمعت صوت طفلها حولها كذلك وتأكدت من نبرة صوتها أنها لم تكن مجبرة علي ذلك الإتصال.

لاحظ وجومي وحيرتي، كان مرهق من طول الدوام فقال في رجاء:

- هل نغادر الآن؟

نظرت له قبل أن أقل في إستسلام:

- ليس هناك من أمر آخر نفعله.

حينما وصلت الي الفندق، وجدت الشباب الأردنيين جالسين بالهو وحياني (عبد الرحمن) بترحاب وهو يقول:

- كنا بإنتظارك، لقد تأخرت.

- خير؟

- قمنا بطهي منسف وقلنا لن نأكله من دونك.

لم تكن بي شهية للطعام ولكن تحت إلحاح الشباب واحتراماً لانتظارهم لي قمت معهم للجلوس على مائدة أعدوها داخل المطعم الرئيسي وقد أكتفوا بتناول المنسف مع بعض المقبلات من البوفيه المفتوح.

كان فمي يمضغ الطعام وعقلي يعمل كمرجل يغلي، ليطهوا افكاراً مختلفة، ترى هل أحادث (زمن) لأطمئن عليها، أم انتظر أن تأتي غداً لأستفسر منها عن الذي حدث، ترى هل لو كانت مطلقة هل أقترب منها وألمح لها بمشاعري نحوها؟ أم أقف بعيداً عنها خصوصا بعد بزوغ تلك المشاكل؟

لاحظ (عبد الرحمن) أني في واد غير واديهم فهزني بيده قائلاً:

- أين سافر عقلك؟

قلت في شرود:

- في حياة أنثى عر اقية.

قلتها ثم ندمت على ذلك، ولكنه تمسك بأهداب عبارتي وهو يقول مازحاً:

- مرحى، أنت لست سهلاً ولا بريئاً كما تبدو، من هي؟حدثني؟ أحكي لي كل التفاصيل.

لم أشعر بالرغبة في التصريح عنها فقلت له:

- الرجل النبيل لا يتحدث عن غرامه.

- اذن هي ليست إمراة عابرة، لقد عشقت يا رجل.

- لا أدري بعد، أهو عشق أم شيء آخر.

- أسأل الله لك الهداية.

- لماذا؟

- قال الشاعر فتن فتى في فتاة فتاه.

- أكمل البيت يا (عبد الرحمن) ثم عاد إلي ربه فهداه.

- هل تنوي الزواج منها؟

- ما رأيك أنت؟

- هذا شأنك وحدك، أنا لا أعلم عنها شيء.

- ما رأيك في الزواج من عراقية عموما؟

- والله لم أجرب الامر من قبل حتى أحكم عليه، كأنك تسألني عن رأيي في الطعام المكسيكي، ولكن المرأة أي كانت جنسيتها هي المرأة، تحبها لشخصها بدون النظر إلي خلفيتها.

لم يكن (عبد الرحمن) أو غيره يعرف بقصتي مع (سولين) و أنني لفظتها في حياتي نظرا لديانتها، ولذا لن يتفهم أن الزواج بإمرأة دون النظر لخلفيتها شيء صعب للغاية ولا يفعله سوى حر مطلق الحرية أو شجاع متهور.

لاحظ أن إجابته لم ترقني فضحك قائلاً:

- عموما عمك (نزار قباني) قال " مات أعزب من لم يتزوج عراقية"

إبتسمت علي مضض و انا اجادله قائلاً:

- هو كان متزوج من شاعرة عراقية اسمها (بلقيس) ولو كان متزوج مغربية أو حتى يمنية لقال نفس الكلام مع تغيير الجنسية، هذا كلام للإستهلاك العاطفي.

ضحك (عبد الرحمن) وهو يقول:

- علي رأيك، الظلام أساساً يساوي بين النساء جميعاً.

- لا أظن هذا منطقي أيضاً ولكن لن أناقشك في ذلك.

عدنا إلي المنسف وطعمه اللذيذ، الذي أبعدنا عن (بغداد) وبؤسها والعراق ومشاكله وقربنا ولو لساعة من الأردن الحبيبة، يا ليت لي قبساً من زيتون القدس ليقربني إلى (فلسطين)الأبية أيضاً.

ورغما عني بعد أن انهينا الطعام ذهبت أفكاري مرة أخرى عائدة إلى (زمن) ترى بأي وجه ستراني غداً؟

الفصل الثالث عشر (ما وراء الأكمة)

ما إن وصلت إلي موقع عملي حتي مررت بسرعة علي مكتب (زمن) لأراها ولكنها لم تكن متواجدة علي غير العادة،لاسألت عنها (أبو حيدر) ليخبرني أنها لم تأت اليوم، سألته إن كان خابرها أم لا فقال لي بأنه فعل ولكنها لم تجب علي المكالمة، عنفته بهدوء على أنه لم يخبرني بهذا الأمر خلال إيصاله لي بالسيارة وأن هذه المعلومة كانت تهمني.

شعرت بالقلق وخصوصا بعد حادث الأمس، حاولت مكالمتها على هاتفها عدة مرات، جاوبتني بعد ثالث مكالمة بصوت هاديء خجول لتقول:

- أهلا أستاذ (أنور)

- أين أنت يا (زمن)؟ هل أنت بخير؟

- نعم أنا بخير، فقط متعبة قليلاً، أعذرني لم يكن لدي رصيد حتى أعتذر منك رسمياً.

- هل أنت متأكدة أنك بخير؟

كانت بالتأكيد تعلم السر وراء سؤالي الملح وقدرت أن (أبو حيدر) قد أخبرني عن حادثة الأمس فعادت تقول:

- نعم، أنا بخير، أشكرك.

صمت للحظات و أنا أحار فيما أقل لها ليأتني صوتها قائلاً:

- أستاذ (أنور).

- نعم يا (زمن).

- هل يمكنني أن أطلب إجازة لمدة أسبوع؟

- أسبوع كامل، صعب.

- أرجوك الأمر ضروري، لدي بعض الأمور العالقة التي يجب أن أنهيها.

تفهمت الأمر وقلت لها:

- حسنا أسبوع واحد فقط، ولكن بشرط.

- ما هو؟

- أن أتِ لزيارتك شخصياً للأطمئنان عليك.

صمتت للحظات وكأنها تدرس الأمر قبل أن ترد علي مستسلمة:

- حسناً، هذا يشرفني ويسعدني، متى تنتوي الحضور؟

- الساعة الخامسة عصراً،مناسب؟

- نعم، مناسب.

أغلقت الهاتف وأنا اشعر بالسعادة كوني لن أغيب اليوم دون أن أراها، الذي صور إله الحب علي هيئة طفل صغير لم يخطيء، الحب صبياني بإمتياز يخرجك عن وقارك وتحفظك، يهزك من الداخل ليسقط عن شجرة صلابتك أوراق التظاهر، الحب يُعيد الشباب إلى قلبك ويجلو شتاء الجمود من حياتك.

حاولت إنهاء معظم أعمالي مبكراً حتي أستطيع أن اذهب إليها في الموعد، وحينما جاءت الرابعة والنصف قمت باستدعاء (أبو حيدر) حتى يذهب بي إلي بيتها.

تعجب للحظة من طلبي ولكن الرجل كعادته المميزة لم يعلق وقام بقيادة السيارة بي حتي وصلنا إلي بيتها في حي (الجادرية)

كان بيتاً من طابقين وأمامه حديقة صغيرة للغاية، البيت لا يبدو حديثاً ،ربما تم بناؤه في التسعينات علي الأرجح، طراز البيت وسطي لا يميل للمعمار الغربي أو الطراز الشرقي، تقدمت نحو الباب الخارجي وأنا اضغط على جرس النداء، لم يجبني أحد لعدة دقائق، فناديت بصوت مرتفع:

- يا أهل الدار.

إنفتح باب الدار الداخلي عن إمراة عجوز تجاوزت الستين، ترتدي ثوباً وخماراً أسودان وهي تقول:

- نعم، من أنت؟

قبل أن أجيبها كانت (زمن) قد أطلت من شرفة الدار لتراني وتبتسم وهي تقول:

- إنه مدير الشركة يا أمي، الذي أخبرتك عنه.

أسرعت الأم تقوم بفتح باب الحديقة بمفتاح قديم بيدها، وهي تدعوني للدخول، ألتزم (أبو حيدر) مكانه داخل السيارة ولم يبدو مهتما بالدخول معي.

حينما دلفت لداخل المنزل بدأت عيناي تجوسان فيه بسرعة لتسبر أغواره، كان الأثاث بسيط ولكن أنيق، لم يكن حديث الطراز وهذا أكد نظرتي نحو البيت، هناك ألعاب وقصص أطفال متناثرة في أماكن شتى قدرت أنهم لطفل (زمن).

هناك مكتبة أنيقة بالدار بها الكثير من الموسوعات والمجلدات لم أعرف هل هي موروثة أم تخص أحد أفراد الدار، فهذه الكتب لا يقرأها سوى متخصص، دعتني السيدة العجوز للجلوس وأختفت بالداخل، جلست لدقيقة قبل أن أنهض بفضول لأستطلع المكتبة، قرأت عناوين مثل (مصارع الطالبيين) و(تاريخ بغداد الصوفي) وغيرها من الأسماء التي يسيل لها لعاب أي باحث تاريخي أو قاريء شغوف.

أنتبهت لدخول (زمن) ووقوفها إلي جواري دون أن أعي بدخولها وهي تقول:

- هل جذبت المكتبة انتباهك؟

- طبعاً إنها كنز حقيقي.

- كانت تخص أبي رحمة الله عليه.

-الله يرحمه

أشارت لي أن أجلس على الأريكة الواسعة وجلست هي غير بعيد على مقعد مجاور، وهي تقول:

- لقد أنار البيت بقدومك، شرف عظيم لي.

- لا تقولي هذا، زيارتك تسعدني كذلك.

- أرجو ان تتفهم سبب عدم إتصالي اليوم للحضور.

- لا عليك، أنا متفهم للأمر ولكن هناك تساؤلات حدت بي للقدوم هنا.

بدت غير متفهمة وهي تقول:

- أي تساؤلات؟

- لم أخفيت عنا أنّك مطلقة؟

نظرت إلى وجهي متفرسة وكأنما تستبين ما بداخلي قبل أن تقول:

- عنكم كشركة أم عنكم ك (أنور الرفاعي).

- الشركة ليس لها علاقة بحياتك الشخصية، أتحدث عني أنا ك (أنور)

- بداية أنا لم لم أخف الأمر عن أحد، ولكني لم أعلن طلاقي للجميع، أنت تعرف أطماع الناس هنا في المرأة المتزوجة، فما بالك بعلمهم أنها مطلقة؟، كنت ساتعرض في كل مكان بما فيها الشركة لمضايقات وتحرشات و أنا بي ما يكفيني هذه الأيام.

- عذرا لتطفلي على حياتك الشخصية ولكن أمر الأمس أبلغني به (أبوحيدر) وظللت قلقا عليك طيلة الليل.

ابتسمت ابتسامة سريعة عقب عبارتي وكأنما فهمت ما يعتمل في داخل نفسي قبل ان تقول:

- لتقل أني أدفع ثمن سوء اختياري منذ البداية، هذا موضوع شبه منتهٍ ولكنّه يأبى في الرحيل عني دون إحداث ضجة وألم.

- هل هو والد أطفالك؟

- نعم هو وأول زوج وأول حب وأول صدمة بحياتي كذلك.

- كم لبثتما معاً؟

- سبع سنوات، أنجبنا خلالها طفل واحد أسمه (سليم) سبع سنوات مرت بي علي كالزقوم لدى مروره في الحلق، والحمد لله أنها انتهت.

- لهذه الدرجة شقيت بزواجك!

- هل تود حقا أن تسمع ما حدث معي؟

-لو أحببت ذلك ووثقت بي، ربما خفف عنك الحكي.

- أحب أن تعلم ذلك، وتعرف عني كل شيء.

لما أفهم السر وراء رغبتها أن تروي لي كل شيء، هل هي رغبة في إزاحة أسرار عن كاهلها أم رسالة تحذير خفية إلي حتى أبتعد عن حقل الألغام الخاص بها ولكن في كل الأحوال فقد أصغيت لها بكل جوارحي.

كان (فائز غزوان) زوج (زمن) شاباً جسوراً من النوع الذي تحبه النساء عموماً، النوع الذي يجذبك النظر إليه بقامته الفارعة ووسامته الملحوظة، كان من أسرة شيعية مثل أسرة (زمن) متوسطة الحال، والتي رأت في السقوط فرصة للصعود السريع في تيار الحياة السياسية للعراق فانضم الأب لعضوية مجلس النواب و انضم (فائز) بعد تركه لسلك الشرطة للعمل في المخابرات العراقية قبل أن يستقيل ويفتتح شركة حراسات امنية بالشراكة مع فرنسيين ويصبح رجل أعمال واعد.

على أن خلف قصة النجاح هذه كانت تكمن معاناة (زمن) معه في خصاله الثلاث الشائنة، معاقرة الخمر وهي الصفة السائدة عند كثير من

الشباب العراقيين ومرافقة النساء وهي الصفة الأكثر شيوعاً ثم ثالثاً وأخيراً الفساد، فالرجل يتورط من حين لآخر في صفقات ومع أشخاص ليسوا فوق مستوى الشبهات.

كانت (زمن) كذلك من أسرة متوسطة الحال من نفس مكونه الشيعي ولكن والدها الأستاذ الجامعي بجامعة (بغداد) كان ضد هذا الزواج وتحت ضغط من زوجته مع اصرار إبنته العنيد إستسلم للأمر وهو يلقي علي مسامعها تحذيرا أن هذا الزواج سيسبب لها التعاسة وقد كان .

ليال عديدة يأتيها مخمورا مترنحا وربما كال لها صفعة او أثنتان لو نهرته عن هذا السلوك، الكثير من المكالمات تأتيها من نساء يخبرنها أنهن على علاقة به ويسألنها الرحيل من حياته حتي يحللن محلها، لم يفلح إنجابها لإبنها (سليم) في تحسين سلوك الأب المعوج.

في البداية أخفت (زمن) كل تلك الأمور عن عائلتها وبالأخص عن والدها حتي لا تتعرض للوم والتقريع علي سوء إختياراتها ولكن ذات ليلة مشؤومة منذ سنة مضت قام بالتعدي عليها وعلي ابنها بالضرب فهربت في جنح الليل إلي بيت والدها لتسكب في أذنيه كل ما عانته طوال ست سنوات كاملة.

أصر والدها علي عدم عودتها إلى (فائز) مرة اخرى وقام باحتوائها و إبنها في بيته كأي أب رؤوف دون حتى أن يعنفها على الاختيار وإن كان قد لامها على عدم إخباره مبكراً بالأمر أو ربما إنهاء الأمر قبل أن تحمل منه.

لجأت (زمن) للمحكمة للحكم بتطليقها من زوجها، ونجحت في إستصدار حكم بذلك بل وألزمت (فائز) بعدم التعرض لها ولكن وفاة والدها الذي كان بمثابة الحصن الحصين لها شجعت ذلك الأخير في العودة والتقرب منها مرة أخرى، صدته أكثر من مره ونهته عن الاقتراب منها، جاءها بالترغيب مرة بأنه يود ان يحيا إبنه حياة أسرية مستقرة ومره أخرى بالترهيب بإيذائها

هي وأمها ولكنها تحلت بالشجاعة لتواجهه فتركها منصرفا غير يائس من العودة بين فينة وأخرى.

حتي كانت حادثة الأمس حينما نفذ صبره عليها لكثرة ما صدته فحاول إعتراضها للحديث معها.

أنهت (زمن)قصتها وقد سالت دمعة خجولة من عينها لتسقط على يدها فتمسحها بيدها الأخرى ثم تلتقط محارماً ورقية لتمسح تحت جفنيها وهي تقول:

- أسفة أني اروي لك كل هذا ولكن يجب أن تفهم ظروفي.

- وماذا حدث بالأمس؟

- لا شيء، لم يؤذيني، فقط سمع الرسالة نفسها مرة اخرى، أنا لا أريده في حياتي مرة اخرى ولكنه قال لي هذه المرة أنه سيأخذ أبنه مني حتي ينشأ في كنف رجل كما يدعي، هو يعلم أن الطفل سيظل بحضانتي حتي سن العاشرة ولكنه يخطط لأخذه مني قبل ذلك حتي يؤذيني.

قلت لها متسائلا:

- وماذا ستفعلين في هذه الحالة؟

- لا أدري، صدقني أحتاج وقتاً للتفكير، لهذا طلبت الإجازة، لدي عم يقيم في (السويد) أفكر في الهروب هناك بإبني وعدم العودة مرة أخرى.

شعرت بغصة في نفسي لما قالته ولكن تداركت الأمر بقولي:

- وهل تشعرين أن هذا هو الحل؟

نظرت لي واجمة قبل أن تنفجر عيناها بالدموع وهي تغالبها في يأس قائلة:

- لا ادري ماذا أفعل، أنا وحيدة ومشتتة الآن.

أقتربت منها بهدوء و أنا أمسك براحة يدها بين يدي غير متحفظ قائلاً:

- لا تقولي هذا، أنت لست وحيدة، كلنا حولك، أنا لن اتركك في هذا الأمر.

- أستاذ (أنور).

نظرت لعيونها دون مواربة و أنا أقول :

- (زمن).

من خلف عيونها الباكية نظرت لي فقلت لها مستجمعاً شجاعتي بعد عناء:

- أنا أحبك.

الفصل الرابع عشر (سفينة في مهب الريح)

إستلقيت على فراشي بالفندق و أنا افكر في الحديث الذي دار بيني وبين (زمن) قبل أن أغادرها، قالت لي:

- أنت غريب في بلاد غريبة فلم تدخل بقدميك في جحر امرأة يختبئ فيه ذئب؟

- لا تقلقي، يمكننا أنا و أنت و إبنك الرحيل بعيداً لو لم أقدر على حمايتك هنا، يمكنني العودة للأردن أو الرحيل للخليج أو حتى الهجرة لأوروبا.

- ثم ماذا بعد؟

- ثم نعيش حياتنا كما نشتهي بلا خوف او قلق.

- وأغير مسار حياتك على عكس ما خططت لها، حتي لو تقبلها حبك لي الأن سوف يفتر حبك فيما بعد وتكره ما جررته عليك فيما بعد.

- لن يفتر الحب ما دمت تغذيه بالمودة وبحب مماثل من جانبك.

- أمامك حديقة النساء خذ منها ما شئت.

- رأيت كل الفاكهة ولم اشتهي منها لنفسي سواك.

-أنا التين الشوكي في هذا الحديقة، سأوذيك بشوكي قبل أن تذوق شهدي.

- من أجلك سأتحمل ولكن أرغب في سؤالك سؤال أخير.

- سل ما تشاء.

- ما شعورك نحوي؟

ابتسمت في حياء وهي تشد بأصابعها علي يدي قائلة:

- (أنور) سأقولها لك متى شعرت بها وليس متى سألت.

لم تكن إجابتها بالتي توقعتها ولكنها إجابة بغير تكلف ولا خداع، الحب لا يخلق فجأة ولا يطلب، بل يولد ويمنح بعد تعهد بالرعاية، ولكن يكفيني أنها ستعطي لحبي لها فرصة، وبينما نحن نتحدث إذا فاجئنا صوت إبنها ينادي عليها ويبدوا أنه قد استيقظ من نوم القيلولة الخاص به، توقف في مكانه حينما لمحني إلي جوار أمه وشعر بالخجل قليلاً وهو يقلب بصره بيني وبينها قبل أن تشير له أمه أن يتقدم ويلقي علي التحية.

كان صبيا جميلا نبيهاً، تقدم ببطء وهو يلقي علي التحية، مددت يدي له مصافحا قبل أن أتبادل معه حديثاً ودياً لكسر حاجز الجليد الذي بيني وبينه، في غضون دقائق نجحت في كسب قلبه، ربما القلوب البريئة تمنح ثقتها بسرعة، (زمن) عانت الكثير ولذلك لن تمنح قلبها بسهولة. أكتفيت بنصري البسيط هذا في أول لقاء وغادرتهما بعد ذلك و أنا أُمني نفسي بالعودة قريباً.

وعاد سؤال جديد يلح علي، عن الذي ينبغي فعله فيما بعد، لقد وعدتها بالحماية كما يفعل أي رجل نبيل ولكن هل أنا بقادر على ذلك، أنا في الأساس لا وزن لي في الأردن إن جاز إعتبارها بلدي، فما بالك في العراق الغريب الشرس القاسي علي أبنائه قبل أعدائه وزوجها حسبما فهمت ليس بالرجل السهل الذي سيتسكين لزواجنا أو حتي لهروبنا، هو كان ضابط مخابرات سابق وبالتأكيد أجتاز دورب العالم السري القذرة للمخابرات ولن يتورع عن مطاردتنا بلا رحمة أو هوادة هنا أو هناك.

العجيب أن الرجل المحب غالباً ما يكون ضعيف، الأقوياء والقساة لا يحبون، كنت قد شاهدت فيلما مصرياً من قبل عن إمراة تركت رجلا قوياً تقدم لزواجها لتتزوج تابعاً ضعيفاً له ثم تم إغتصابها أمام زوجها الضعيف دون أن يقدر علي حمايتها، تسائلت حينما شاهدت الفيلم هل كانت المرأة مخطئة حينما استبدلت الأمن بالحب؟

لكنني أعلم الأن أنه بهذا القرار كلما قررت الاقتراب منها كما كان هذا يعجل بمغادرتي (بغداد)،فأنا لا أستطيع الموازنة بين البقاء وبين حمايتها في وقت واحد.

وقادتني تساؤلاتي كذلك إلي وضع ابنها، كيف سيتقبل الرجل الغريب عنه كزوج أم ليشاركه في حنان وحب أمه، وكيف ستتقبل أمي وأختي أن أتزوج من امراة مطلقة ولديها طفل كذلك؟

شعرت بأنني في حاجة لمتنفس هواء، ففتحت نافذة الغرفة وأطللت برأسي أتأمل نهر دجلة و أنا شارد قبل أن يأتيني صوت إلى مسامعي يقول:

- حذاري من أن تخرج رأسك كلها.

تنبهت إلي أن الصوت يصدر من جاري بالغرفة المجاورة الذي أطل برأسه أيضا، كان يبدو من لكنته انه مغربي الجنسية، فأبتسمت و أنا أسأله:

- لماذا؟

- خشية القناصة، كان يقيم بالفندق هنا صحفي إسباني مسبقاً وأطل برأسه من الغرفة ذات مره فأصطاده قناص بطلقة صائبة في الرأس.

إندهشت من القصة وإن قدرت أنه لا يمزح فعاودتني الدهشة قائلاً:

- و أنت لماذا تطل برأسك؟

- انا لدي تأمين علي الحياة مليون دولار، ولا أظن أن زوجتي بمثل هذا الحظ حتي يصيبني الموت هنا في (بغداد) صدقني أنا أتعس الناس حظا فيما يخص الموت وزوجتي أتعس مني.

تعجبت من منطقه، ترى هل لو علم الإنسان بحصانته ضد الموت لأقدم عليه ولا يبالي، لا أظن أن الجبان يمكن أن يغير من سلوكه حتى لو علم أنه محصن ضد الموت.

في اليوم التالي قررت أن اشتري هدية من أجل (زمن) سألت عن ثوب يشبه أثواب الأميرات الأشوريات كنت قد رأيته في أحدي المحطات التلفيزيونية فدلوني علي سوق ما في وسط (بغداد) طلبت من (أبو حيدر) أن يقلني إلي السوق، و افق على مضض لم أفهمه، وطوال الطريق كان واجماً بدون سبب حتي توقفنا داخل السوق، أصر على النزول معي على غير المعتاد مما أثار قلقي فقلت له:

- ما بك يا (ابو حيدر)؟ تبدو خائفاً.

- ويجب عليك أنت أيضا أن تخاف يا أستاذ (أنور) هذا السوق من أخطر الأماكن هنا.

- لم؟، إنه سوق مثل أي سوق.

- نعم ولكن كل البائعين والتجار هنا من الشيعة وقد تم إستهداف السوق بالتفجير أكثر من مرة، وهم عدائيون جداً تجاه من يرتابون فيه، أنا نفسي اخاف القدوم له فما بالك برجل سني مثلك.

إنتبهت إلي المأزق الذي أنا فيه، كنت أرتدي حلة وربطة عنق كاملة بشكل يجذب الإنتباه، وبالتأكيد لهجتي ستشي أنني أردني و أنني بالتالي سني، لذا قمت بسرعة بحل رابطة عنقي وربط الزر الأعلي من القميص حتي بدوت مثل هيئة الإيرانيين الذين يرفضون إرتداء رابطة العنق لزعمهم أنها تشبه ذيل الحمار، وحرصت على جعل (أبوحيدر) هو الذي يتولي الحديث بالنيابة عني طوال الوقت حتى لا ينتبه أحد الي هويتي حتى خرجنا من السوق بأمان

كان ما فعلت للخروج من مأزق السوق من إلهام الله لي وخصوصا أني أعلم أن للإيرانيين في العراق وبالذات في (بغداد) مكانة مميزة بعد سقوط نظام البعث، بالأحرى كان للإيراني أفضلية عن العراقي وخصوصا مع تغلغل النفوذ الإيراني في كل الأوساط الأقتصادية والسياسية والإجتماعية والدينية

كان المستفيد الأكبر من سقوط نظام الحكم ب(بغداد) ليس الأمريكيين ولا حتي الخليج أو العراقيين انفسهم بل كان إيران ذاتها، وكانت أمريكا قد قدمت لها خدمة مسبقة أخري بتحطيم نظام الحكم في (أفغانستان) التي تجاورها وبذلك أزالت عدو محتمل لها.

والعلاقة بين (إيران) و(العراق) متأصلة في القدم حيث كانتا من أقدم الحضارات بالمنطقة وتنازعتا الزعامة مرات عديدة قبل أن يسقط العراق تحت الحكم الفارسي لفترات طويلة من عهده ثم ينتزعه منهم العرب مرة أخرى.

كانت معظم العلاقات عبر ألاف السنين هي علاقات عداء وتنافس، رغم ظن الإيرانيين أن العراق هو إمتداد طبيعي لهم وأن أراضيه أراضي فارسية

وحينما سقط النظام في بغداد حرص الإيرانيون علي التواجد وعلى تغيير البنية السياسية والاقتصادية للبلاد حتي يضمن لهم التواجد بقوة والتأثير في كل القرارات التي تتخذ هناك.

وقد حرصت الحكومات العراقية بعد السقوط على الحرص على علاقات مودة مع (إيران) حتي ولو علي سبيل الكرامة الوطنية وليس أصدق علي ذلك من قيام حكومة العراق بهدم تمثال الطيار عبد الله اللعيبي الذي كان أمام مقر قيادة القوة الجوية العراقية والذي قتل بعد تحطيمه لأربع طائرات إيرانية أثناء مهاجمتها للمدن العراقية.

وفقت في العثور علي ثوب حريري أبيض اللون وله حزام ذهبي مع قلائد تناسبه، ستبدو (زمن) به كأميرة من العصور التاريخية الغابرة.

انتظرت بفارغ الصبر حتي تأتي الساعة الرابعة قبل أن أذهب إلي بيتها لأصل هناك، كنت قد واعدتها على الحضور في اليوم التالي وقبلت هي طلبي

كانت والدتها قد استقبلتني بوجه باسم كالعادة وقد علمت بأني أنتوي الزواج بإبنتها وإن كانت قد تلفتت حولها مرتين لتطمئن هل هناك أحد من الجيران يرصد دخولي المنزل، كنت قد أحضرت معي أيضا دمية علي شكل سلاحف النينجا الشهيرين لإبنها الصغير الذي تلقاها مني في حب شديد وعاتبته أمه حينما لم يقدم لي الشكر عليها فقال في خجل:

- أشكرك يا عمي.

دعتني (زمن) لتناول العشاء الذي كانت قد أعدته خصيصا لي، وكان الطعام دسماً بحق، الطعام العراقي من أدسم ما يكون في الوجود ويحتاج إلى معدة قوية حتى تهضمه ولكن مذاق الطعام المنزلي جعلني أنسى طعام الفندق وكذلك المطعم وجعلني أتذكر أمي بعيون باسمة.

بعد الطعام لاعبت الصغير قليلاً قبل أن تأمره أمه ان يذهب إلي النوم، لا أعلم هل هو ينام مبكراً كالعادة أم أنها أرادت لي التفرغ لها قليلاً، جلست إلي جوارها على الأريكة وأستئذنت أمها في الانصراف حتي تدع لنا متسعاً من الحديث سوياً.

وباحت لي بكل أسرارها وبحت لها بكل ما بداخلي، فتحت لها صحائف تاريخي تنبش فيها كيفما شاءت، سألتني إن كنت قد احببت من قبل؟،السؤال التقليدي الذي تسأله كل إمرأة ويتجنبه كل رجل،لا يوجد رجل بالغ في الوجود تجاوز العشرين من لم يحب من قبل، ربما يكون حباً من طرف واحد وربما حب بين طرفين، أما من يدعي أنه ظل طاهر بريء خلي القلب حتي قابل زوجته أو حبيبته فهذا من المستحيلات.

الرجل يفقد بكارة حبه مبكراً بعكس المرأة، ربما يغرم بطفلة صغيرة في تبرعم طفولته أو إبنة جيرانه أو حتي معلمته بالمدرسة ولكن لا يظل بكراً حتى يكبر إلا فيما ندر.

لاحظت (زمن) ترددي فقالت في قلق:

- هل أنت جريح حب سابق؟

- لا لم انجرح من قبل،لا تقلقي.

- إذن ماذا، هل لديك حب حالي غيري؟

- لا هذا ولا ذاك، كنت علي وشك الارتباط بفتاة عراقية ثم حالت بيننا الظروف.

- هنا في (بغداد)؟

- نعم.

صمتت قليلا وهي تفكر قبل أن تلتفت لي وهي تقول:

- (أنور) أصدقني القول ،هل أحببتني لذاتي أم لأنك تعشق العراقيات عموما؟

- صدقيني أني لست متعبداً بمحراب العراقيات إجمالاً، شاءت الصدفة أن يهوي قلبي في حب عراقية تلو أخرى،أظن أن بكن سحراً ما يجذبني.

- لم تجب علي سؤالي، أنت تناور فقط.

- أنا احببتك لذاتك يا (زمن)أنت تعلمين ذلك.

- حسنا أثبت لي حبك.

- إحلمي و أنا أنفذ.

فكرت قليلا وهي تضع إصبعها علي جبهتها في دلال قبل أن تقول عابثة:

- أريد مهرا يثبت حبك، شيء ما مثل مهرعنترلعبلة، ألف ناقة حمراء من نياق الملك النعمان.

- هذا سهل أطلبي شيء أصعب، أنت تستهينين بحبي لك.

ضحكت وهي تناولني ثمرة فاكهة من أمامها وتقول:

- حسنا اذبح لي بقرة أمام جمع من الهندوس.

- هذا بسيط، أريد شيئا أصعب.

- حسنا، أريد أن أشعر معك بالسعادة والأمان طوال حياتنا معاً.

صمت لحظة لعبارتها، كانت هذه العبارة رغم بساطتها أصعب مهر تطلبه امرأة من رجل مهما بلغت محبته لها، إنها تطلب مني ما هو في حدود الغيب، أمسكت بكفها بين يدي و أنا ألثم كفها قائلاً:

- سيحدث بإذن الله.

طال بنا الحديث وشعرت أن الوقت تأخر وخصوصاً أني طلبت من (أبوحيدر) الانصراف على أن أستقل سيارة أجرة إلى الفندق، أصرت (زمن) على توديعي حتي الباب وأرسلت لي قبلة في الهواء حينما غادرت ثم تابعتني ببصرها في حنان حتي أختفيت عن بصرها.

لم ألاحظ أنا أو تلحظ هي أن هناك عيوناً أخرى من بعيد راقبت كلانا في كراهية وقسوة.

عيون زوج سابق غيور.

عيون (فائز غزوان).

الفصل الخامس عشر (هزيم الرعد)

إستمرت زياراتي المتكررة ل (زمن) وطلبت منها أن أعرف الإجراءات التي ستتخذها صوب إتمام زواجنا، هل تود عمل عقد شرعي أم نتزوج زواج مدني، بل وصارحتها أني أريد خطبتها رسمياً من ولي أمرها وهو عمها المقيم في (السويد) إن أرادت، فأجابتني أنها ولية أمر نفسها.

مع مرور الأسبوع كنا قد غزلنا من أحاديثنا جسراً وصل بيني وبينها، شعرت أنها بدأت تميل لي ميلاً عظيماً ولكنه لم يصل إلي درجة الحب بعد.

سألتها في آخر يوم من إجازتها:

- غدا ستعودين الي العمل، هل تودي أن نعلن الأمر للآخرين؟، أم نخفيه مؤقتاً.

- ما رأيك أنت؟

- رأيي أن الحقيقة والوضوح مطلوبان، سنعلن الأمر للجميع ولا تنسي أني سأطلب نقلي فعلياً لموقع أخر خارج العراق بمعنى أنه مع مرور شهرين أو ثلاثة سأكون خارج المؤسسة على أي حال.

- طالما تري هذا فأنا معك.

صمتت للحظة قبل ان تقول:

- هل أخبرت والدتك وأختك بشأني؟

- سأفعل الليلة.

- اتمني أن تكون ردة فعلهم جيدة.

- هم يحبونني وما يسعدني يسعدهم.

- أتمني أن يحبوني أنا أيضا كما أنا.

- سيفعلون، لو رأوك لأحبوك، إن الطير في السماء ليحبك يا (زمن).

- تمهل علي ، قلبي لا يحتمل كل هذا الكلام الجميل.

نهضت وأنا أرتدي سترتي وأشرع بالرحيل، حينما كنا علي مشارف الباب قالت لي وهي تمسك بذراعي في قوة:

- (أنور).

- نعم يا (زمن).

- أحبك.

إبتسمت إبتسامة واسعة وكأني بالون ملئه الهليوم فطار في السماء منتشياً قبل أن أجيبها:

- و أنا أعشقك.

خرجت مودعاً إياها، وأستقللت سيارة أجرة كالعادة الى الفندق، وفي الطريق من شدة لهفتي قمت بالاتصال بأمي على الفور، كنت أشعر بالسعادة كقرد في حقل موز، ما إن جائني صوتها حتى قلت لها:

- أمي الغالية.

- ابني ،حبيبي ،كيف حالك يا (أنور)؟

- بخير يا أمي، في أحسن احوالي.

- في صوتك فرحة لم أشعر بها من سنين، أسعدني معك.

- أخيرا سأتزوج.

جائتني ضحكة بريئة ساذجة من أمي قبل أن تقول في جذل:

- وأخيراً يا ابني، الحمد لله، ألف مبروك، من العروس؟

- فتاة من هنا، من (بغداد).

- بهذه السرعة، طيب الا نتعرف عليها نحن، أرسل صورتها لاختك (علياء) حتي أراها.

- بالتأكيد سأفعل، هل أنت سعيدة لي؟

- طبعا يا حبيبي، قل لي كم عمرها؟

- ثلاثين سنة يا أمي.

- ثلاثين ولم تتزوج حتي الأن، أظن أن القدر أدخرها لك كل هذا الوقت.

صمت للحظة وأنا أحار أمام قول أمي قبل أن أستجمع شجاعتي لأعقب علي عبارتها.

- أظن أني جئت متأخراً عليها يا أمي ،هي كانت متزوجة.

صمتت أمي وقد خفت صوتها وهي تتسائل:

- أهي أرملة؟

- بل مطلقة.

- ألديها أولاد؟

- طفل في السابعة

- .....

أقلقني صمت أمي المفاجيء فعدت أستحثها علي الكلام قائلا:

- أمي هل أنت هنا؟

- نعم يا حبيبي، هل تحبها يا (أنور)؟

- أحبها بشدة يا أمي.

- إذن علي بركة الله،وليفعل الله ما يريد، ربنا يتمم بخير ولكن خذ حذرك، الزواج من المرأة المطلقة ذات الأطفال ليس مثل الزواج من بكر خالية.

- لا تقلقي يا أمي، المهم دعواتك لي.

- ربنا ييسر لك أمور الخير يا بني.

- أبلغي (علياء) بالأمر، وأنا سأرسل لكم صورها لاحقاً.

- بالإنتظار يا (أنور).

- تصبحين علي خيريا أمي.

- و أنت من أهل الخيريا حبيبي.

أغلقت الجوال و أنا أستشعر أن أمي لم ترتاح كثيراً حينما أخبرتها عن ظروف (زمن) وما تحمله من ماضي زواجها ولكن حبها لي وسعادتها لسعادتي جعلتها لا تبدي إمتعاضاً للأمر.

وصلنا إلى الفندق وأسرعت إلى غرفتي قبل أن أتلقى إتصالاً من (زمن) كانت تطمئن أني قد وصلت بسلامة الله إلي سكني، كانت أول مرة تفعلها مما ترك لدي شعوراً جيداً بأنها عنت ما قالته حينما أخبرتني أنها تحبني، تبادلنا حديثا قصيرا قبل أن تقول لي بغتة.

- (أنور).

- نعم يا عشقي أنا؟

- أريد شيئا منك.

- دمي فداك.

- يحفظ الله دمك، لا ، أريد شيئا أبسط، أريدك أن تشتري دمية جميلة لي، ولكن أريدها أن تبات بحضنك لليلة كاملة قبل أن تعطيني إياها بالغد، هل هذا ممكن؟

- طبعا يا حبي، هل تريدين دمية بعينها؟

- لا، أي دمية ستفي بالغرض.

- حسنا يا حبي.

- أحبك.

- اعشقك.

أغلقت الهاتف و أنا أتأمل شعيرات رأسي الشائبة في المرآة، لقد غزاني الشيب حقاً، بالطبع لا زلت وسيماً ولكنه جعلني أبدو أكبر سناً من حقيقتي،

بالتأكيد شعرت أن الشعيرات الشائبة لم تزد مؤخراً وكأنها قررت الر أفة بي وبحبي الوليد.

لامست شعيرات رأسي قبل أن أستدعي بعين الخيال (زمن) من خلفي وهي تحتضنني وتمسح بيدها البضة علي شعيراتي الشائبة قبل أن أبتسم وأذهب الي فراشي طاويا الليل والليلة.

في الصباح التالي كانت المفاجأة من نصيب الجميع، كنا نجلس بالإجتماع الصباحي و أنا لا أتبادل النظرات مع (زمن) بل أتصرف بشكل عادي وعفوي للغاية قبل أن أقف وسط الجميع و أنا اقول:

- حسنا يا (زمن) ما أخبار الموارد البشرية اليوم؟

- لدينا مائه وسبعين عاملاً حضور، وسبعة عشر غياب، هناك إثنان منهم مرضى، واليوم عيد ميلاد (روهيت) الهندي

- فقط؟!

- نعم وهناك تذمر من الشباب بخصوص سكن العاملين، طلبنا من الصيانة إصلاح التكييفات مؤخراً.

- فقط هذا ؟!

- ليس لدي من أنباء اخرى.

- نسيت أهم خبر.

نظرت لي وهي غير مستوعبة.

فاقتربت منها و انا أمسك بيدها لأجعلها تقف بجانبي و أنا أنظر لجميع المدراء قائلاً:

- اليوم نزف خبر خطبة الزميلة (زمن) مدير الموارد البشرية على المهندس (أنور الرفاعي) مدير المشروع.

أحمرت وجنتاها خجلا ونظر الجميع لنا غير مصدقين قبل أن تتصاعد صيحات الإستحسان وتنهال التبريكات علينا في حرارة، من بين هؤلاء وقف (هشام) غير بعيد وقد تراوحت ملامحه بين الدهشة والغضب في مزيج عجيب

نظرت له في تحدٍ وكأني أستحثه علي أن يفصح عما لديه ولكنه بدلاً من ذلك لم يعرني سوي نظرته الخاوية قبل أن يتقدم وهو ينظر لكلانا نظرة أخافت (زمن) فلاذت بي محيطة ذراعها بذراعي قائلاً :

- مبارك عليك بنت (العراق) يا أستاذ.

قال كلمته ثم أنصرف دون أن ينتظر ردنا عليه.

مر اليوم علينا كأسعد ما يكون، أرسلت لشركتي في (الدوحة) أطلب منهم نقلي إلي موقع عمل أخر في أي من مشاريعهم حول العالم مبدياً أسبابي، و أنتظرت الرد منهم لاتفاجأ بمديري يحدثني علي الهاتف مباشرة ويخبرني أنه حزين لقراري بمغادرة العراق ولكنه متفهم لظروفي وأن الشركة بصدد البدء في مشروع قريب في (الجابون) في القارة الأفريقية السمراء و أنه سيرشحني لأكون هناك ولكن علي الانتظار في العراق حتي يجدوا بديلاً لشغل مكان عملي

كنا قد أنجزنا الكثير منذ قدومي وعليه لم يكن أمام البديل الذي سيحضرونه سوي جهد قليل لإتمام المشروع وتسليمه.

كنت قد أنهيت عملي مبكراً ذلك اليوم و أنتظرت (زمن) التي استغرقت وقتا طويلا لإنهاء الأعمال العالقة والتي تكدست طوال أسبوع كامل قبل أن أصطحبها لأوصلها إلي منزلها.

إنقضي اليوم بهدوء وسلاسة.

أو هكذا ظننت.

كنت أتمني طوال حياتي أن يكون لدي القدرة علي معرفة ما يحدث على الضفة الأخرى من حياتي.

انا أري فقط ما أرى وأسمع ما أسمع وأشعر بما يدور أمامي فقط

ولكن ماذا عما يظنه الناس بشأني وما يدبرونه لي وما يقولونه عني، هذا هو الجانب الأخر من الضفة الذي لن أطأه أبداً.

لربما لو عبرت الضفة الأخري لوجدت (هشام) في ذلك اليوم وقد انتحى جانباً في الموقع يدخن السجائر بشراهة غير عادية ويشعل قبل الواحدة من دبر الأخرى، حتى أن أحد العمال المقربين من عشيرته قد استشعر أنه ليس علي ما يرام فمازحه قائلا:

- علام الهم يا (أبو الحسن)؟

ألقي بلفافة تبغه أرضاً وهو يقول في سخط:

- (العراق) ما عاد لأهله، الأغراب أستوطنوه وتملكوا خيره.

- يا عمي، لا تشغل بالك، أيام تذهب وأخري تجيء.

- أيرضيك، يأتي و افد أجنبي ليأكل خيرنا ويسكن مساكننا وفي النهاية يأخذ نسائنا تحت أعيننا؟

- تقصد من ؟!(أنور) و(زمن)؟

- نعم هو ومن غيره.

- يا رجل، دعك عنه ويكفي ما جرى منه وجرى له، لقد انتقم لك الله منه حينما أختطفوه، والحمد لله عدت لعملك مرة أخرى، فلا داع للمشاكل

- المشاكل لم أفتعلها بعد ولكن سيحدث، أنتم إلى الان لم تروا وجهي الآخر بعد، أنا أحقد من قلب الجمل في الخصومة.

لم أكن أدرِ ساعتها بهذا الحوار ولم أدرِ أن (هشام) قد تتبعني في سيارته خلفي أنا و(زمن) حتي وصل إلى منزلنا.

لم يكشف لي من الغيب أيضا أن هناك سيارة كانت تنتظر غير بعيد من منزل (زمن) وكان بها طليقها (فائز) وقد وقف يترصد باب منزلها حتى لمحنا

فهبط مختبئاً خلف بضعة شجيرات وهو يرمقنا في صمت غاضب وصدره يعلو ويهبط مثل المرجل.

كنت قد هبطت من السيارة ودعتني (زمن) للدخول ولكني رفضت دعوتها بأدب، كنت أحب صحبتها ولكن أريد أن أدع لها وقتاً هي وابنها وخصوصاً اني قد انتزعتها منه خلال الأسبوع الماضي كله، صمت في غير ترحيب فأخرجت من السيارة صندوقا مغلفا و أنا أقول لها:

- بالمناسبة هذه هي الدمية التي طلبتها.

- هل نامت في حضنك طوال الليل؟

- طبعا، وقبلتها مرات ومرات و أنا أتخيلها أنت.

ضحكت رغما عنها وهي تقول:

- سأسامحك هذا المرة.

سألتها في فضول:

- ولكن لما طلبتها؟

أخرجت الدمية من الصندوق وهي تنظر لها في فرح قبل أن تقول

- لأنها ستنام في حضني من اليوم فصاعدا، سأسميها (جنة)

- (جنة) !!!

- نعم لانها لامست حضنك، وحضنك جنة.

ابتسمت رغماً عني و أنا اعود للسيارة، في تلك اللحظة لم أكن أدري أن (فائز) قد أخرج مسدسه وهو يصوبه نحوي من بعيد وهو يقصد إصابتي بمنتصف رأسي، كان يرتعد من الغضب وقبل أن يضغط علي الزناد فوجيء بمن يمسك يده قائلاً:

- لا يستحقون أن تخسر حياتك من أجلهم.

التفت في حنق ليواجه من يمسك يده ليفاجأ ب (هشام) الذي تطلع له منتظرا ردة فعله ليهتف به (فائز):

- من أنت؟

- لنقل اني خصم أخر لذلك الرجل، ولكن موته ربما يحدث أو لا يحدث في تلك الحالة، أنت ترتعش في إمساكك بالمسدس، وربما تخطئه وسيميزونك بسهولة من تلك المسافة.

- وماذا تريد الأن؟

- أن نتعاون، سننتهي منه سويا وبشكل يمكنك من إستعادة زوجتك مرة أخرى.

- وما مصلحتك؟

- لنقل أني غيور علي العراق وأهله ولا أحب أن يذهب أي شيء من العراق إلي غير أهله وهي عر اقية وشيعية كذلك وهو أردني وسني.

تطلع له (فائز) للحظة وكأنما يسبر أغواره وسريرته قبل أن يخفض مسدسه وهو يمد يده الأخري مصافحا وهو يقول :

- اذن عاهدني.

مد (هشام) له يده وهو يشد عليها قائلاً:

- أعاهدك يا إبن عمي على الغريب.

لم اعلم بكل هذا الحوار الذي دار على بعد بضعة أمتار مني و أنا اتخذ مجلسي خلف (أبو حيدر) الذي أحتفظ بصمته الشهير وهو يقود بي السيارة عائدا إلي الفندق من جديد.

كانت هناك خيوط من الدم تغزل في غياهب القدر لم أدرِ بها سوى فيما بعد.

الفصل السادس عشر (خرج ولم يعد)

حددنا أنا وزمن موعد خطبتنا رسميا في حفل بسيط في فندق (عشتار) سمعت نادرة تتردد هناك أن هذا الفندق يمكن أن يحصل علي رقم قياسي في موسوعة غينيس في عدد العرسان الذين سكنوا به حيث يومياً يسكن به علي الأقل ثلاثون عروساً وعريساً.

لم ترغب (زمن) في البداية بأن أقيم حفل خطبة ثم يليه حفل زفاف ولكني أصررت، إن كانت هي قد اختبرت هذا الشعور من قبل فأنا لم اختبره، بجانب أني اريد لها ذكريات جديدة تماماً معي.

إشتريت لها فستان خطبة رائع وردي اللون وأرسلت لي صورتها به فبدت كفينوس إلهة الجمال عند الرومان، واشتريت لإبنها الصغير بذلة سوداء حتي يحضر العرس ولكن أمها اخبرتني أنه سيتسبب في تشتيتنا أثناء الخطبة ومن الافضل إرساله إلي إحدى القريبات لرعايته خلال هذه الليلة وو افقت على ذلك رغما عني خصوصا أن (زمن) أبدت استحساناً لفكرة والدتها.

في ذلك اليوم هاتفت (زمن) في الصباح وقد أخذ كلانا إجازة من العمل و أنا أقول لها:

- صباح المسرات علي سيدة المجرات.

ضحكت وهي تقول تخاطبني علي نفس وزن كلماتي:

- صباح الخيرات علي ملك القارات، أنت تبدو سعيداً للغاية.

- ولماذا لا أسعد واليوم ارتبط رسمياً بأجمل وأرق وأطيب فتاة بالعراق كله والدول المجاورة.

- لا أستطيع أن أجاريك في هذا الكلام الحلو يا (أنور) لكن ربنا يقدرني وأسعدك يارب.

- سعادتي تكمن في كونك سعيدة، قولي لي ما برنامجك حتي موعد الخطبة؟

- سأذهب إلي الكوافير بعد قليل ويمكنك الحضور لكي تقلني في تمام الخامسة مساءً.

- اذن سأذهب لأجهز السيارة

- ألن تحضر مع (أبو حيدر)؟

- لا سيارة الشركة لا تصلح لهذا الغرض، أريد سيارة مميزة لهذه المناسبة، بجانب أن (سمير) وعدني أن يحضر لي سيارة رائعة لهذه الليلة.

- أحبك يا (انور).

- و أنا أيضا أعشقك يا (زمن)

أغلقت الهاتف و أنا سعيد للغاية قبل أن تتلاشى إبتسامتي تدريجياً وأشعر بشعور مبهم بالقلق لا أدري سببه، بررت لنفسي أن هذا الشعور منبعه إنني مقبل علي تجربة جديدة وارتباط رسمي ولابد أن كل الرجال يمرون به، ولكني كنت أكذب حتي أهدىء من ذاتي وذلك الشعور يتنامى.

كان لدي موعد بعد الظهيرة مع أحد المتاجر لاستلام حلة سوداء أنيقة مع ربطة عنق مميزة، وبعدها سيأتي (سمير) بالسيارة التي وعدني بها من اجل إقلالي لمصفف الشعر.

كنت قد أعطيت إجازة ل (أبو حيدر) حتي يتسني له أيضا أن يتحضر لحضور الخطبة، الحق أن سبب إصراري علي الخطبة كذلك هنا في (بغداد) أنني أنتوي ان يكون الفرح نفسه في (الاردن) حتي يتسني لأهلي حضوره مع أصدقائي هناك وبذلك أكون قد أرضيت كلا الأسرتين وبالذات والدتي.

استقللت سيارة أجرة من امام الفندق،أشرت له أني أريد الذهاب الي (الكرادة) حيث هناك محل هناك يسمي (فانتازيا) للبذلات الرجالي على مستوى راقٍ للغاية، في الطريق شردت بذهني و أنا أحاول أن أتساءل عن سببي قلقي المبهم، المفروض أن الأمور كلها هادئة ولا يوجد ما يثير الإنزعاج، حتي زوجها السابق منذ تجادلا أخر مرة لم يظهر في حياتها مرة اخرى.

فعلام القلق؟!

أتراها التجربة الجديدة التي أنا مقبل عليها؟

أم اضطراري للسفر في حال تزوجتها إلى بلد جديد لا أعرف عنه شيئاً، بالتأكيد لن يكون أسوأ من بغداد التي تم تصنفيها هذا العام أسوأ المدن في العالم من حيث المعيشة بها.

اذن لم القلق؟

حاولت تجاهل ذلك الشعور وأغتصبت إبتسامة من اعماق قلبي ولكنها حينما صعدت الى السطح أصبحت باهتة مترددة قبل أن أهبط من سيارة الأجرة حينما وصلت إلي وجهتها و أنقد السائق ماله ثم ينصرف عني، نظرت إلي واجهة المحل ثم تقدمت في سرعة لأدلف للداخل ولكن أستوقفني صوت صرير سيارة مسرعة أتت من أخر الطريق لتركن إلي جواري.

كانت سيارة سوداء رسمية من النوع الذي يستخدم عادة لحراسة الشخصيات الهامة وترجل منها عدة رجال ملامحهم أقسي من الحجر ليلتفوا حولي وبيدهم أسلحة نارية خطيرة.

حاولت التراجع في سرعة ولكن أحدهم عاجلني بضربة علي رأسي بأحد الأسلحة، دارت الدنيا بي وشعرت أني علي وشك فقدان الوعي:

صحت بهم و أنا أسعل دماً:

- ما الأمر؟

لم يمهلوني للرد ورجل أخر يعاجلني بقبضته لتنفجر في وجهي قبل أن أشعر بأني أنسحب تدريجيا إلي دوامة سوداء عميقة.

لم أشعر بشيء بعدها سوي أيادي تحملني لتلقيني داخل السيارة قبل أن أفقد الإحساس بالزمان والمكان لفترة طويلة.

لم أقو علي فتح عيناي، رأيت خيالات ضبابية فيما حولي، أصوات صاخبة تروح وتجيء، ثم صوت كلاب عنيف يأتي إلي جواري، لم أقوى حتي على تحريك إصبعي، سمعت قعقعة أبواب حديدية تفتح ثم صرير مزلاج، هناك صرخات لرجال ونساء كذلك تأتي من مكان ما، الأيادي القاسية تحملني مرة أخري ثم تلقيني أرضا ليرتطم رأسي بالصخر وأغيب حتى عن مسامع الشعور.

لم أدري كم ظللت على هذا الحال، حينما فتحت عيناي بعد مدة رأيت نفسي ممددا علي أرضية باردة في زنزانة طولها متران وعرضها متر تقريباً، هناك باب حديدي عليه شباك معدنية، رائحة المكان خانقة تبعث على الغثيان وكأن هناك ألف حيوان تغوطوا هنا.

بتهالك شديد سحبت نفسي نحو باب الزنزانة وأنا اصرخ بكل ما في وسعي:

- أخرجوني من هنا، أريد ان أقابل أحد المسؤولين، هناك خطأ ما.

لم يجبني أي صوت عدا عن همهمات وأصوات خافتة تصدر من الزنازين المجاورة، هذا سجن ولا شك في ذلك ولكن ما الذي حداهم إلى القبض علي بهذه الطريقة، وبدون مسوغ قانوني. هناك شيء ما خطأ، ربما ظنوني شخصاً أخر ولكن هل يتم القبض على الناس بهذه العشوائية المفرطة.

عدت أصرخ منادياً احد لكي يأتي إلي عدة مرات، ولكن لم أسمع أحد يجيبني ، قبل ان يعلو صوت أحدهم من إحدي الزنازين قائلاً:

- إخفض صوتك، لو أغضبتهم سيأتون لعقابك.

- أنا أريد الخروج من هنا، لابد أن هناك خطأ ما.

أتاني صوته خافتا هذه المرة وهو يقول:

- هؤلاء لا يخطئون ، طالما أنت هنا فهناك سبب بالتأكيد.

- أين نحن؟ ما أسم هذا السجن؟ أريد الإتصال بمحامي.

- أخفض صوتك، أشعر بهم قادمين.

- أريد أن أخرج.

لم يجاوبني وشعرت بوقع خطوات مسرعة قادمة بالممر، يبدو أن أحدهم قد أنتبه لحوارنا فقدم غاضبا وشعرت بصوت باب الزنزانة المجاورة يفتح وأحدهم يصرخ بالسجين الذي كان يحادثني.

- ألم أنبه عليك الا تتحدث مع أحد، أنت تحتاج إلي من يذكرك دوماً.

سمعت بعدها أصوات عنيفة وكأن هناك عظاما تهرس وصوت صرخات الرجل المتألمة تصدر عنه طوال بضعة دقائق قبل أن يختفي الصوت تدريجيا وتعود الخطوات لتقف أمام باب زنزانتي، تراجعت في حذر ،هؤلاء الرجال لا يعرفون المزاح، رأيت عينان مخيفتان لرجل ينظر من خلال السلك المعدني وهو يشير بسبابته على شفتيه في علامة واضحة لي بأن ألزم الصمت، تساءلت في نفسي هل أتجرأ وأحادثه أني أريد معرفة سبب وجودي هنا و أين أنا ولكن ما سمعته منذ قليل لم يكن مشجعاً، إذن لألزم الصمت الآن.

بدا أن الرجل قد فهم أني قد استوعبت الدرس دون أن يحتاج إلى أن يستخدم يديه فتركني وانصرف وهو يضرب بعصاً حديدية على أبواب الزنازين محدثاً صوتاً يجمد الدماء في العروق.

قدرت من ضرباته أن هناك نحو عشرة زنازين على الاقل من حولي، هل يا ترى هناك عدد آخر من الزنازين في مكان آخر، أم أن هذا السجن صغير الحجم فيشملنا فقط.

عدت إلي مكاني وأنا اجلس في وضعية الجنين وأضم يداي حول أقدامي محاولاً التفكير، لم أستطع التفكير بوضوح لكون رأسي لا يزال يؤلمني من الضربة التي أصابته، شعرت بأني قد عرفت سبب قلقي المبهم من قبل، كانت هذه غريزة الشعور بالخطر، أنا الآن محتجز في مكان مجهول بسبب جريمة لا أعرفها بعد.

بعد عدة ساعات على هذا الوضع، شعرت بضوء النهار ينسحب تلقائيا من المكان والعجيب أنهم لم يشعلوا أي إضاءة إصطناعية لإضاءة المكان ولو حتي في الممر، هذا السجن غريب، لا يتمسكون حتي بأبسط القواعد المعمول بها في السجون التقليدية.

شعرت بالذنب تجاه الشخص الذي تعرض للضرب بسببي، فتحسست طريقي وسط الظلام حتي وصلت للباب، ثم بصوت هامس قلت:

- أسف علي ما أصابك بسببي.

لم يجبني، قدرت أنه إما غاضباً مني أو خائفاً من الإجابة، ولكن بعد دقائق سمعت صوت القرآن يأتي من زنزانته، كان يقرأ سورة (طه)، صوته كان جميلاً عذباً ولكن به حشرجة، لا بد أن الضرب قد أثر على مخارج الصوت لديه، إستمعت له وصوت القرآن ينساب لينير هذا الظلام من

حولي، مع الوقت توحدت أنا والسورة في كيان واحد فكأنني اعيش مع الكلمات ساعة النزول.

ما إن أنتهي من قراءة السورة حتي قال لي:

- لا داع للاسف، لقد تعودت علي ذلك.

- هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

- لم أعد أحصيها، أظن بضعة شهور.

- ما جريمتك ؟ أقصد ما تهمتك ؟

- جريمتي أننا ولدت في البلد الخطأ

صمت للحظة قبل ان يقول:

- وما تهمتك انت؟

- لا أعرف حتي الأن.

- و أنا ايضا وأظن كل من بالزنازين كذلك، لا ندري ما التهم التي جئنا بها هنا.

- ألم تقدم للتحقيق حتى الأن ؟ ألم ترى محامي؟

- يا أستاذ، يبدو من لهجتك أنك لست عراقي، أتظن أنهم سيأتون للتحقيق معك، أنت لست هنا في سجن عادي، هذا ليس سجن حكومي.

- ما هذا اذن؟

- انه سجن خاص، لا يوجد في السجلات، الحكم صدر فعلاً عليك طالما أنت هنا، لن تري نور الشمس مرة أخرى، ستخرج من هنا في حالة واحدة فقط، إذا كنت ميتاً.

صعقتني كلماته فتراجعت للوراء غير مصدق، لا يمكن ان يكون هذا حقيقي، ربما هو يمزح معي ولكن الرجل كلماته جدية وصوته لا يعرف الهزل، أعرف الإنسان الجاد حينما يتحدث، إذن هذا كابوس ثقيل أتى لينغص

نومي، ولكن منذ متى كان للكابوس ملمس، هذه الجدران الرطبة ور ائحة العفونة الظاهرة، منذ متى كان الكابوس كامل التفاصيل هكذا.

سقطت رغما عني على الأرض وأنا اضم يداي حول قدماي وكأنما احتمي من شيء ما حولي، هل هذه هي النهاية، لقد كان الاختطاف رحيماً بي، علي الأقل كنت أعرف أنه إما سيؤدي إلي موت سريع أو إفراج بعد وقت، أما الأن فأنا في سجن خاص غير رسمي، لجرم لا أعلمه ولن أعرفه ابداً لوقت مفتوح ينتهي بوفاتي، اللهم عجل بوفاتي اذن.

لا أصدق أنني لن أري عالمي الذي تركته بالخارج مرة أخرى، تداعت أمام عيوني كل من عرفتهم وعرفوني طوال حياتي، كل البلدان التي طفت بها، كل الأصدقاء الذين عاشرتهم، كل الذكريات الحلوة في حياتي ثم جاءت صورة (زمن) وبعدها (علياء) وأخيراً إنزاحت كل الصور لتأتي صورة أمي.

معقول أنني لن أري امي مرة اخرى، لن تتكيء علي في أخر سنين عمرها لتواصل المسير، لن أضحكها ولو حتي لحظات بعد ان احزنتها لسنين.

هل معقول أن إسم (أنور الرفاعي) سيختفي من الوجود، بالتأكيد هناك من يبحث عني الآن، شركتي وأصدقائي بالعراق، لابد أن (زمن) ستفعل وستتحرك مع الوقت حكومة الأردن من أجلي.

ولكن أنا لست مختطف، أنا سجين في مكان يخضع لجهة أمنية أو حكومية ما، وهذا يعني ان محاولات البحث عني ستكون شكلية، لأنهم سيبحثون في المكان الخاطيء، ليس هناك من خاطف لتتبعه ولا عصابة للقبض عليها، لن تكون هناك رسائل أو مكالمات من أي نوع، سأصير لغزا محيراً، سيحاولون حله لأيام وأسابيع وربما شهور قبل أن ينفضوا عنه إلى لغز أخر اكثر سهولة.

سأصير زكرى

ثم تاريخاً

رغما عني انحدرت دمعتان ثقليتان من عيناي قبل أن يبتلعهما فمي، دموع مالحة صعبة، ما أثقل الحزن علي الرجال.

تذكرت فيلماً شهيراً يسمى الآخرون، كان من بطولة نيكول كيدمان ويحكي عن عائلة من الأشباح تعيش في منزل بشر دون أن يدرون أنهم هم الأشباح حيث كانوا يظنون أنفسهم أحياءً، ما جذب إنتباهي في ذلك الفيلم هو تلك الخادمة الخرساء والتي كانت شبحا أيضا، لقد أصيبت بالخرس حينما انتبهت أنها قد ماتت دون أن تشعر بذلك، بدون مقدمات، لقد قالت في دهشة:

" لقد متنا"

ثم صمتت إلى الأبد، هكذا حياة البعض تنتهي في لحظة دون أن ياخذوا حذرهم، لا وقت لإصلاح الخلافات أو لتوزيع الميراث، لا وقت لأمنيات أخيرة غير محققة، لا وقت لنظرة وداع أو قبلة حانية، لا وقت لكتابة وصية أو إعادة حقوق، لا وقت لكلمة أسف أو حتى شكراً، فقط تنتهي دون أن تدري أن الوقت قد نفذ منك.

أنا في نفس موقفها.

سجين في غضون لحظات، إنتقلت من شمس الحرية إلي ظلمة القيود، لا وقت ولا فرصة للعودة، وليس هناك من أمل بالخروج الا لو قامت ثورة بالعراق تنهي الوضع الراهن وهيهات هيهات أن يثور العراق الأن وكل الأشرار جاثمون على صدره.

مضت بي أفكاري وذكرياتي بحلوها ومرها حتى أتى شعاع النور يحمل يوماً آخر ويضيء الزنزانة نوعاً ما، أتمنى ألا يطعموني هنا أي شيء، أريد أن

أموت، الحياة هكذا لن تصلح، لا يمكن أن أستمر هنا إلى الأبد، أتى أحد السجانين، غير الشخص الذي الزمني الصمت، ألقي بطبق فيه كسرة خبز وقطعتي فلافل من تحت الباب الي زنزانتي، كانت رميته قوية حتي أنها قلبت الطبق رأسا على عقب.

علي عكس تجربة اختطافي حينما كنت أكل ما يقدم لي، لم اشعر بأني أريد الطعام، فتركته وعشت مع ذكرياتي مرة اخرى، مر الوقت علي ثقيلاً ولكني تعودت علي الاحتجاز فرحت أحاول أن أزجيه بالذكريات.

تأملت الزنزانة عدة مرات، هناك بصيص ضوء يأتي من بين فرجات نافذة الباب بسلكه المعدني ومن نافذة أخرى أصغر حجماً في الجدار، لا أتنسم أي هواء متجدد وذلك يدل علي كون نافذة الحائط لا ترى سوى جدار أخر، لا يوجد فراش أنام عليه وبالتأكيد لن يكون هناك أي واحد في المستقبل، هنا لا يوجد تفتيش على السجون ولا جمعيات حقوق إنسان ولا حتى ضابط رسمي يحتجون إليه، توسدت يدي اليمنى وألتحفت بيدي اليسرى متمثلاً بالمسيح وكأنني ملكاً في زمانه ولكنه ملك منزوع العرش تاه من جيشه فتوسد ظل صخرة في صحراء، وغصت في نوم ظننته طويلاً، ولكن حينما أستيقظت كان الضوء لا يزال هناك، مازلنا بالنهار، ما لم أدركه سوى بعد ساعات من استيقاظي أن السجن الإنفرادي ليس كالسجن مع آخرين، نعم ربما أكون قد نجوت من مخاوف الاحتكاك والشجار مع السجناء الآخرين ولكن ثوان وسنين السجن الأنفرادي أطول من ذاتها في السجن الجماعي، في تجربة الإختطاف مر علي الوقت سريعا لأني كنت اتوقع إنفراجة قريبة ولكن الوضع هنا مختلف فشعرت بالملل سريعاً.

شعرت بالسأم يتسرب إلي سريعاً، لا يوجد كتاباً لأقرأه ولا صوت لأسمعه ولا أحدا لأخاطبه، كم أفتقد بذاءات وإهانات الحراس الآن التي

يسمع عنها في السجون لربما رفهت عن نفسي وكسرت من حدة ذلك الفراغ القاتل الذي أعانيه، لا توجد حتي ساعة بيدي لأعرف الوقت، انتبهت هنا أنهم ساعة ألقوني بالزنزانة إنتزعوا مني ساعة يدي ونقودي وحافظتي وكل شيء ذو أهمية لي، فقط الميت هو من يجرد من كل شيء و أنا في عرف هؤلاء في عداد الأموات.

غيرت وضعية جلستي، جلست القرفصاء، تأملت، فكرت، إسترجعت كل ذكريات حياتي منذ طفولتي حتي هذه اللحظات العصيبة الكئيبة، إبتسمت ثم بكيت ثم قهقهت حتي أستلقيت علي ظهري في تلك الزنزانة الضيقة، كل هذا ولم يمضي سوي يوم وليلة علي منذ حبسوني في هذا المكان، كنت أنتظر الليل بفارغ الصبر لأتبادل بعض كلمات مع زميلي في الزنزانة الأخرى، شعرت أن تلك اللحظات أثمن من مقابلة ملك الأردن ذاته في تلك اللحظة، تساءلت في قرارة نفسي كيف صبر النبي يونس علي الوحدة داخل بطن الحوت، تعجبت من نفسي وجرأتي في الخيال و أنا أقارن نفسي بنبي الله يونس (عليه السلام)، وزجرت نفسي قبل أن أن تقارن ذاتها بنبي الله (يوسف الصديق) أيضا فهو الآخر كان سجين.

سمعت أن الكثير من العظماء كانوا من قبل سجناء، نيلسون مانديلا قضي ثمان وعشرون عاماً في سجن، وكان معظمها سجنا انفرادياً، والكاتب منصف المرزوقي الذي صار اول رئيس لتونس بعد الثورة قضي ست سنوات حبساً انفرادياً كذلك، وماذا عن بناظير بوتو رئيسة وزراء باكستان السابقة، كيف تغلب امثال هؤلاء على مرارة وكآبة السجن الإنفرادي، كيف تمكنوا من البقاء والخروج بمثل تلك الصلابة، هم إما ليسوا بشراً أو أنا اضعف مما كنت أظن نفسي.

مرت اللحظات قاتلة مملة، من قال الوقت كالسيف لم يفصح عن المعني الخفي لكلماته، الوقت فعلاً سيف بطيء الذبح لسريعي الملل، كنت أشعر بالملل في حياتي قبل السجن حتي لو تواجدت في أسعد الأوقات ومع أمتع الأصدقاء، فكيف بي الآن و أنا في هذا المكان المؤبد علي سكناه،لسوف أموت من الفراغ قبل غروب شمس اليوم التالي إن لم اجد من أتحدث معه عجبت من نفاذ صبري بعد ساعات قليلة وكيف أنني صبرت على الاختطاف أياماً أطول ولكن فيما يبدو أن رصيد القوة الذي كان لدي على الصبر قد أستنفذته أيام الإختطاف فلم يعد لدي أي رصيد متبق.

وددت لو ذهبوا بي إلي التحقيق حتي ولو صوري لربما أستمتع به، ربما أستمتع حقا بكلمات واتهامات المحقق ولا بأس من رؤية الوجوه الظالمة للحراس، لكن هيهات أن يحدث لي ما تمنيت، لقد أيقنت الآن أنني هنا معلق بلا أمل علي الإطلاق، مرت اللحظات ثقيلة، أحسست أنني شخت فجأة، وددت لو وجدت مرآة ، كيف حال شعيراتي البيضاء الأن، أظن أن الحديقة أصبحت كلها ورود بيضاء كصفحة من الثلج علي قمم جبال الألب.

شعرت بالرغبة في قضاء حاجتي وتلبية نداء الطبيعة، أكثر ما ينزع هيبة السجين أمام سجانه هو ذلك الأمر، ما الذي علي فعله الآن، هل أصيح وأطلب منهم الذهاب للمرحاض أم أتصرف في مكاني مثلما فعلت أثناء إختطافي السابق، إنتبهت إلي أن مصدر الروائح الكريهة بالمكان هو حفرة صغيرة بحجم قبضة يد رجل بالغ أخر الزنزانة تمتد لمسافة معقولة، مطلوب مني أن أتعامل مع هذا الحفرة علي أنها مرحاض،كانت الحاجة تقتلني، لذا فعلت ما توجب علي فعله، لا يوجد ماء لأستنجي به من قضاء الحاجة، شعرت بالظمأ الشديد، لم يحضروا لي ماء منذ الأمس، إقتربت من الباب و انا أصيح بصوت غير عال:

- أريد ماءً.

لم يجاوبني أحد، ولكن صديقي المخلص في الزنزانة المجاورة لم ينهرني أو ينهاني عن هذا، لربما هو مسموح طلب الماء، عدت أنادي بأعلى صوتي:

- أريد ماااااا

بعد عدة نداءات كدت أيأس من جدواها أتي أحد السجانين سريعاً وهو غاضب بيده اليمني دلوا من الماء كبيراً علي غير العادة وبيده اليسرى عصا حديدية غليظة، فتح باب زنزانتي بسرعة وهو يلقي بالدلو علي الارض فأنسكب الكثير منه وهو يقول:

- خذ هذا ولا اسمع صوتك لأسبوع.

قال كلمته وأعقبها بضربة قوية علي كتفي كادت أن تخلعه، كان قصيرا ولكن متين البنيان، تراجعت و أنا أمسك بذراعي متاوهاً ليعاجلني بعدة ضربات اخرى علي عدة أماكن متفرقة من جسدي قبل أن ينصرف ويغلق الباب من خلفه ويمضي.

علمت الآن أن طلب الماء مسموح ولكن بثمن، عليك دفع جزءً كبيراً من كرامتك وبضع جروح في جسدك وجدار نفسك بسببه، إذن لأقتصد من شرب الماء.

هذا الدلو في الأحوال العادية يكفيني لثلاثة أيام ، لأجعلها أسبوعا كما طلب و أقتصد من شربه، مددت يدي وملئتها بقليل من الماء لأشربه، كان ذو طعم غريب، بالتأكيد لن يكون ماءا معدنياً صافياً.

حل الظلام ببطء شديد، سمعت صوت زميلي في الزنزانة الأخرى يقرأ القرأن كعادته،كانت هذه المرة سورة (يس) إستمعت له في تلذذ،

وشعرت أني اريد للحظات السكينة هذه أن تدوم إلى الأبد ، حينما انتهى قلت له:

- أحسنت يا شيخ.

جاوبني بإندهاش :

- لست شيخا، انا بالمناسبة لست متديناً ولكن تلك السور تحفظ لي البقاء علي قيد الحياة دون أن تكسر عزيمتي.

- ما أسمك؟

- هل سيفرق معك؟

- ربما،حتي انا ديك به، إسمي أنا (انور الرفاعي)

- أردني؟

- فلسطيني أردني.

- كلنا في الهم عرب، السجن هنا اغلبه عراقيون مع بعض المصريين والشوام ور أيت المانيا ذات مره ولكنه لم يدم معنا طويلاً.

- هل أطلقوا سراحه؟

- بل اطلقوا سراح روحه، لقد قتلوه يا رجل.

- هكذا بلا محاكمة؟

- لا زلت ساذجاً، هنا هم القانون وهم الجلاد وهم كل شيء، هل سمعت عن فرعون حينما قال أنا ربكم الأعلى، هم هنا يتصرفون كالرب الأعلى.

- أستغفر الله العظيم، لم تخبرني حتي الآن ما أسمك.

- إسمي لن يهمك في شيء، بل ربما يضرك معرفته، هم هنا يبقون هوياتنا سرية خوفا من أن يهرب أحدنا بشكل ما ويشي بأسماء المسجونين، صدق أو لا تصدق، هناك أشخاص مهمين بيننا، رجال

جيش سابقون، ضباط مخابرات، صحفيين، سياسيون، استاذة جامعات، بل حتى علماء نوويون، وهناك رجال دين كذلك من كلا الطائفتين شيعة وسنة.

- من يدير ذلك السجن ؟

- من تظن بقادر أن يحبس العراق بكل مكوناته وأطيافه في مكان واحد؟

طافت الإجابة سبع مرات في عقلي دون أن أفصح بها قبل أن أسأله:

- ولكن ماذا عني أنا، أنا ليس لي في السياسة ولا الشأن العام أو الخاص في العراق، أنا مهندس أردني مغترب.

- بالتأكيد فعلت شيئا أغضب أحدهم فسبب قدومك إلى هنا.

كلماته جعلتني أفكر، بالتأكيد هناك سبب وجيه لوجودي ها هنا، أنا أغضبت أحدهم وبشدة فتسبب في إحضاري إلى هنا،لم أكن أحتاج للكثير من الذكاء حتي أتفكر في أسم واحد فقط ربما يكن لي البغضاء ويملك من النفوذ ما يستطيع به فعل ذلك.

(فائز غزوان)

الرجل الذي لم أراه ولا مرة في حياتي، أقتربت فقط من طليقته وأنا أظن أن الأمر سيمر عليه بلا عقوبة، فتسبب لي بأن أفضى بي إلي ذلك السجين الرهيب حيث الأمل مسجون معنا كذلك.

عدت أسال السجين المجهول:

- أريد ان اعرف اسمك.

- يا أخي أمرك عجيب ما يهمك من اسمي، سمني (عثمان) أو (جورج) أو(حيدر) سمني حتى (مروة) كلنا هنا سجناء، العراق كله مسجون يا أخي، سمني (بغداد) فبغداد الأخرى أسيرة.

- هل لك أسرة؟

- وهل تظنني نبت من الفراغ، لي زوجة و أبناء لن أراهم مجددا، لي أم ستموت دون أن أدفنها أو أشهد جنازتها، لي أخت ستتزوج ولن أشهد زفافها، ماذا نقول ، حسبنا الله ونعم الوكيل.

- حسنا، لا عليك، لا داع لغضبك، هناك زنازين أخرى هنا، هل تعلم عدد المسجونين، ولماذا أشعربهم كلهم صامتون؟

- أنت رأيت عقوبة الكلام حتي الآن، كل الزنازين مشغولة، عددنا لا أعلمه ولكن السجن ليس صغيرا، هناك أكثر من مائتي مسجون على أقل تقدير.

إستمررت أجاذبه أطراف الحديث حتي أنتهى حبل الكلام بيننا، لم يحدثني عن حياته ورفض ذلك رفضاً باتاً بل رفض أن يسمع مني وعن حياتي وكيف وصلت إلى هنا، قال لي أن المعرفة هنا خطر و أنه نادم حتى أنه قد عرف مني أسمي.

في اليوم التالي مر بي اليوم طويلا كمثل سابقه، جاء السجان بطعام مثل الأمس يهم بالقائه إلي وحينما انتبه أنني لم ألمس طعام الأمس أعاد الطعام مره أخري ومضي وهو يرسل لي رسالة واضحة، إن لم تأكل القديم فليس هناك من جديد، فأنطلقت إلي الخبز الذي يبس والفلافل التي فسدت فتناولتها رغما عني مما سبب لي مغصا ثم إسهالا رهيبا عانيت منه طوال اليوم.

عند الغروب تقريبا شعرنا بحركة قادمة، صوت أقدام عديدة مع صياح ياتينا من بعيد قبل أن يقترب ملقيا الرعب في النفوس، إقتربت من السلك المعدني محاولا رؤية ما يحدث، كانوا خمسة حراس، معهم أسلحة نارية، إنطلقوا يفتحون أول زنزانة، سمعت صوت إطلاق نار ثم صرخة، بينما تناوب إثنان علي حمل السجين الذي قتلوه خارجها، فتحوا الزنزانة التالية، أطلقوا عدة رصاصات، لابد أن السجين كان يهرب منهم فلم يصيبوه من أول مره، ولكن هيهات أن تهرب في زنزانة عرضها متر حتي لو من قاتل أعمى، فعلوا به مثلما فعلوا بزميله، قبل أن ينصرفوا وسط صمت الجميع، تناهي لي صوت بكاء من إحدي الزنازين، لا اعرف هل يبكي فرحاً لنجاته أم يبكي رعباً لدنو الموت منه أم يبكي حزناً لمفارقة زميل يعرفه، ولم أحاول المعرفة.

إنتظرت حتي دنو الليل ثم تسائلت من صديقي المجهول :

- لماذا قتلوهم ؟

- الأسباب كثيرة، ربما جائتهم أنباء بتصفية هؤلاء حتي يقطعوا ذيول البحث عنهم، ربما لم تعد لهم أهمية بالخارج، وأخر سبب وهو المنطقي أن هناك سجناء جدد علي وشك الوصول وهم بحاجة للمكان فينتقون بعض العناصر التي ليس لها أهمية لقتلها، في الحالة الأخيرة الموضوع يكون مرعب لانهم يختارون عشوائياً.

- و أين يدفنوهم؟

- لا اعلم ، أي صحراء كافية، العراق بلد المقابر الجماعية علي أي حال وهناك اكثر من نصف مليون عراقي تم دفنهم جماعياً بدون قبور ثابته خلال الخمسين عاما الماضية، ربما لن يدفنوهم ويكتفوا بحرق الجثة أو إذابتها

بالأحماض، لهم الله على كل حال، هؤلاء لم يموتوا، بل تحرروا من موت اللحظة الراهنة الذي نحن فيه.

- لا حول ولا قوة الا بالله.

لم أشعر برغبة في إستمراري في الحديث معه وشعرت بغصة تجتاح كل جوارحي، أشعر أني أريد أن أتلاشى فلا أسمع ولا أرى ولا أتكلم ولا أشعر بأي شيء، أريد أن أتوحد مع اللاشيء الآن،كل هذا الظلم أراه بعيني وأصبح جزءا منه نوعاً ما، أي انحدار بلغته الانسانية في بلد الخمسة الآف عام من الحضارة.

مضي بنا الليل وسمعت صوت الرجل يقرأ القران بشكل متقطع، كان يصلي هذه المرة، حينما إنتهى سألته:

- كيف تتوضأ والماء شحيح؟

- أتيمم بلمس الغبار علي الأرض

- وهل هذا يجوز؟

- وهل حبسنا في هذا المكان يجوز، وهل الموت الذي يبيت معنا كل يوم يجوز، وهل العراق المنسي من ذاكرة البشر يجوز، يا أخي لا تزد علينا.

صمت للحظة، شعرت أني أريد أن أقترب من الله أكثر، فعدت أساله:

- هل أطلب منك شيئا؟

- لو بإستطاعتي.

- علمني تلاوة القران الصحيحة

- حسنا ولكن الأمر سيأخذ منك وقتا ولا أعلم كم من الوقت بقي بيننا فحاول الإستيعاب بسرعة.

- لا تقلق، الله المستعان.

- حسنا يا سيدي، لنبدأ الآن، أنصت جيداً، وردد ورائي (بسم الله الرحمن الرحيم)

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

انطلق الرجل يعلمني تلاوة الآيات ويراجع ما أقول ويصححه ثم يشرح لي بعض أحكام التلاوة ويعيد القراءة ثم يتابعني، والحق أن الموضوع كان اصعب مما توقعت، ربما قلبي ليس جاهزاً بعد وحينما وجدت أني قد اطلت عليه ، شكرته علي وعد بأن نكمل غداً.

في اليوم التالي، شعرت بهم يحضرون أشخاص جدد للزنازين التي كانت قد خلت، كنت أحاول تخيل المنظر المفزع الذي سيواجه هؤلاء الجدد وخصوصا أني أعرف أن هناك دماءا ربما قد سالت علي الجدران والأرض ولم يكلف الحراس أنفسهم عناء تنظيفها.

أتي الحارس لي بالطعام، نفس كسرة الخبز والفلافل، ألقاها بنفس الطريقة ولكني أسرعت ألتقطها بسرعة قبل أن تنقلب رأسا علي عقب

تبدو الفلافل رغم ذلك لذيذة الطعم، هل هو الجوع الذي يوحي لي بذلك،أم أنها ندرة الطعام، لا أدري ولكن كل شيء أصبح لذيذا ومستساغاً على غير العادة، الفلافل والخبزوحتى ذلك الماء الغريب.

بدأت اشعر أن رائحتي أصبحت كريهة وأخذت أحك أجزاء من جسدي بين حين وآخر، كان التنفس كذلك صعباً، وعلمت أني مع الوقت معرض لكثير من الأمراض، بالتأكيد المرض سيقضي علي، فليس بهذا السجن من مكان للمرضى، لربما يقتلوني ليوفروا مكانا لآخر.

في الليل تابعت دروس التلاوة مع السجين المجهول ، ودامت بيننا تلك الدروس ساعات قبل ان يقول لي:

- رأيت لك رؤيا بالامس.

- خيراً.

- بإذن الله خير، حلمت أنهم اخرجوني من هنا حراً، وأنك لحقت بي بعدها بفترة ما، وتقابلنا فيما بعد في حديقة غناء علي صفحة نهر جارٍ رائع الصفحة

- يا بشراك يا شيخنا يا رب ،اللهم أجعله خيرا

نمت وأنا اشعر بالسعادة لتلك الرؤيا، كنت أصدق في طيبة وصفاء نفس ذلك الشاب الذي لم أراه في حياتي حتي الأن وأستبشرت أن الفرج قريب

في اليوم التالي كنت أشعر أني أقوي وعزيمتي أمضي، حتي أنني اخذت أصلي طوال النهاروأسترجع ما حفظته من القران وأنتويت إن أخرجني المولى من محنتي ألا أقطع الصلاة فيما بعد وكنت صادقاً تماماً في وعدي هذا .

مع إنتصاف اليوم، شعرنا بنفس الحركة المريبة التي تصدر من الحراس، نفس صوت الموت القادم علي عجل، تصايح السجناء وبدا الخوف على النفوس، من منا سيكون التالي؟

إقتربت بحذر من السلك المعدني، رأيت الحراس يقتربون من زنزانة غير بعيدة،فتحوها بعنف وأطلقوا النار علي أحدهم قبل أن يحملوه خارجاً، ثم فتحوا الزنزانة التي بجواري، كانت زنزانة الشيخ المجهول، ذلك الزميل الذي أنسني خلال الأيام القليلة الماضية، لم يصرخ بل فتح فاه بكل ما فيه وهو يقول:

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه .....

لم يكمل باقي تلاوته إذ عاجلته رصاصات سريعة متوالية لتسكت صوته وتسحب روحه إلي بارئها قبل أن يقتادوه إلي الخارج سحباً، حاولت أن أري وجهه فلم أفلح، ورأيت ساقيه فقط، عادوا إلي زنزانتي، تراجعت للوراء وأنا أبكي.

الأن حانت نهايتي

إنتهيت يا (أنور)

هم أحدهم بفتح الزنزانة قبل أن يقول له زميله:

- لا ،دعك منه، نحتاج زنزانتين فقط اليوم.

سقطت علي الأرض و أنا اتكور علي نفسي مثل الجنين في بطن أمه، وبكيت ما طاب لي البكاء حتى غابت الرؤية من أمام عيني.

مر الوقت حتي جاء الظلام علينا، لم أتحرك من مكاني، اليوم ليس هناك من دروس ليلية، فمدرسنا العزيز بين يدي الله.

لقد صدق في جزء من رؤيته ،لقد تحرر ولكن ليس الحرية التي كنت اتمناها له، لقد تحررت روحه على الأقل وإن لم يتحرر جسده، وبقيت بإنتظار الجزء الثاني من رؤياه، أن الحق به،قال لي بعد فترة ما، لم يحدد أو لم يعرف، ربما الحق به غداً أو بعد غد، ربما بعد شهر أو سنة، من يدري، ولكن مكان اللقاء واحد، جميل أن يجمعنا أنا و اياه مكان واحد، إني لاحسبه من الصالحين و أتشرف بالذهاب معه إلي مكان اللقاء الأخير بدون خوف.

مرت بي الأيام قاسية رتيبة بعدها، لم تعد بنفسي شهية طعام، كنت أكل يوماً و أترك يوماً وأشرب فقط ما يكفيني للبقاء علي قيد الحياة.

وجدت لحظي قطعة صخر حادة مدببة في ركن الزنزانة، ربما تكون قد خلفت من أثار البناء، أمسكتها وأخذت أخط خطوطا غير ذات معنى على الحائط، زفرت وتنهدت في حسرة، أرغيت وأزبدت في كل شيء يمكن أن يقال وألقيت باللعنات والشتائم على الجميع ثم صرخت و أنكتمت ونمت في مكاني

لم أكن أخشى غضب الحراس، ما الذي سيفعلونه بي أسوأ مما أنا فيه، يضربوني، أم يقتلوني، كل النهايات سيان لدي ولم أعد أكترث لها.

كنت أعلم أن بعض السجناء يعاني من السجن الجماعي فيفتعل مشاكل حتي يعاقبوه فيحولوه الي السجن الانفرادي، فما المشكلة التي يجب أن أفعلها هنا حتي أعاقب بالخروج الى السجن الجماعي، إنتبهت الي سذاجة تفكيري، فليس هناك من سجن جماعي هنا، فقط قبور جماعية هنا، اما العيش وحيدا أو الموت مع آخرين، ولك الخيار في ذلك.

في الأسابيع التالية حاولت أن أبدو أكثر تماسكاً، تذكرت كل من قرأت عنهم من العظماء وكيف مرو من عناء السجن و أنتصروا علي قهره النفسي والجسدي وحاولت أن أتمثل بهم، ولكن من قال أنني عظيم، ما أنا الا ناسخاً لأفعال و أقوال الآخرين، محاكاة العظماء لا تعني أنني عظيم ، وشتت من تركيزي أني أصبحت أشعر بهزال جسدي و انتشار الأمراض به ما بين جلدية ومعوية.

في الأسبوع الثالث ترجوت السجان أن يعطيني ورقا وقلماً، في الكتابة والرسم ما يسري عنه ويزجي الوقت الثقيل ولكن السجان تلذذ وهو ينهال علي بعصاه الحديدية ردا علي طلبي السمج، فعدت أجتر ذكرياتي القديمة والغريب أن معظمها ذكريات من صباي، حيث كنت تعلم أن هناك أب وأم يحميانك وحينما كانوا يعلمونك أن تشتكي لحضرة الضابط في حال وجود مشكلة ، قبل أن تنتبه حينما كبرت أن الشكوي للضابط مشكلة في حد ذاتها ثم تتيقن أن الضابط هو أصل كل المشكلة في بلادنا .

كل ليلة ويوم علي هذا الحال، ذكريات تأتي وتروح، هذيان من كلام وفعل، ورسومات كثيرة علي الأرض والجدران أخطها بالحجر المدبب.

بدأت بعدها أبتسم لسجاني عسي أن يبادلني كلمات قليلة لأشعر فيها أن بإمكاني القدرة علي الكلام ولكن السجان كان صامت كحجر جبل أصم، وإن جاوبني أتاني سباب لا ينقطع مع ضربات متتالية تخرس نفسي.

حينما أكملت شهرا في المكان وفي الليلة الثلاثون من هذا العذاب رسمت ظلا كبيرا لأمي علي الأرض ونمت علي صدرها، وددت لو حبسوني في رحم أمي، فهذ المكان الوحيد الذي لن أشعر فيه بالوحدة، رحم الام هي الوطن الوحيد الذي تتمتع فيه بكل الحقوق وتتجرد فيه من كل الواجبات.

في الليلة الثالثة والثلاثون رسمت زهوراً وطيوراً على الجدار لعلها تبدد قتامة المشهد ثم شعرت بالذنب أنني قد حبست الطيور والزهور معي في الزنزانة حتي لو كانت مجرد رسوم.

في الليلة السادسة والثلاثون محوت صورة أمي من علي الأرض ورسمت أفاعي وعقارب في كل مكان من الغرفة في الليلة السابعة والخمسون رسمت دائرة ليس بها شيء على الجدار وأخذت أحدق بها طوال الوقت.

في الليلة الثامنة والسبعين رسمت شاهد قبر على الأرض وكتبت على ذلك الشاهد (أنا).

في الليلة التاسعة بعد المائة لم أرسم شيئاً، كان جسدي قد هزل كثيراً خلال الثلاثة شهور الماضية واصابتني بعض الامراض الجلدية، طالت لحيتي حتي أخفت معالم وجهي، و انتشرت القذارة في كل أركان جسدي، بدأت أشعر بعدم القدرة على التفكير، حتى أنني أصبحت أردد كلمات متناقضة أعرفها حتى لا أنسي أنني أستطيع الحديث.

قتلوا الكثيرين خلال المائة يوم الماضية ولكن الحظ التعس أم السعيد لا أدري بأيهما أصفه كان يتجنبني في كل مرة.

حتي جاء اليوم الحادي عشر بعد المائة.

شعرنا بأصوات جلبة عاتية في المكان، قبل أن تتصاعد تكبيرات عديدة وصيحات فرح من أرجاء السجن الذي بدا أنه كان كبيرا بالفعل ويحتوي الكثيرين، هناك صوت لمركبات عديدة في المكان.

لم أفهم الأمر،ولم أتحرك بسرعة لفهمه وإن كنت أصغيت السمع كثيراً، هل تحرر العراق، هل قامت ثورة؟، هل تغير الحكم؟، لا أدري، ولكن في الأمر فرحة قادمة لا شك.

شعرت بالباب الرئيسي يفتح، سمعت أصوات باللغة الانجليزية بلكنة امريكية ثقيلة تصيح في المكان، هل أتي الأمريكيون محتلي البلاد لإنقاذنا؟

شعرت بأبواب الزنازين تفتح والسجناء يخرجون، قبل أن أجد جندي امريكي يفتح باب زنزانتي ويشير إلي أن أخرج.

خفت في البداية وهززت رأسي مشيرا إلى رفضي للخروج قبل أن يطلق سبة بذيئةعابرة وهو يتقدم نحوي لينتزعني من مكاني ويخرجني، كان بعض السجناء قد أصابه الشلل من طول إقامته بالمكان فكانوا يحملونه مثل الطفل الصغير أو الشيخ العاجز.

خرج بي الجندي الامريكي الي ساحة السجن، لأول مرة ارى الشمس منذ سجنت، بهرني ضوئها في البداية، فأغلقت عيناي و أنا أصرخ و أتشبث بعنق الجندي، وكزني ليبعدني عنه، بعد دقائق أستطعت أن أفتح عيناي، السجانين قد ألقي القبض عليهم، تري ما سيكون مصيرهم، هل ستطوى صفحة الأمر بلا عقاب ككل الجرائم في العراق أم أن هناك عقاب ينتظر هؤلاء؟

السجناء يجرون هنا وهناك مهللين أو خائفين، منهم من تجرد من ثيابه كاملا أو تمزقت عنه، ومنهم من أحتفظ بهيئة جيدة، ربما لانه سجن منذ فترة قريبة.

وسط هذا الهرج والمرج الشديد، غافلت الجميع والتقطت سلاحا ألقاه أحد السجانين علي الأرض وصوبته نحوهم، لم ينتبه لي الجنود الامريكيين،

الأن يمكنني أن أنتقم لمائة وعشرة يوم من العذاب، الأن يمكنني أن أنتقم لعشرات أو مئات الشهداء ممن ماتوا ظلما، الأن يمكنني ان أنتقم للعراق.

ولكني لم افعل.

داعبت سبابتي الزناد ولكنها لم تفعل.

بل حملت السلاح وخرجت دون أن ير اني أحد وسط كل هذه الفوضي

أخفيت السلاح في ملابسي و أنا أسير في شوارع خربة حتى قاربت على ضواحي (بغداد) التي أعرفها، رأيت شاحنة من بعيد، أشرت لها ان تتوقف، رأف السائق لحالي فسمح لي بالصعود وأخبرته بوجهتي.

كان وجهي ور ائحتي يشيان أني متشرد، ولكن الرجل لم يتأفف من شكلي ولا من ر ائحتي، بل عرض علي ماءً وطعاماً وأخذ يسامرني ثم حينما لم يجد مني إستجابة أخذ يغني باللهجة العر اقية أغاني شعبية قديمة عله يسري عني.

ولكني لم أسمع منه أي كلمة.

كان عقلي يعود.

الأن تذكرت الجميع.

زملاء الشركة، (ابو حيدر)، جماعة البنك ، موظفي الفندق، أمي واختي وأخيراً (زمن).

ثم تذكرت (فائز غزوان)

الرجل الذي كاد أن يسلبني حياتي.

هذا الرجل هو الأجدر برصاصات سلاحي الآن.

انزلني الرجل قرب جسر الجادرية، كنت اعلم أني علي مقربة من بيت (زمن) أسرعت أحث الخطى له، وصلت بعد ساعة من مجهود مرهق ولولا الطعام الذي أعطاه لي الرجل لما أستطاع جسدي الصمود كل هذا الوقت.

وصلت للمنزل الذي كان كما هو بدون تغيير، لامست البو ابة الخارجية في شوق، هنا تسكن الحبيبة الغائبة، دفعت البو ابة التي كانت غير موصدة لحسن الحظ، إقتربت من الباب، طرقته في رفق، و انتظرت.

ترى من سيفتح لي، هل هي (زمن) أم ابنها أم والدتها.

ترى كيف تبدو (زمن) الآن ؟، هل أرهقها الحزن علي؟ هل تظن أني على قيد الحياة أم أني قد مت؟ ماذا ستفعل حينما تراني؟ هل ستحتضنني في فرح أم ستبكي على صدرى أم ستسقط مغشياً عليها من المفاجأة؟، ترى هل أبدو في هيئة جيدة الآن؟

لم أكن في حاجة للإجابة علي ذلك السؤال الأخير، فأنا بالتاكيد في حالة يرثى لها.

بللت راحة يدي بلساني في حركة مقززة ومسحت بها شعري وكأن هذا سيحدث تأثيراً ثم ابتسمت وطرقت الباب مرة أخرى.

طالعني وجه الأم العجوز أول شيء التي تراجعت في فزع وهي تقول:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

تلاشت ابتسامتي وارتبكت، تطلعت السيدة لي وكأنها تحاول معرفة من أنا، قبل ان يرتفع حاجباها في دهشة وهي تقول:

- (أنور) ، أنت حي؟

قلت لها وقد عادت ابتسامتي:

- نعم يا عمة، حي أرزق، أين (زمن)؟

ترددت للحظة قبل ان تقول لي:

- تبدو في حالة سيئة للغاية، تعال أدخل، اغتسل وكل شيئاً.

لم أرفض دعوتها وإن كنت لاحظت أنها لم تجب علي سؤالي، دخلت للداخل، أستئذنتها في إستخدام حمامها للاغتسال، فسمحت لي، دخلت

بسرعة الي الحمام ،خلعت ملابسي التي خرجت منها بعض الحشرات علقت بها من أثر السجن والتي أسرعت أدوسها بقدمي حتى لا تنتشر في المكان، وضعت ثيابي جانباً، نظرت للمرآة قبل أن أتراجع في فزع ثم أقترب في فضول متقزز.

أصبحت إنسانا أخر غير الذي كنت عليه من قبل.

شاب شعري كله، حتي غلب الأبيض على الأسود، شعري ذقني أيضا أغلبه ابيض، ملامحي قذرة للغاية ولا أكاد اتبين من أنا؟ لحسن الحظ وجدت ماكينة حلاقة كهربائية بالحمام، أسرعت أوصلها وأحلق شعر ذقني وعانتي وتحت إبطي، تناثر الشعر فيما حولي، شعرت بالخجل من حيوانيتي فعدت أجمعه وأضعه في المرحاض ثم أسحب الماء عليه حتى يختفي.

إمتلأ كتفاي وظهري بالشعر، فتحت ماء الدش حتي ينهمر، كان بارداً وشعرت أني بحاجة لماء ساخن، انتظرت قليلاً حتى دفء الماء ثم إنزلقت تحته في سرعة.

شعرت أني أستعيد أدميتي مع دفقات الماء الساخن وأن كل الأدران التي علقت بجسدي بدأت تزول، غسلت جسدي عدة مرات حتي شعرت أن طبقة جديدة من الجلد قد بدأت في الظهور وبدأ جسدي يتنفس من الأن فصاعداً هواء غير هواء الوسخ الذي عايشته.

حينما أنتهيت شعرت أنه ليس من اللائق أن أرتدي الملابس القديمة ذاتها، ولكن أم (زمن) أنقذتني من حيرتي وارتباكي حينما طرقت باب الحمام برفق وهي تقول:

- بني، جهزت لك بعضا من ملابس المرحوم أبو (زمن) ستجدها على الفراش حين خروجك، أنا انتظرك بالأسفل.

إنتظرت قليلا حتي تأكدت من ذهابها، جففت نفسي ثم خرجت وقد ربطت المحارم حول جسدي، رأيتها قد وضعت قميصا وبنطالا ومعطفاً لي، هناك حذاء علي جانب الغرفة لن يضيرلو استعرته كذلك لوكان مقاسي

أرتديت الثياب كلها ثم الحذاء، كان ضيقا جدا علي قدمي ولكن لابأس به، أفضل من السيرحافياً، نظرت مرة اخرى للمرآة.

كنت أبدو مثلما كنت أبدو منذ ثلاثة شهور ولكني كبرت عشر سنوات، عشرسنوات في ثلاث شهور، كم شيبتك بغداد يا (أنور).

أخرجت المسدس الذي استوليت عليه من بين ثيابي القديمة قبل أن ألقيها في سلة القمامة و أنزل للأسفل مسرعاً

حينما رأتني أم (زمن) إنحدرت دمعة من عينها سرعان ما مسحتها وهي تقول:

- أهلا بعودتك، أنرت الكون يا (أنور).

- أين (زمن)؟

عاجلتها بالسؤال، فأشارت إلى مائدة قريبة وهي تقول:

- أنظر، لقد حضّرت لك طعاماً بسيطاً، وهناك كوب ساخن من اللبن

كنت أشعربالجوع الشديد، جلست رغما عني الي المائدة، أخذت أكل ما تيسر لي ثم تجرعت كوب اللبن مرة واحدة، قالت لي بسرعة وقد وقفت تر اقبني بتوجس طيلة الوقت:

- هل احضرلك المزيد؟

نظرت لها وقد سائني أنها تسوف في الاجابة التي أنتظرها فتركت الطعام وقلت لها:

- أين (زمن)؟

ترددت للحظات فاقتربت منها وأمسكت بكفيها في غير رفق قائلاً:

- أين (زمن) يا عمتي ؟

نظرت إلى يداي القاسيتان وشعرت انني قد تماديت فارخيتهما و أنا أقول بتوسل:

- أرجوك أخبريني أين (زمن)؟

قالت وكأنها تغتصب العبارة من فمها إغتصاباً:

- (زمن) في بيت زوجها.

تراجعت مصعوقا لاتهاوى على أقرب مقعد لي و أنا أقول:

- زوجها، من زوجها؟

- (فائز)

- (فائز غزوان)؟

- نعم

- لماذا، لماذااا، لماذاااااااااااااااااااااااااااااااااااااا؟

اخذت أصرخ بالكلمة و أنا اضرب بيدي علي رأسي،أنا الذي كنت على وشك الزواج منها، نسيتني في أقل من ثلاثة شهور وذهبت مع من!!،مع طليقها، الرجل الذي أذاقها المر والعلقم، لماذا تنكرت لحبي وذهبت له مرة أخرى.

إقتربت مني السيدة وهي تربت علي كتفي قائلة:

- أهدا يا بني.

- كيف أهدأ و(زمن) قد عادت الي (فائز) من دون كل رجال العراق عادت مع (فائز) أكاد أجن.

- لم يكن لديها خيار، كانت محطمة بعد ان أخبروها بخبر وفاتك، لقد بحثوا عنك طويلا بعد اختفائك، أبلغوا كل السلطات، حتى السفارة الأردنية

تدخلت بشدة، مر أسبوعان دون جدوى، قبل أن يجدوا كل أور اقك الرسمية وجوالك قرب جثه متفحمة ضاعت معالمها، إنهارت المسكينة ساعتها ودخلت في نوبات بكاء وهستيريا أستمرت أياماً ثم اكتئاب بعدها، مع الوقت تعافت واصبحت أفضل وحينها ظهر (فائز) في حياتنا مرة أخرى، كانت هشة جدا وتستطيع تقبل اي شيء، فقبلت العودة له:

- (فائز) .... (فائز) !!!!!

- أعذرها يا بني، لقد تركت حتى العمل في الشركة.

نظرت لها قليلاً والغضب يجتاح كياني قبل أن ألتقط نفساً عميقاً و أنا أقل لها:

- أين يعيش؟

توجست شراً وهي تقول:

- بالله عليك، لا تسبب لها مشاكل، لا تؤذها.

- هي ستكون بخير، فقط أخبريني أين يعيش؟

ترددت قليلاً قبل أن تخبرني بالعنوان الذي وعيته بعقلي، غادرت البيت و أنا ور ائي هدف واحد فقط، الهدف الأخير في قائمة أهداف حياتي الآن.

أن أنتقم من (فائز غزوان)

كان الوصول إلى المكان صعباً على الأقدام، إضطررت إلي إستيقاف سيارة أجرة، أدليت له بالعنوان ثم صمت و أنا أتطلع الي الطريق طوال الرحلة، ما إن وصلت حتى خرجت من السيارة مسرعاً، أسرع السائق ينزل ور ائي مطالبا بالاجرة، نظرت له بهدوء قبل أن اخرج المسدس وأصوبه نحوه، تراجع وهو يقول في هلع:

- لا عليك، الأجرة وصلت.

تطلعت إلي الفيلا التي بدت أمامي، لا يوجد حراسة لحسن الحظ، تسللت الي الداخل، قبل ان أتوقف أمام الباب مفكراً للحظات، لم أشا طرق الباب، فدرت حول المنزل حتي وجدت نافذة مفتوحة دخلت من خلالها، كانت بالمنزل حركة لخادمة من جنسية أسيوية، لم أشا افزاعها كذلك ولكن تحركت بهدوء و أنا اتفقد الغرف كلها حتي وصلت إلي الطابق الأعلى.

كان بالطابق العلوي غرفتا نوم، واحدة للطفل، كان نائما هناك مثل الملاك، ثم هناك غرفة نوم أخرى دلفت لها في حذر.

كان هناك صوت يصدر من الحمام، هناك أحدهم يغتسل، ربما هو وربما هي، جلست علي مقعد مجاور للحمام و أنا أراقب باب الحمام في هدوء، ويدي تداعب زناد مسدسي.

مرت دقائق و أنا أتوقف مرتقبا من سيخرج إلي من باب الحمام

تري هل سأقابله بحضن أم برصاصة؟!

شعرت بها تخرج بعد دقائق، كانت شبه عارية إلا من معطف حمام وقد اخذت تفرك شعرها مجففة إياه قبل أن تنتبه لوجودي، في البداية تبينت كون رجلا غريباً أبيض الشعر في غرفة نومها فصرخت صرخة مذعورة قصيرة قبل أن تتأكد أنه أنا فتعود لتهمس وهي تكاد يسقط مغشيا عليها:

- (أنور)!!

وقفت لأقترب منها في بطء و أنا أتأملها، لازلت كما هي جميلة وإن نحف جسدها قليلاً، ترى هل أستطيع أن أحتضنها، ترى هل ستقبل، لم تمهلني للتساؤل اذ إنطلقت ترتمي بين أحضاني وتبكي قائلة:

- (أنور) يا قلبي، أخيرا عدت!!

لامست شعرها في حنان قبل أن أنتزعها من صدري قائلا في دهشة:

- عدت، إذن كنت تعرفين أني حي وليس كما أخبرتني أمك أنك صدقتي قصة موتي.

جلست على الفراش وهي تقول مطرقة:

- في البداية كلنا صدقنا قصة موتك، حتي ظهر (فائز) مرة أخرى في حياتي، طلب العودة لي، رفضت في البداية حتي أوقفني ذات مرة ليخبرني أنك حي وأن حياتك سوف تستمر فقط إن رجعت له، صدقني لم يكن لدي خيار، قدمتك على نفسي، عدت له مكرهة، لن تستطيع تصديق أن كل يوم مر علي منذ عودتي له كان قاسياً ومريراً ولكن حينما ألوذ الي فراشي و أتذكر أن هناك نفسا مازال يتردد داخل جسدك بسبب هذه العودة أقبل الأمر.

بدت قصتها عجيبة بالنسبة لي، إذن (فائز) اعترف لها أنه يعرف مكاني وهي صدقته هكذا ببساطة فقلت لها:

- وكيف صدقته، ألم تظني لوهلة أنه يتلاعب بك

- لم يكن يتلاعب، لقد أراني صورة لك وأنت نائم بنفس هيئتك الآن، منذ شهر ونصف، لم يكن ليفتعل كل هذا الشعر الأبيض.

قلت لها في مرارة:

- أصدقك، وأشكرك أنك قدمت هذه التضحية التي لم يكن لها مبرر، الموت كان علي أهون من أن تكوني له مرة أخرى، ولكنه سيدفع الثمن.

- (أنور) ما الذي تنتوي فعله؟

- كما قلت، الموت أهون علي من وجودك معه ولذا سأفعل ما هو لازم لإنهاء هذه الزيجة.

شعرت بها تشهق في رعب مع دوي صوت رصاصة أصابت كتفي وأجبرتني علي ترك مسدسي، وظهرت أمامي صورة الرجل الذي تسبب لي في كل ما عانيته.

(فائز غزوان)

كان يقف متحفزا عند باب الغرفة، نظرت له في غل جاوبني بمثله، قبل أن يقول في صوت رقيع:

- إذن فلقد خرجت مع من خرجوا، ومع ذلك تأبى إلا العودة إلي هنا وتهديد حياتي من جديد، لقد أحسنت بالحضور، مثلي لا يترك ذيولاً خلفه و أنت ذيل يجب دفنه.

هتفت (زمن) وهي تواجهه:

- (فائز) يكفي ما مر به، لندع الأمر يمضي ونخرج جميعا من حياة بعضنا البعض.

جاوبها وهو يحك ذقنه بمسدسه قائلاً:

- جميلة هذه العبارة، نخرج جميعا من حياة بعضنا البعض، ويا ترى هل ستخرجين من حياته إلي حياتي أم من حياتي إلي حياته؟

تبادلت نظرة حائرة بين كلانا قبل أن تقول:

- سأخرج من حياتكم أنتم الاثنين وسأعيش لوحدي مع ابني ، ولكن لنوقف هذا الصراع الآن قبل أن يتأذى أحد.

نظر لي (فائز) وهو يقول:

- إجابة غبية كالعادة، (فائز) لا يخسر أبداً، أنت لي وستظلين لي ولكن لدي حل بسيط وهو إعادة الأمر إلى ما كان عليه، هو ميت رسمياً وسيظل ميتاً للأبد.

عاد يصوب مسدسه نحوي فأسرعت (زمن) تقف أمامي لتحميني بجسدها الضئيل وهي تقول:

- حياتي دون حياته، لا تجرؤ على فعلها.

صحت بها منزعجاً:

- (زمن)إبتعدي.

أجابها هو كذلك وقد شعر بالحنق لردة فعلها

- إبتعدي يا (زمن)

صاحت في عناد أكثر:

- قلت لك لا مزيد من الدماء لتقتلني أو لتدعه يمضي.

شعرت أن الموقف يتعقد فاسرعت أدفع (زمن) نحوه في سرعة و أنا انحرف يمينا ثم أنقض عليه وقد بوغت بإصطدام (زمن) به، أمسكت بيده أحاول أن أنزع عنه المسدس فعاجلني بضربات متوالية في وجهي ولكن غضبي نحوه وخوفي علي (زمن) جعلني أتحملها و أنا أميل يده بالمسدس بعيدا عني ،حاولت (زمن) أن تقترب أكثر لكي تساعدني علي أن أنزع سلاحه ولكنه لاحظ هو إقترابها فضغط علي الزناد وهو يقول في وحشية:

- يا خائنة.

رأيت بلحاظ عيني (زمن) تشهق وقد بان ثقب أحمر في منتصف ثوب الحمام الابيض، شعرت بألمها يصرخ داخل قلبي، تراجعت و أنا أسرع نحوها صارخا بأسمها في جزع.

أمسكتها بين ذراعي و أنا اجلس بها علي الارض و(فائز) يهب من رقدته وهو ينظر لكلانا قبل أن يلقي السلاح وينطلق هاربا خارج الغرفة.

كان وجه (زمن) قد أحمر بشدة وشعرت بأنفاسها متقطعة وهي تقول:

- لا عليك، يكفيني أن أموت بين يديك.

أحتضنتها في ارتباك طفل فقد أمه ليلة العيد و أنا أقول:

- لا يا (زمن) لا تقولي هذا، ستعيشين يا حبي.

تعال صوت إبنها الصغير بالخارج يبكي، وصوت (فائز) يأمره أن يأتي معه، أحترت هل أترك (زمن) أم أدرك الصبي قبل ان يأخذه معه، نظرت لها فقالت بصوت مبحوح:

- لا تدعه يأخذ الصبي،أرجوك.

كان وعيها يتهالك، أسجيتها علي الأرض و أنا اهرع وراء (فائز) لأدركة ولكن أصطكت بمسامعي صوت سيارته وهي تغادر المكان مولية، عدوت ورائها بكل ما أوتيت من قوة ولكن أقدام البشر لم تلحق أبداً إطارات سيارة مندفعة، وكان أخر ما رأيته صورة الصبي من خلال الزجاج الخلفي يصرخ في جزع.

حينما عدت إلى (زمن) وجدتها قد دخلت في إغماءة،لم يكن لدي خبرة عن كيفية التصرف في ذلك الموقف وزاد من ارتباكي صراخ الخادمة الأسيوية، أمرتها بالصمت و أنا احمل (زمن) بين يداي وأسرع بها نحو الشارع رغم الدماء التي تسير من جرحي ووهن ما مررت به و أنا أنظر للسماء في رجاء:

- يا رب، لا تدعني افقدها.

ولكن كان لله رأي أخر.

الفصل السابع عشر (وداعاً بغداد)

أقلعت بي الطائرة نحو وجهتها وساعدت الرجل الذي يجلس إلي جواري علي تشغيل الشاشة التي أمامه، كان انتظارنا بمطار(دبي) قد أستغرق حوالي ساعتين تقريباً وبدا أن الرحلة إلي (طاجيكستان) ستأخذ وقتاً أطول.

عدت أسترخي في جلستي و أنا افتح حاسوبي المحمول و أتفقد الصورة التي طالعتني في الخلفية، كانت صورة المرأة الوحيدة التي تملكت مني القلب والشعور.

صورة (زمن).

نظر لي الرجل بفضول ثم إلي الصورة قبل أن يقول في تطفل غريب:

- إبنتك؟

شعرت بالإهانة لسؤاله قبل أن انتبه أن شعري الأبيض صار يعطيني عشرين عاما فوق عمري الحقيقي فقلت في اقتضاب:

- أنا لست كبيراً لهذا الحد، أنا لم اتجاوز الخامسة والثلاثين من عمري، لا،هي فقط امراة عزيزة علي قلبي.

صمت للحظة قبل ان يقول:

- تبدو شامية؟

- لا بل عراقية.

- هل العراقيات بهذا الجمال؟

- نعم وهي أجملهن.

- سأذهب للعراق قريباً، هناك فندق سأعمل علي تطويره الصيف القادم مع شركة (ميلينيوم).

نظرت له وقد شعرت أنه ربما يتكلم عن شيء أعرفه:

- أنا كنت ب (بغداد) عن أي فندق تتحدث ؟

فرك رأسه وكأنه يفكر قبل ان يقول:

- أسمه (مشتار) أو (وشتار) تقريباً.

إبتسمت و أنا أقل له:

- تقصد (عشتار).

- الله ينير طريقك،نعم هو.

مددت يدي له أصافحه قائلاً:

- أسمي (انور الرفاعي)

شعر بانه قد أزال حاجز الجليد بيني وبينه فمد يده يصافحني بحرارة قائلاً:

- و أنا (حسام الخطيب) ،خبير فندقي من مصر.

- تشرفنا.

عدت أتامل ما آلت اليه الأمور، كنت أتمنى من صميم قلبي أن يسير القدر وفق ما أشتهيت وأن ألحق بالمستشفى و أنقذ (زمن) ولكن الزمن نفسه أبي الا أن يسبقني، فلفظت انفاسها بين يدي علي أبواب المستشفى، عشت بعدها في دوامة من الحزن والارتباك.

أتذكر أنها صاحت بي ونحن علي بعد عدة أمتار من بو ابة المستشفي أن أتوقف، نظرت لي بعين يائسة وكأنها تدرك أنها النهاية قبل ان تخاطبي بصوت واهن:

- توقف، ليس هناك من وقت، الأمر أنتهى.

بكيت بأحر دمعي و أنا الثم يداها قائلا:

- لا يا (زمن) لا تقولي هذا، ستعيشين، نحن هنا داخل المستشفى، انظري ، أري المسعفين قادمين، ستعيشين وستتحررين وسنتزوج و...

كنت أحادثها بكل جذع و أنا أشير إلي المسعفين القادمين من بعيد في هستيريا ولكنها بضعف امسكت راحة يدي وكأنها ترجوني الصمت قبل ان تقول بصوت بدا يخبوا رويداً رويداً:

- سنتقابل في عالم آخر أفضل، الآن عدني ، يجب ان ترجع ابني ، إنقذه من أبيه وهبه لأمي.

صمت وقد غلبت دموعي عباراتي فعادت تقول:

- عدني .

- أعدك

- أقسم أنك ستفعل

- ومقدار حبي لك سأفعل، والله سأفعل.

لاحظت نظرتها المتجمدة التي تتطلع الي وجهي، لقد لفظت أنفاسها الأخيرة بين ذراعي ، لا أعلم هل سمعت قسمي لها ام فارقت الحياة قبله ولكني صممت أن أبر بقسمي لها، أسبلت عينيها لأغلقهما و أنا أردد بشكل هستيري "والله سأفعل .. والله سأفعل"

إنفضح أمر السجن السري الذي كنت فيه وأتضح أنه يتبع أعلى الجهات السيادية في البلاد وأنهم يسجنون فيه كافة أطياف المغضوب عليهم من كل التيارات والمكونات التي تخرج عن السرب الأوحد في البلاد وأن سجني جاء بعد توصية من (فائز غزوان).

كان (فائز) أول من فر من البلاد عقب هذه الفضيحة، حيث أخذ ابنه وسافر إلي (طاجيكستان) وسمعت أنه يدرب قوات مرتزقة هناك تخص حكومة تلك البلاد.

لم تصدق أمي وأختي أنفسهما حينما فوجئتا بي أتصل بهما من العراق، أغمي على أمي فوراً وأسعفتها (علياء) قبل أن تفقد الثانية وعيها أيضا من فرط المفاجأة، لا داع لذكر كم اللحظات المؤثرة عند اللقاء وكم كانت أمي قاب قوسين أو أدنى أن تصاب بأزمة قلبية نتاج الفرحة الغامرة، طبعا حققت رغبة أمي أخيراً بالابتعاد عن (بغداد) وإلى الأبد، بل وحققت لها رغبتها بأن أعود للاستقرار في الأردن ولكن استئذنت منها في سفر قصير إلي (طاجيكستان) لأبر بوعد كنت قد قطعته لأمراة علي مشارف الموت.

ثأري مع (فائز غزوان) لم ينتهي بعد، بل أصبحت له أسبابا أكثر ويجب أن اعود بالصبي إلي جدته فهي أولى به من ذلك الأب الفاسد القاتل.

من العجيب أن القدر قد أبدع في تصفية الحساب مع (هشام) الذي تم اختطافه كذلك من قبل إحدي المليشيات السنية المسلحة قبل أن يذبحوه في شريط فيديو شهير إنتشر بيننا فيما بعد، لم اكن اعلم بتورطه في اختطافي الا حينما أخبرني الضابط الذي عثر علي جثته أنهم وجدوا في هاتفه النقال صورة لي وأنا بالسجن الذي كنت فيه وكشفوا عن إتصالات بينه وبين (فائز) منذ مدة، ولكن إلي الآن لم أعلم هل كان هو أيضا وراء الاختطاف الأول أم لا، حسنا بعض الأسرار لن يكشف عنها أبداً، كان (هشام) جزء من المؤامرة التي حيكت لي وقذفت بي إلي غياهب السجن السري، ما دوره بالضبط لا أعرفه ولكن تذكرت المتآمرين الثلاثة الذين كانوا في رو اية (كونت دي مونت كريستو) وكيف تم الإنتقام منهم، واحد ربي كفاني مؤنته والثاني علي اللحاق به وفعلها بنفسي.

كانت لحظات مغادرة (بغداد) للمرة الأخيرة مؤثرة، الكل هرع للقائي وصارت قصتي تتردد علي كل الأفواه، الرجل الذي عاد مرتين من الموت، انا أشد دليل علي أن لكل أجل كتاب فعلاً، كانت حياتي على المحك مرتين فعليا و أقتربت من حافة الموت ولكن لازال في كتابي أنفاس يجب أن أتنفسها وأرزاق يجب أن أخذها ولن تستطيع (بغداد) أو غيرها أن تغير قدر الله لي.

ودعني العاملين بالفندق في حرارة بالغة، تأملت الوجوه التي أحبتني وأحببتهم كثيراً، ما بين (نعيم الشيعي) و(ضياء السني) و(لويس المسيحي) هنا العراق بكل أطيافه متجسداً وأرجو لهم السلامة علي الدوام فإن كنت قد غادرتهم بجسدي فلم يغادروني بأرواحهم.

العراق ليس سيئاً ولا فضل به لجنس على جنس ولا لدين على دين، السوء يخرج من الطبائع ،لقد أحببت الايزيدية وأحبتني الشيعية و أنا السني بين الأثنين ولم أجد فارقاً كبيراً، نفس الدم ونفس الرائحة ونفس الضحكة ساعة السعادة ونفس طعم الدموع ساعة الشقاء، الإنسان ولد حراً من دون أي قيد ولو صادف حظك انك كنت بإحدي الفئات دون غيرها فعليك محبة الجميع ومن الإيمان محبة جميع الخلائق بلا إستثناء.

ودعت أصدقائي بالشركة وكان الوداع حاراً كذلك، أصر (عبد الرحمن) وعدد من الرفاق بالبنك علي إيصالي بأنفسهم إلي المطار رغم كون (أبو حيدر) معي ولكنهم ربما خمنوا أنها المرة الأخيرة التي يروني بها، حينما وصلت إلي منطقة (إبن فرناس) أخيراً ترجلت وانا اركب سيارة أخرى، كان أخر ما طالعني وجه (أبو حيدر) لوحت له بيدي، إبتسم لأول مرة وهو يلوح لي بيده مودعاً.

بينما أنا في مطار (بغداد) أنتظر طائرتي المسافرة إلي العاصمة الأردنية (عمان) لمحت خيالاً جميلاً لشخص أعرفه، كانت سولين تجر حقيبتها

الصغيرة وتنطلق لتلحق برحلة ما، لا اعلم ما وجهتها ولكني قدرت أنها متأخرة عليها، بنظرة عابرة لم تقصدها لمحتني، توقفت لبرهة وكأنما تسبر معالم وجهي التي تغيرت كثيرا قبل أن تضع نظارتها علي عينيها وتغادرني وكأنها لا تعرفني، لا أعلم وجهتك يا (سولين) ولكن لتصحبك السلامة أيا كانت.

إستقلت من عملي بالشركة ووعدت أمي بالعودة إلي الاردن والأستقرار هناك سريعا، وكانت نفسي تحن إلي ذلك بعد كل هذا العناء، ولكن يبقى الوعد الذي قطعته نفسي أمام (زمن) ويجب أن أفي به.

وهأنذا في طريقي إلي العاصمة (طشقند) لذلك الغرض.

إنتزعني الرجل الفندقي الفضولي من شرودي وذكرياتي وهو يقول في تطفل أخر:

- شعرك كله أبيض، مع أنك لا تتجاوز الخامسة والثلاثين كما تقول.

نظرت له وقد شعرت أني أريد أن أعاقبه علي فضوله الزائد فقلت له:

- كان شعري بمثل لون شعرك منذ أقل من عام ولكن شيبتني بغداد.

شعر بالتوتر وهو يزدرد لعابه قائلاً:

- لماذا؟

اعتدلت في جلستي و أنا أنظر لعينيه قائلاً في صوت عميق:

- أنصت جيدا، سأحكي لك قصة الف شعرة بيضاء.

تمت

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

نبذة عن الكاتب

حسام الخطيب
من مواليد محافظة سوهاج عام ١٩٨٢
حاصل على بكالوريوس سياحة وفنادق من جامعة المنيا
وعلى ليسانس حقوق من جامعة الإسكندرية.
يعمل مديراً فندقياً، وخبيرا في التنمية البشرية.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017